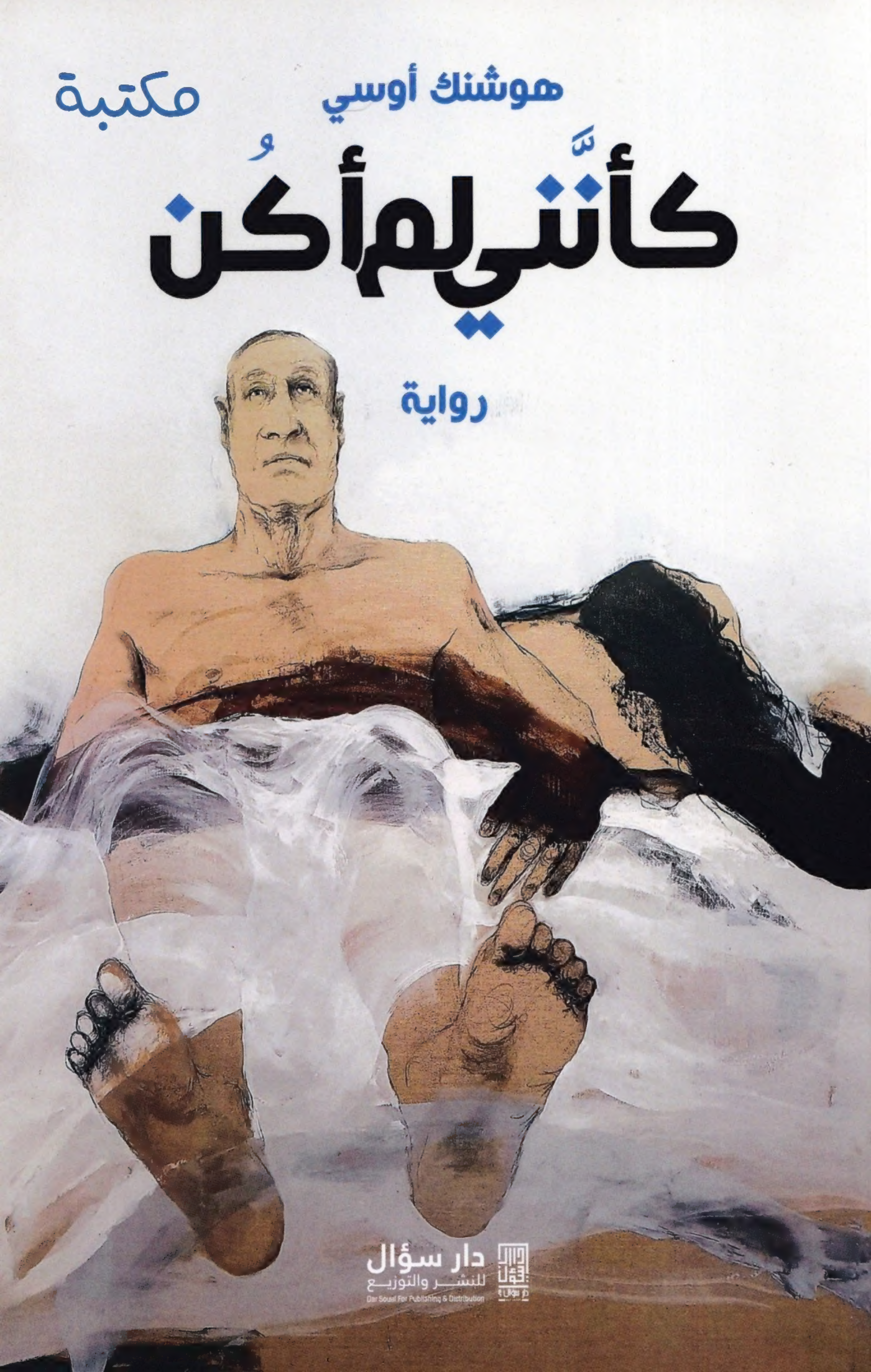


مكتبة
هوشنك أوسي
كأنّني لم أكُن
رواية
دار سؤال
للنشر والتوزيع
Dar Soual For Publishing & Distribution

كأنَّني لَم أكُنْ

هوشنك أوسي

كأنّني لَم أكُنْ

رواية





t.me/soramnqraa

الطبعة الأولى، 2022
عدد الصفحات: 232
القياس: 14.5 × 21.5

دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
بيروت - النويري - شارع سيدي حسن - بناية غلاييني - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 00961 81 883687

www.darsoual.com
@darsouall2014
dar_souaal@outlook.com
Dar Soual

ISBN: 978-614-491-002-3

لوحة الغلاف للفنان Barham Hajou

إلى أمّي التي لا تعرفُ القراءةَ والكتابة، وتجيدُ فقط الحزنَ والألمَ والغناءَ وسرد الحكايات.

هوشنك أوسي

26 نوفمبر 2019

أوستند - بلجيكا



سيأتي اليوم الذي أندمُ فيهِ على كلِّ الأشياء التي لم أقترفها، أكثر مِن التي اقترفتُها. لذا، عليَّ ارتكابُ المزيد، حتّى يكون هناك توازن أو تعادل.

إنْ اقترفتم الشَّيءَ أو لم تقترفوه، في كلتا الحالتين، أنتم أبناءُ النَّدم الشّرعيون، وهو الابن الشَّرعيُّ للحياة. مهما أخذتنا العزّةُ بالتكبّر والتجبّر والخيلاء، وأمعنا في نفيه عن أنفسنا، أفعالنا ومشاعرنا، فنحن كاذبون. ما مِن أحدٍ دخل الحياة، إلّا وكان النَّدمُ في استقبالهِ. وما مِن أحدٍ خرجَ منها، إلّا وهو في وداعهِ، كي يستقبل وافداً آخر، ينوي دخولَها، لأنه أحد الأبطال الأبديين على مسرح الحياة، ونحن محضُ كومبارس؛ نتناوبُ على الصُّعود إلى خشبة المسرح والنزول منها. لكنَّهُ ليسَ بمعلّمٍ، والحياةُ ليست مدرسةً، ولسنا تلاميذ أبديين. الحياةُ حيوات؛ روايات لا حصر لها، لا ولن تنتهي، يرويها كاتبٌ واحدٌ يحترم نفسهُ، وقرّاءهُ، ونصوصهُ، ولا نحترمهُ. إنه ذلك الكاتب العظيمُ الذي في داخل كلّ واحدٍ منّا؛ واسمهُ النَّدم.

ماذا تفعل هذه النجمة هنا؟!

لا جديد. وما مِن رتابةٍ أيضاً. كأنَّ الأمرَ باتَ في حكم العادة لديهِ؛ كلَّما غاصت بهِ لحظاتُ التأمّلِ في ثنائيّة الظلِّ والنور بعيداً. يشعرُ أحياناً أن ظلّه، لا يطيعهُ أو يطاوعهُ؛ لا يقلّد حركاتهِ ويمتنعُ عن تتبّعها، يسعى إلى الفكاك منهُ. أحياناً أخرى، يظنُّ أن ظلَّهُ تنتابهُ حالةُ هلعٍ منهُ. الجسدُ أيضاً ظلّ، يحجبُ عن الظلِّ النور. كل ظلٍّ رهنُ جسدهِ، وكل جسدٍ رهانُ ظلِّه. بينما هو، يعيشُ شيئاً شبيهاً بالسكينة والطمأنينة والرضا الداخلي، من دون إمساكهِ بتلابيبِ الأسباب التي تفضي بهِ إلى ذلك الشبيه بالرضا والسلام الداخلي، علماً أن الأجواء المحيطة به، تُنذرُ بحربٍ وشيكة. يهجسُ خلدهُ بفكرةٍ مجنونةٍ؛ أنه ثمّة تنافر أو تضاد أو أقلَّهُ؛ عدم رضا وانسجام بينهُ وبين ظلِّهِ، كأنّهُ ظلٌّ لشخصٍ آخر. «هل هذا مؤشّر يشي بوجودِ الخلاف أو الخصومة بينهما؟! وما سبب تلك الخصومة؟!» يسأل نفسهُ مراراً، من دون إجابة. مع ذلك، لا جديد. لكن، ما مِن رتابةٍ أيضاً.

مغتبطاً وتَعِباً في آن، كَمنْ أوشكَ على الفروغِ من عملٍ يحبّهُ وأضناهُ. بمتعةِ مَن يقودُ درّاجتهُ على طريقٍ ترابي يشقُّ غابةً أو حقولَ

قمحٍ، والنسائمُ تنفحُ وجهه وجسدهُ، وتداعب خصلات شعرهِ، يرتشفُ رابعَ فنجانٍ من القهوةِ هذا النهار، على أقلّ من مهلهِ. رائقُ الذهنِ، سارحُ الفكر، واقفاً في شرفة الطابق الثاني لمنزله الدمشقي القديم، المطلَّةِ على فناء الدار الذي تتوسّطه بركة ماء، ذاتُ نافورةٍ دائمةِ التدفّقِ والخفقان. خريرها خريرُ جدولٍ صغير يعبر بستاناً نحو حقلٍ أكبر وأوسع. زقزقة العصافير التي تقفز متنقلّةً بين أغصان أشجار الليمون والنارنج والرمّان، لا تفارقُ المنزلَ، إلّا مع إطباقِ الليلِ سلطانهُ على المكان. أرضيّة الفناء المرصّفة بالبلاط الأسود والأبيض، كرقعة شطرنج، تتوزّع عليها نباتات وشجيرات زينة موضوعة في علبٍ معدنيّة وأوانٍ فخّاريّة، موجودة على حواف البركة السداسيّة الأضلاع، وفي كامل محيط الفناء، بدلاً من الجنود، الفيلة، الأحصنة، القلاع، الوزيرين والملكين الذين من المفترض أن يكونوا عناصر أيّة معركةٍ شطرنجيّة. في الزوايا، يتسلّق اللبلاب الكسولُ، على مضض، الخيوطَ المشدودة إلى الأعلى، وصولاً إلى السقف، بحيث يبدو اللبلاب إطاراً من الخضرة، يزيّن حواف وزوايا البيت من داخل فنائه.

ليس بعيداً من المنزل الهانئ بما فيهِ، الكائن في أطراف حيّ الصالحيّة الدمشقي، أصواتُ رشقات الرصاص آتيةٌ من أحياء «الميدان» و«الشاغور» و«ركن الدين»، نتيجة الصدامات بين المتظاهرين ورجال الأمن. تلك الرشقات المتقطّعة، تتناهى إلى مسامعه، لكنها لا تعكّر عليهِ خلوته وتأمّلاته، كأنّهُ شخصٌ عاش ردحاً من عمرهِ وسط حروبٍ أهليّة أو في ساحات المعارك. اعتادَ على صوت الرصاص وأزيزه. صارت في حكم المألوف أو مِن

طقوس النهارات والليالي الدمشقيّة. أو رُبَّما أنّه عزلَ نفسهُ عن المحيط وضجيجه السياسي والعسكري تماماً، لانشغالهِ بشيءٍ آخر، سطا على كلّ تفكيرهِ وتركيزهِ، مانعاً عنهُ الانقياد وراءَ أيّ شيءٍ آخر، يشوّشُ عليه ما هو فيه. عليهِ الانتهاء من تحضيرات معرضه الفردي الذي سيُقام بعد ثلاثة أشهر.

في الطابق الثاني من المنزل، ستُّ غرف نومٍ واسعة، بنوافذ مطلّة على الفناء. اتخذ هوزان (Hozan) إحداها مرسماً له. بينما غرفة المعشية والمطبخ والحمّام، وغرفة المؤونة وغرفة أخرى يتم استخدامها كمستودع، موجودة في الطابق الأرضي.

في منتصفِ الثمانينات، وبعد اجتيازهِ اختبارات كليّة الفنون الجميلة بدمشق، وتحقيق طموحهِ أن يكون طالباً فيها، بدأ يفكِّرُ في تحويل إحدى الغرف إلى مرسمٍ خاصٍ له، لتكون حجرتهُ الفنيّة أو مختبرهُ الفنّي الذي يأوي إليهِ. وقع اختيارهُ على غرفة المستودع. دخلها ذات يوم، وجدها تصلحُ لذلكَ، لكن بعد إجراء الكثير من الإصلاحات والطلاء والإنارة والتهوية، ورمي أو نقل كل تلك الكراكيب الموجودة فيهِ إلى غرفة أخرى. عَدلَ عن الفكرة. طالما أن البيت واسع، وهناك خيارات في الطابق الأوّل، حيث الشمس تدخل الغرف والهواء الطلق، والإطلالة على فناء المنزل وخارجهُ أيضاً.

أثناء تجوالهِ في المستودع، لاحظ شيئاً أشبهَ بإطار لوحة، موجود خلف خزانة صفيح ببابين. الإنارة ضعيفة، ولمبة المستودع محترقة. جلب معه مصباح يد «بيل» وصارَ يستطلعُ المكان بحذرٍ وخوف كَلِصّ. تفحَّصَ خزانةَ الصفيح الصدئة والمتهالكة، وجدها تحوي أحذيةً قديمة، مطارق ومسامير، منشاراً، وسكاكين صدئة جداً، لكأنَّ

أحداً لم يفتحها لما يزيدُ عن قرن. تأكّدَ لهُ وجود إطار خلفها. الفضولُ الذي يسري في دمهِ كدبيب النمل، دفعهُ للمضي نحو معرفة ما هو موجود خلف الخزانة. أزال الكراكيب المتراكمة إلى يسارها، ثمّ أزاحها قليلاً، فتفاجأ أن الإطار هو لباب خشبي، عليهِ سلسلة وقفل. زاد الفضولُ من نعرِ خيالهِ وإثارةِ رغبتهِ في معرفة: إلى ماذا يفضي هذا الباب الصغير؟! لحسن حظّهِ أنهُ وحدهُ في البيت، لأفزعَ صوتُ مطرقتهِ وهي تهوي على القفل، أهل الدار، وجعلتهم يهرعون صوبهُ، لمعرفة ما يجري. كسرَ القفل، وسحب السلسلة، وفتح الباب، وإذا بدهليزٍ مُدرَّجٍ نحو الأسفل، وسط عتمةٍ خانقة، لم يسعفهُ ضوء «البيل»، لمعرفةِ عددِ درجاته. جلبَ مصباحاً سيّاراً أكبر موصولاً بكابل يزيد طوله عن خمسة عشر متراً. ومع بدء النور تدفقهُ في الدهليز، لاحظ هوزان ضباباً كثيفاً تشكّل من التصاق الغبار بشبكات العناكب التي يبدو أنها نصبت مضاربها هنا، منذ عشرات السنين. حاول رمي أكياس مليئة بالثياب القديمة إلى الأسفل، حتّى تزيل مضاربَ العناكبِ الكثيفة جدّاً من أمامهِ، وتفتح له ممراً آمناً نحو الأسفل. لم ينفع ذلك. جلب عصاً بطول متر ونصف، غالباً كانت لممسحة، وخرزَ بها قماشة، وصار يحملها بيده اليمنى ويحرّكها بشكل دائري، كي يزيل المتبقّي من بيوت العناكب، بينما يحمل باليد الأخرى، المصباح السيّار. كلّما نزلت قدمهُ درجة، كان يعدّها، إلى أن وصل إلى الرقم 12، وقدّر أن ارتفاع كل درجة يتراوح بين 25 و30 سنتيمتراً. وجدَ نفسهُ في سرداب مُظلم تماماً. أرضيّته صلبة وجافّة، وكذلك جدرانهُ، بالكاد يشتمُّ منه رائحة العفونة والرطوبة. رائحة الخشب والأوراق الأكثر طغياناً فيه. ناهيكم عن بيوت

العناكب والحشرات الميّتة المزدحمة في كل الزوايا. لا ثقوب أو جحور في السقف أو أسفل الجدران. لا أثرَ يدلُّ على وجودِ الفئران أو الجرذان هنا. ملاذ آمن تماماً لهذه الصناديق الخشبيّةِ القويّةِ السميكةِ الكبيرةِ، المصفوفة بعضها إلى جانب بعض كأنها توابيت، وليست بتوابيت. سأل نفسه: «لماذا لم يخبرنا والدنا بوجود هذا السرداب؟! أيعقل أنهُ لم يكن يعرف عنهُ شيئاً!؟».

اقتربَ من أحد الصناديق. فتحهُ بحذر، وإذا به يرى كتباً ومصنّفاتٍ قديمةً، مرصوصةً بعضها فوق بعض. تناول كتاباً، ونفضَ عنهُ الغبار، فقرأ على غلافهِ «منازلُ الإيمان واليقين، ومظاهر الإذعان والتلقين» للعلّامة الشيخ أبي حذيفة واصل بن عطاء المخزومي. أعادهُ إلى مكانهِ. حملَ كتاباً آخر، قرأ على غلافهِ: «نهجُ الحكمةِ وإبراءُ الذمَّة من أهلِ الفتنة والنِّقمة» لأمير المؤمنين عبداللّه بن وهب الراسبي. وضعهُ حيث كان. حمل كتاباً آخر، وقرأ عنوانه: «فضيحة المعتزلة» لأبي الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي. أغلق هوزان هذا الصندوق، واتّجه إلى الذي يليهِ، وجدهُ أيضاً ممتلئاً بالكتب العتيقة والمصنّفات. حمل كتاباً ضخماً وقرأ ما كُتبَ على غلافه: «شمس المعارف الكبرى ولطائفُ العوارف» للإمام الحجّة أبي العبّاس أحمد بن علي البوني. وتبيّن له أن الصندوق يحتوي على ثلاثة أجزاءٍ أخرى لهذا الكتاب. وعثر على عناوين أخرى: «أبواب علومِ الغيب» لأبي الجهجاه حسن بن عين الذهب البصري، و«السراج الوهّاج في أحكام الكفّ والرمل والأبراج» للعلامّة الشيخ؛ أبي داوود، سليمان كوهين الفاسي، و«تحفةُ الأطَهار في مناسكِ الإحضار» للشيخ العلّامة أبي مظلومة بتّار بن لقمان الطبرستاني.

استشفّ أن هذا الصندوق مخصصٌ لكتب السحر والتنجيم وإحضار الجنّ والأرواح.

شعرَ هوزان أن الوقت يداهمهُ. رُبَّما يدخل عليهِ أحدهم السرداب. أغلق الصندوق، وهمَّ بصعود الدرجات الاثنتي عشرة. قبل خروجه، لاحظ وجود نصّ مكتوبٍ على الوجه الخلفي لباب السرداب، جاء فيه: «أيّها الخارجُ من هنا، كُنْ سرداباً أعمق، واحفظْ سرَّ هذا المكان». ما إن قرأ تلكَ الوصيّة التي تنطوي على تحذير ضمني، عرف لماذا لم يخبرهُ والدهُ شيئاً عن المكان.

كلما سنحت له الفرصة، ينزلُ إلى السرداب، ويتفحّص محتويات الصناديق. وجد أن أحدها يحتوي كتباً ومخطوطات مكتوبة بالعبريّة، وصندوقاً آخر يحتوي مصنّفاتٍ وكتباً ومخطوطاتٍ مكتوبةً باللغة الآراميّة. عثرَ على مخطوطات مكتوبة باللغة الكرديّة، ولغة الأفيستا القديمة التي كتب بها زرادشت. بين الفينة والأخرى، يدخل سردابه، ويقرأ بعض الصفحات من الكتب المكتوبة بالعربيّة أو الكرديّة، فلا يفهم منها شيئاً. رغم حداثة وعيه، أدرك أن هذا السرداب، منجم كنوز من أمّهات الكتب التي نجت من الحظر والحرق سواء أثناء حروب الفرق الإسلاميّة بعضها على بعض، أو أثناء الغزو المغولي والعثماني للمنطقة. قرر أنه لم يحن الوقت بعد للاطلاع على هذه الكتب. أولى وأجدى به التركيز على دراسته الجامعيّة وفنّه، وسيمنحه العمر متسعاً لمعاودة دخول السرداب. بمرور السنوات، سقطَ السرداب من ذاكرة هوزان، وصار نسياً منسياً، وكأنّه لم يكن.

* * *

يقفُ في الشرفة التي تعلوها ثلاث قناطر صغيرة ترتكزُ على أعمدة، مزّينة بأصص الورد والريحان والنباتات العطريّة. تَظهرُ له قبّة ومئذنة جامع الشيخ محي الدين بن عربي الذي لا يبعد عن المنزل أكثر من مئتي متر. من خلف المئذنة والقبّة، يظهر جبل «قاسيون» وزحفُ السكن العشوائي لسفحهِ، كجيشٍ جرارٍ منهكٍ مهزومٍ هاربٍ من المعركة، يريدُ الوصول إلى القمّة المطلّة على الشام بأكملها، بهدف استجماع نفسه وقوّته.

أثناء نزوله من الدرج قبالة الباب الخارجي للبيت، تقعُ عيناهُ دائماً على نجمة داوود الموجودة في أعلى الباب، يظللها اللبلاب، وبالكاد تظهر الأسنان السفلى الثلاث للنجمة. يتذكّر السؤال الذي كثيراً ما طرحه على والدهِ، حين كان في التاسعة من عمره:

- أبي، ماذا تفعل هذه النجمة المتحجّرة هنا؟! أسقطتْ من السماء؟!

- لا أعلم يا بُني. اشتريت المنزل وهي هنا. رُبَّما كي تحرس هذه الأشجار في حوش الدار.

- لكنها بستةِ مناقير! بينما النجوم الموجودة على علم المدرسة، بخمسة مناقير!

- نجمة علم المدرسة أيضاً كانت بستة مناقير، انكسر أحدها، فأصبحت خمسةً. أو النجمة الموجودة فوق باب المنزل، نبت لها منقار سادس.

- لكن مناقير نجمة العَلم مدببة وحادة، أكثر من مناقير هذه النجمة!

يتذكّر هوزان تلك الأسئلة الطفوليّة اللحوحة، ومحاولةَ أبيه كتمَ امتعاضهِ وتململهِ من تكرارها واضطرارهِ إلى مسايرة طفلهِ. بعد أن كَبُرَ بضع سنوات أُخر، عرفَ الفروق بين نجمة داوود ونجمتي العلم الوطني. صار يعيد طرح أسئلته مجدداً على أبيه، بصيغة أخرى، أكثر وضوحاً:

- أبي، ماذا تفعل نجمة اليهود، في أعلى باب منزلنا من الداخل؟!

- لا أعرف يا بُني. اشتريت الدار سنة 1962، قبل أن تولد بثلاث سنوات. ولد فيه أخوك شاهوز (Shahoz)، ثم أنت، فأخوك باران (Baran). أمّا أختكَ الكبرى مريم فولدت في «طشقند». وأختكَ ناتالي، ولدت سنة 1959 على متن الباخرة الروسيّة «غروزيا» التي أقلّتنا من ميناء «أوديسا» على البحر الأسود إلى ميناء البصرة، مروراً بالعديد من البحار.

في ما بعد، اكتشف هوزان حلّ لغز وجود النجمة في أعلى الباب من الداخل، وارتباطها بالشكل السداسي لبركة الماء التي تتوسط فناء الدار. اكتشف وجود النجمة ضمن الزخارف والنقوش الموجودة في الأفاريز والدرابزين الذي يسيّج الشرفة. حين تحرّى عن تاريخ بناء الدار من مؤسسة المصالح العقارية، اكتشف أن صاحبهُ الحقيقي يهودي اسمه جميل بنيامين حاييم. اعتنق الإسلام سنة 1889، غيّر اسمه إلى عمر محمد علي. غادر حيّ اليهود الدمشقي، واستقرّ قريباً من مسجد الشيخ محيي الدين بن عربي. غيّرَ صنعتهُ وتجارتهُ من صياغة الذهب إلى بيع الأقمشة. اشترى دكّاناً في سوق الصالحية. رغم عدم انقطاعهِ عن صلاتَي الفجر والجمعة في

المسجد، وعلاقتهِ الودودة مع جيرانهِ، ومنحهِ الصدقات لفقراء المسلمين، إلّا أن أحداً من المسلمين لم يزوّجهُ ابنتهُ. لأن الناس لم تثق بإسلامهِ، وتشيعُ الأخبارَ عنه على أنه ما زال على يهوديّته، ويكتمها! بينما اعتبرهُ اليهود مارقاً مرتدّاً خائناً. بنى الرجلُ لنفسه هذا المنزل قريباً من المسجد. كان الجيران يسمعون صوت نحيبهِ وبكائهِ، من دون معرفة السبب. نادراً ما يصلّي في البيت. خاصةً صلاة الفجر، يصلّيها في المسجد. أثناء السجود في صلاة الفجر، كثيراً ما يبكي لشدّة الخشوع. يظنُّ البعض به؛ أنه يفتعل ذلك سعياً وراء كسب الشفقة والودّ. ذات يوم، أثناء السجود، لم يرفع عمر محمد علي رأسه مطلقاً. حاول أحدهم لمس جسده وتنبيهه على ضرورة القيام، وإذا به يلمسُ كتلةً باردةً متخشّبةً، هي محض جثّةٍ هامدة، كأنّ صاحبها مات منذ مئة عام. مع اللمس والهزّ بداعي التنبيه، انقلبتِ الجثّةُ على الأرض، وبانت ابتسامةُ الميّتِ الرقيقةُ على محيّاه، وعيناهُ مغرورقتان بالدمع. صرخ الرجل مكبّراً مستغيثاً. التمَّ حولهُ المصلّون هرعين فزعين. بعد غسلهِ وتكفينهِ، صُلّي عليه صلاة الجنازة في مسجد محيي الدين بن عربي. رغم موته في المسجد وعلى سجّادة الصلاة، لم يُدفن في مدافن المسلمين، ولا في مقابر اليهود. ووري الثرى في زاويةٍ من فناء منزلهِ، دون أن توضع له شاهدة. خرجَت في جنازتهِ مجموعةٌ لم تتجاوز عشرة أشخاص. بعد دفنه وفق الشرع الإسلامي، وإهالة الترابِ عليه، جلسَ الشيخ إلى جانب قبرهِ كي يقرأ عليه التلقين. ارتبكَ، أثناء ذكر اسم الأب والأم:

- يا عمر بن بنيامين حاييم، ويا عبد اللّه بن أمة اللّه؛ راحيل،

اذكر العهد الذي خرجتَ عليه من الدنيا؛ شهادة أن لا إله إلَّا اللّه وحده لا شريك له. وأنّ محمداً عبده ورسوله. وأن الجنة حق، والنار حق، والبعث حق. وأن الساعة آتية لا ريب فيها. وأن اللّه يبعثُ من في القبور. وأنك رضيت باللّه ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ صلوات اللّه عليه وعلى آله وصحبه، نبيّاً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً...

حين كرر الملقّن نداءَه: «يا عمر بن بنيامين وراحيل...»، انتابته موجة ضحك، كتمها بشقّ النفس، إلى درجة أن توقّف عن الكلام مطأطأ الرأس، مخبئاً وجهه بين كفّيهِ خجلاً، بينما جسده يهتزّ ويرتعش، ظنّ المشيّعون أن ذلك ناجم من الخشوع والرهبة في حضرة الموت. بينما حقيقة الأمر أن الشيخ ضحك لطرافةِ الاسم؛ عمر بن بنيامين وراحيل!

لكنه عاود امتلاك نفسه مواصلاً التلقين:

سينزلُ عليك الملكان؛ منكر ونكير. أسودان أزرقان، لا يمكنك تحديد طولهما وعرضهما. أعينهما كالبرق الصاعق، وصوتاهما كالرعد القاصف. وأنيابهما كسيوفٍ من لهب في أفواههما، ومناخيرهما ومسامعهما. يحفران الأرض بأظفارهما. مع كل واحد منهما عمود من حديد، لو اجتمع عليه مَن في الأرض، ما حرّكوه. لا تخفْ منهما، ولا تفزع. سيقولان لك: «يا هذا، ذهبت عنك الدنيا وأفضيت إلى ميعادك فأخبرنا مَن ربّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟». قل: «اللّه ربّي، ونبيي محمد، وديني الإسلام». سينهرانك ويعاودان طرح نفس السؤال ثلاث مرّات. أجبهم نفس الإجابة واثبت عليها، إن اللّه مع المؤمنين الصادقين. قل: «اللّه ربّي وربّكما، لا إله

إلّا هو، لا شريك له، فاطر السموات والأرض. ومحمد نبيي، والإسلام ديني». سيقولان لك: «صدقت وبررت، أقرَّ اللّه عينيك وثبّتك. ابشر بالجنّة، وبكرامة اللّه».

* * *

رُبَّما لأنه صار مأخوذاً بفكرة، اعتبرها سابقاً بلهاء، مفادها؛ أنّ الآباء والأجداد، يبقون مستمرّين في الأبناء والأحفاد. ليس على شاكلة تناسخ الأرواح، أو عبادة أرواح الأجداد وتقديس ذكراهم. بل إنّ هناك مورّثات روحيّة أيضاً، إلى جانب المورّثات الجينيّة، مستمرّة، تنتقل من جيلٍ لآخر. تتطوّر وتتغيّر، وتبقى محافظة على كمون الماضي بما فيه من سيَر وحكايات ومعاناة وآلام. لذا، فإن سيرة شالاو حمه عبدالمقصود الكسنزاني القادري، المولود في قرية «حاجي عمران» سنة 1930، لم تكن بالنسبة لابنه هوزان، مدعاة فخرٍ وحسب، بقدر ما هي تفصيلٌ بسيطٌ مِن رحلةِ عذابٍ مديدة، بصحبة الوهم والبحث عن الحريّة المفقودة، سلكها أناسٌ كثيرون قبلهُ، عبر التاريخ، وسيسلكها أناسٌ أكثر، لاحقاً. هذه السيرة سبق أن سردها له والدهُ، حين شبّ هوزان عن الطوق، ذاكراً حكاية نزوحه من قريته «حاجي عمران» على الحدود العراقيّة - الإيرانيّة، والتحاقه بعَسكر الملا مصطفى بارزاني والدخول إلى إيران لمساندة الزعيم الكردي قاضي محمد. وكيف أنه شهد إعلان الجمهوريّة الكرديّة في إيران سنة 1946. تلك الرحلة التي تتحدّث عنها الأدبيات السياسيّة والنضاليّة الكرديّة، كان والده؛ شالاو (Shalaw)، أحد أبطالها. يبقى لوصف وسرد الأب تفاصيل تلك الرحلة

المأساويّة لابنهِ، ذلك المذاق الأليم والحفر العميق في ذاكرة هوزان:

- كأنَّ النسائمَ خناجرُ مثلومةٌ تعبرُ أجسادنا جيئةً وذهاباً، والبردُ يهرسُ أنسجة لحمنا ويطحنُ العظام. أحياناً، تتحوّل النسائم إلى ريحٍ لزجة، مخاطيّة المسرى والهبوب، تصفعنا كألسنة خشنة طويلةٍ خارجة من أفواه ثيران عملاقة. وأحياناً، تعود النسائمُ هادئةً، تسري ببطء في أنخاع العظام والمفاصل كسُمّ يقصف الأضلاع، ويرعد الفرائص والأوداج، ما جعل نزولَ الليلِ كنزولِ الصخورِ على رؤوسنا وصدورنا، ببطءٍ شديد.

كنّا أكثر من مئة شخص. أوقدنا ناراً كبيرة، تلتهم الحطبَ بنهم وشراهة، مصدرةً طقطقةً متفاوتة الإيقاع والصوت. الدفءُ يلفحُ وجوهنا. بينما البرد ما زالَ ينقضُّ بأنيابه وبراثنه على ظهورنا. جمعنا ملا مصطفى في جبل «كوردمند»، وخطب فينا بحماس ذاكراً؛ أنه من الواجب علينا الدفاع عن كردستان. وأن نذهب في نجدة إخوتنا الأكراد في إيران. هذا يوم الكرامة والشرف والناموس الذي ينادينا، ويجب علينا تلبيةُ النداء لمواجهة الأعداء الذين يحتلون وطننا وينهبون خيراتنا، ويريدون قتلنا أو جعلنا خدماً وعبيداً عندهم وتحت أقدامهم. قدرنا مواجهة العدو، والخونة المتعاملين معه.

كنتُ وقتذاك، في السادسة عشرة من عمري. رفيع العود، قويّ البنية. لكن شنبي، يوحي بأنني في مطلع العشرينات. رغم أننا من عائلة متصوفّة متديّنة، تنحدر بجذورها وأصولها إلى الشيخ عبدالقادر الكيلاني، إلّا أن جدّي الرابع؛ عبدالصبور بن أيوب بن يحيى بن

علي بن قطب الدين الكسنزاني القادري، انشقّ عن طريقة الآباء والأجداد وصار نقشبنديّاً، حين التقى بمولانا ذي الجناحين؛ ضياء الدين خالد حسين النقشبندي، في السليمانيّة، قبل انتقال النقشبندي إلى دمشق. وقف جدّي مع أتباع الطريقة الجديدة ضدّ طريقته السابقة. الملا مصطفى بارزاني من عشيرةٍ تدين بالولاء للطريقة النقشبنديّة. وكشابٍّ غرّ، مأخوذٍ بالولاء لمعتقد ومعتنق أبيه المذهبي، أخذني الحماس الصوفي إلى مشايعة الملا مصطفى. لم أفهم من كلامهِ الشيء الكثير، سوى أن هناك عدوّاً؛ يتهددنا. يريد سفك دمائنا، وانتهاك أعراضنا. وجودنا منوطٌ بالقضاء عليهِ.

صرتُ أتخيّلُ أبشعَ الأشكال لذلك الشّيء الذي أطلقوا عليه اسم العدو. تارةً أراهُ شديدَ الفظاعة كقنفذٍ عملاقٍ جدّاً، تخرجُ من جسدهِ أفاعٍ تنفثُ سمّاً وناراً. وأحياناً، تخيّلتهُ وحشاً قبيحَ المنظرِ، ملطّخاً بالدماء، يسيلُ من فمه القيح والمخاط والدم. سألتُ نفسي وقتها: «لكن، من هم الخونة؟!». وبما يشبه إقناع الذات، استدركتُ وقلتُ: «الأولويّة الآن؛ مقاتلة العدو. فمهما بلغ الخونة بشاعةً، لن يكونوا ببشاعة العدو. الخونة أشياء، ربّما تشبهه، لكنها ليست العدو». بتلك السذاجة، حاولتُ تفسير الأمور التي ظننت أنني فهمتها.

افترقنا عن ذلك الاجتماع، بعد قول الملا مصطفى لنا: مَن يريد اللحاق بي، فيحمل كفنهُ وليتبعني، ويأتي بعد أسبوع، إلى هذا المكان، سيجد في انتظارهِ مَن يقودهُ إلى معركة الشرف والكرامة والحريّة والقضاء على العدو.

لم يأخذ منّي قرار الالتحاق بالقتال الكثير من الوقت والتفكير. ذلك أنني اتخذتُ قراري في حينهِ. لم أخبر أحداً. عدتُ إلى نفس

المكان. رأيت نحو خمسين متطوّعاً، يرأسنا شخص آخر، بدت عليه ملامح القائد العسكري، لكنه لم يكن الزعيم بارزاني. ثم لحق بنا مقاتلون جُدد من مناطق أخرى. أغلبنا ينحدرون من منطقة «بارزان». لاحقاً عرفنا أن مجموعات أخرى، اجتازت قبلنا الحدود والممرات الجبليّة الوعرة.

الثلوج تكلل قمم الجبال، كأنّها معاطفُ من قطنٍ ناصعٍ، رغم أننا في منتصف حزيران. في أحد الممرات الجبليّة، الشديدة الوعورة، لحق بنا مقاتلون آتون من مدينة «سردشت» في كردستان إيران. لم نسلك طريقاً مباشراً. انحرفنا قليلاً شمالاً نحو «بيرانشهر». ومن هناك، صارت تقودنا مجموعات أخرى من المقاتلين شرقاً نحو «مهاباد». استغرقت رحلتنا نحو عشرة أيّام، سيراً على الأقدام ليلاً، ونرتاح نهاراً.

كان في استقبالنا الزعيم قاضي محمد، بابتسامتِهِ ووقارِهِ وجلبابِهِ وعمامتِهِ البيضاء. انتابني إحساس بأن هذا الرجل يشبه أبي؛ الشيخ حمه عبدالمقصود الكسنزاني. لم أعِ تماماً ما الذي يجري. شابٌّ مفعمٌ بالحماسة، مأخوذٌ بالرغبة في قتال العدو الذي تحدّث عنه الملا مصطفى في جبل «كوردمند»، والتأهّب لملاقاتِهِ، أكثر من الخوض في تفاصيل المجريات من حولي. لكن، أيُّ عدو؟ وأين؟ لم أكن أعرف ذلك. المهمّ أنه عدوّ، يحضِّرُ نفسه، ويتربّص بنا، كي ينقضّ علينا في أيّة لحظة. «يجب أن نجعله غداءنا قبل أن يجعلنا عشاءهُ»، هكذا قيل لنا. لم يكن أمامنا إلّا أن نصدّق ذلك، ونؤمن به، ونسعى إلى تحقيقه! مضى على وصولنا أشهر، وطيف العدو لا يغادر خيالي. وكيف أنني ورفاقي سنكمن له ونصرعهُ،

ونعلن انتصارنا عليه. أمّا الخونة، فلم يترك لهم العدو مكاناً في مخيّلتي.

ريحٌ خفيفة مرحة تجوب ساحة «جار جرا»، وكأنّها تشاركنا الاحتفاء. لم يكن الجو بارداً، مقارنةً بـ«حاجي عمران»، رغم أننا في الثاني والعشرين من كانون الثاني سنة 1946. الجماهير محتشدة في الساحة تنتظر مراسيم الإعلان عن جمهوريّة «مهاباد». قبل بدء العرض العسكري، تمّ فرزي ضمن إحدى كتائب البيشمركة المشاة. مرّت قبلنا فرق الخيّالة، ثم مررنا أمام الرئيس قاضي محمد المحاط بزعماء العشائر وكبار الضبّاط. لاحظتُ وجود ضابط روسي كبير. لكن، لم أعرف ذلك الشخص الذي يرتدي معطفاً أسودَ ويعتمر قبّعةً سوداء! الآن، بعد مضي كل تلك السنوات، أقول في نفسي إنه كان يشبه ونستون تشرشل. لكن، ما الذي سيأتي بتشرشل إلى هناك؟! إذاً، من كان ذلك الرجل؟! الإجابة على ذلك السؤال الفضولي، ما زالت غصّة في قلبي، وسترافقني إلى قبري أيضاً!

طوال أحد عشر شهراً وأنا أنتظر هجوم العدو علينا. أتخيّلُ نفسي كيف سأواجههُ وأصارعهُ بشراسة، وأرديه قتيلاً. حالةٌ أقرب إلى الهلع والتوتر والقلق والارتباك منها إلى الاستنفار، سائدةٌ بيننا. لا أعرف ما الذي يجري. لحظات عصيبة، تنذرُ بدنوٍّ خطرٍ وشيك، الأعصابُ فيها مشدودة إلى أقصاها. الكلّ يترقّب حدوث شيءٍ ما، لا أحد يعرف كنهه. كمقاتلٍ غرّ، لم يعرف من الحياة شيئاً سوى أن هناك عدوّاً، يجب عليَّ أن أحذرهُ، وأحتاطَ وأكمنَ له في كل الأمكنة، دون أن أعرفَ طبيعة هذا العدو وماهيّته وحجمه. ما لفتَ انتباهي وأثارَ استغرابي أن الحديث عن الخونة صار أكثر حضوراً

وتداولاً بيننا، حتّى أنني ظننتُ أن الخونة على وشكِ الحلول محلّ العدو في الخطورة والبشاعة.

وأخيراً، جاءت تلك اللحظة التاريخيّة التي طال انتظارها، حين أبلغونا بأنه بات على مشارف «مهاباد». أتتنا الأوامر بالتحرّك وضرورة الانسحاب من داخل المدينة كي نواجهه خارجها. كُنتُ في سعادةٍ غامرةٍ ودهشة ويقظة متحفّزة لملاقاتهِ. كأنَّ السماء أو الأرض ستنشقّان في أيّة لحظةٍ ويطلّ من إحداهما العدو، وينقضُّ علينا. لكن، طال الانسحاب إلى خارج «مهاباد». مشينا كثيراً. تركنا المدينة خلفنا تواجه مصيرها. كنّا أكثر من 500 بيشمركة. استمرَّ المسير وطال وطال، ونحن نجتاز القرى والجبال، ونتحاشى المدن، وسطَ زمهرير البرد والثلوج والعواصف العاتية، وتحت رحمةِ الأمطار الغزيرة، التي صادفتنا لاحقاً. ما مِن أحدٍ يقول لنا شيئاً عن الوِجهة! أو ماذا حلّ بـ«مهاباد» وحصار العدو لها؟! مكثنا في مضارب عشيرة «شكاكان» لفترة، ثم غادرناها. اشتبكنا عدّة مرّاتٍ مع الجنود الإيرانيين، وسط قصف الطيران. عرفتُ وقتئذ أنني الآن في مواجهة العدو. قاتلنا بشراسة الضواري الجائعة التي لم تذق طعم طريدة منذ أشهر. قتلنا منهم أعداداً لا أتذكّرها، واستشهد أربعة من رفاقنا.

لا أعرف كمّ مرّة اجتزنا فيها الحدود العراقيّة أو التركيّة أو الإيرانيّة. كل الأمكنة لدي متشابهة ومتشابكة ومتداخلة، وحالي حالُ مَن يظنُّ نفسهُ كبشاً، بينما هو مجرّدُ حَمَلٍ صغيرٍ مذعور سائرٍ في قطيعه المحاصر من قطعان الذئاب التي تترصّدهُ في كلّ مكان. ثلاثة وخمسين يوماً قضيّناها في ظروف عصيبة تطحن الصخر. كأنّها ثلاثة وخمسين دهراً. لم أكن أعلم خلالها شيئاً عن الاتصالات التي

تجريها قيادتنا مع السلطات الإيرانيّة والعراقيّة والتركيّة. هذه الأمور الأمنيّة والسياسيّة العليا، لم نكن معنيين بها أو مطلعين عليها. نحن فقط معنيون بالأوامر المتعلّقة بالهجوم على العدو، حال ظهورهِ لنا.

اعترضَنا نهرٌ عظيم كتنينٍ رابضٍ أنهكهُ الرقص؛ نائمٌ وليس بنائم. عرفتُ في ما بعد أن اسمه «آراس». يبلغ طوله 1072 كيلومتراً. عبر أحد قادتنا إلى الضفّة الأخرى كي يصل إلى المخفر السوفياتي الموجود هناك، ويخبرهم بوصول قافلتنا وزعيمنا. ما كنتُ أعرف أن هناك شيئاً يشبه التنسيق، وطلب الإذن بالعبور. أنا خروفٌ صغير، في قطيعٍ مرعوبٍ منهكٍ يلتمسُ من الأقدارِ لحظةَ أمان، بعيداً من الذئاب وعوائها المستمرّ. بوصولنا الضفّة الأخرى للنهر، صرنا داخل الأراضي السوفياتيّة. بقينا مدّة يومين على حدود «نختشفيان» في أذربيجان، كحِملانٍ مذعورةٍ تنتظرُ النحر، لأن الطيران الإيراني، واصل ملاحقتنا وقصفنا. بمشاهدتي الطائرات الحربيّة أوّل مرّة، تغيّرت صورة العدو التي رسمتُها له في خيالي على أنه ليس فقط وحشاً عملاقاً وقبيحاً على الأرض وحسب، بل ترافقه كائنات متوحّشة موجودة في السماء أيضاً.

بعد مجيء موفد ستالين ولقائهِ بقائدنا؛ ملا مصطفى، واستماعه لمطالبنا التي تضمّنت اللجوء والدراسة في المدارس العسكريّة السوفياتيّة، سمحوا لنا بالعبور. حدث ذلك منتصف تموز 1947، إن لم تخنّي الذاكرة. الذاكرة غالباً ما تخون صاحبها. إذا سردت لكَ ما جرى معي مرّة أخرى، لربما سقطت أحداث وحلّت محلّها أحداث جديدة، سهوت عن ذكرها. المهمّ، سَبَقَنا الجرحى والمقاتلون المنهكون في العبور. نقلوا بارزاني إلى «نختشيفان»، بينما احتُجِزنا

في معسكر، أشبه بسجن مكشوف في العراء، محاط بالأسلاك الشائكة، كأننا أسرى حرب. بات القلقُ كجيادٍ هائجةٍ تصول بلا هوادةٍ في تفكيرنا. لا نعرف أين الزعيم، وما مصيره، إلى أن أتى ضابط روسي، طويل القامة، مفتول الكسم والعضلات. وجههُ الأجرد المتطاول وشعرهُ الأشقر المائل للبياض، فمهُ الكبير، أسنانهُ البيضاء الكبيرة، وحمرةُ لسانه وشفتيه، تطايرُ رذاذ اللعاب من فمه أثناء الحديث بتجهّم، جعل من عينيه الزرقاوين الصغيرتين كعيني ضبعٍ أنهكه الجوع. الضابط ذو الهيئة المرعبة، اصطحب أحد مسؤولينا بشكل متكرر، بحيث يعود كئيباً صامتاً، منكمشاً على نفسه كقنفذٍ خائفٍ مقصوف الأشواك والكرامة، كأنَّه تعرّض لاغتصاب. ما زاد من قلقنا. في اليوم الثالث، جاءنا هذا المسؤول، بشوشَ الوجه، يتدفّق منه التفاؤل. أخبرنا أن الملا مصطفى بخير. كان مريضاً، ونُقل إلى مستشفى. سيزورنا حال تماثله للشفاء. أعادت هذه الأخبار الفرح والطمأنينة إلينا، رغم قساوة الوضع الذي نعانيه في المعسكر. الأهم من ذلك، تبدد وسواس تعرّض مسؤولنا للاغتصاب، من قبل ذلك الضابط الضبع.

بعد مضي أسبوع، زارنا ملا مصطفى. بدت عليه ملامح التفاؤل والانشراح، بمعيّة ضبّاط روس آخرين، لم يكن بينهم ذلك «الضبع». ظهر لنا جنرال وسيم ومنشرح الأسارير، بملامح تبعث على التفاؤل والطمأنينة والارتياح. بعد مضي عقدين ونصف، عرفتُ أن ذلك الوجه الضحوك، كان لمجرم قاتل، أفنى حياته في خدمة نظام ستالين، اسمه؛ بافل سودوبلاتوف (Pavel Sudoplatov). من أب أوكراني، تمّ تجنيده سنة 1921، في سن الرابعة عشرة. مارس

الكثير من عمليات الاغتيال القذرة، خارج الاتحاد السوفياتي، منها اغتياله الزعيم القومي الأوكراني يفهن كونوفاليتس (Yevhen Konovalets) في روتردام سنة 1938. وأشرفَ سودوبلاتوف على عملية اغتيال المنشق المعارض تروتسكي. أيضاً، بأمر من ستالين. ويقال إنه وراء حصول موسكو على أسرار القنبلة الذريّة الأمريكيّة. بعد سقوط لافيرنتي بيريا (Lavrentiy Beria)، تم القبض على سودوبلاتوف في 21 أغسطس 1953، كأحد أعضاء فريق بيريا. أدّعى الجنون كي يفلت من عقوبة الإعدام. حُكم عليه بالسجن 15 سنة، وأُفرج عنه في أغسطس 1968. هذا الجنرال، كان المسؤول عنّا وعن زعيمنا، بتكليف من ستالين، الذي خذل جمهوريّة كردستان في مهاباد سنة 1946. بالفعل، أحياناً، ملامح الوجوه الجميلة، تخفي قساوة القلوب ونذالتها.

رويداً رويداً، بدأ سؤال؛ «أين العدو؟» يتراجع، وتحلّ محلّهُ تفسيرات أخرى، كانت محض تبريرات لانسحابنا من «مهاباد» على أن وزير دفاع الجمهوريّة الكرديّة؛ ملا مصطفى بارزاني، أخذ أوامره من رئيس الجمهوريّة القاضي محمد، بضرورة الانسحاب وتجنّب التصادم والاشتباك مع العدو. وأن رئيس الجمهوريّة سيسلّم نفسه حقناً للدماء. وزعماء العشائر الكرديّة التي أيّدت الجمهوريّة وأعلنت مساندتها، تراجعت عن ولائها، وخانت العهد والقَسَم، وصارت تراسل الجيش الإيراني وتعلن افتراقها عن جمهوريّة كردستان في «مهاباد». وأن القاضي محمد حذّر ملا مصطفى بارزاني من غدر وخيانة العشائر، وضرورة عدم الاعتماد عليها. هذا ما قيل لنا. لم يكن أمامنا خيار آخر غير تصديق هذه الرواية. بعد مضي عدّة

سنوات، اكتشفتُ أنه بعد انهيار جمهوريتنا، اتجه زعيمنا إلى طهران للتفاوض على شكل وآليات خروجنا من إيران، والتقى شاه إيران وقيادات في الجيش والجنرال «همايوني» قائد الحملة العسكريّة على «مهاباد»!

بعد إطلاع السوفيات على ظروفنا السيّئة، أصدروا قراراً بإزالة الأسلاك الشائكة حول معسكرنا، وتحسين الغذاء، وتأمين بعض اللوازم الضروريّة لنا. بقي الملا معنا، طوال أربعين يوماً، يتحدّث لنا عن الأعداء والخونة، وأننا سنعود لمواجهتهم حال انتهائنا من التحضير والتجهيز. حاولَ بثّ جذوة الحماسة فينا، وإقناعنا بأن «خسارة معركة، لا تعني خسارة الحرب كلها. ولن يكتمل وجودنا إلّا بالقضاء المبرم على العدو والخونة وتحرير كردستان». طريقتهُ في الخطابة، جعلت جمر الأمل يبرق من تحت رماد اليأس والإحباط والقنوط.

بعد هزيمتنا سنة 1975، وهول الفاجعة التي حلّت بالكرد، وابتعادي عن العمل السياسي لما يزيد عن العقد، سألتُ نفسي: لماذا هربنا إلى الاتحاد السوفياتي، رغم أن زعيمنا عرف بأن ستالين غدر بنا وبجمهوريتنا الفتيّة سنة 1947؟! لماذا هرب زعيمنا إلى إيران، مع علمهِ بأن شاه إيران غدر به، ووقّع اتفاق الجزائر مع صدّام حسين سنة 1975؟! لماذا ذهب الملا إلى أمريكا للعلاج، ولم يختر بلداً أوروبيّاً، رغم معرفته؛ أن كيسينجر والقيادة الأمريكيّة ضالعان في اتفاق الجزائر والهزيمة المريعة أو الاستسلام المريع الذي فُرِضَ علينا؟!

سنة 1979 أعلن في واشنطن عن وفاة الزعيم ملا مصطفى

بمرض السرطان، لكن سرت شائعة بين الكرد مفادها؛ «أنهُ قُتِلَ بالسمّ». لماذا لا تكون تلك الشائعة هي الحقيقة؟! لماذا هرب نجلا الزعيم؛ لقمان وعبيداللّه، والتجآ إلى النظام العراقي؟! لماذا يتمّ تجاهلهما، رغم أن صدّام حسين قتلهما؟! كل تلك الأسئلة، لم أجد لها أجوبة في حينه، وحتّى هذه اللحظة، يا بُني!

المُهم، بعد انتهاء زيارة الزعيم، تمّ توزيعنا على بعض المدن الأذربيجانيّة. قيل لنا إن زعيمنا يجري اتصالاته مع المسؤولين السوفيات. استجابت الحكومة لمطالبه، وتمّ تقسيمنا الى فصائل عسكريّة؛ للمدفعيّة، الألغام، الاتصالات والدبابات. في شهر آب 1948، قررت الحكومة السوفياتية إرسالنا إلى أوزبكستان على متن قطار. كان ذلك أوّل مرّة أرى فيها قطاراً وأركبه. ذلك أنني لم أغادر «حاجي عمران» إلى السليمانيّة أو هولير أو بغداد، كي أصادف رؤية قطار. على متن هذا المنزل المتحرّك بسرعة كبيرة، تملّكني شعورٌ غريب، لا يمكنني وصفه؛ خليطٌ من الرهبةِ والارتياحِ وخوض مغامرة غير محمودة العواقب. أتأمّل من نافذته مناظر الجبال والأشجار والقرى التي تمرّ بنا. لم أعد أسمع صوت هدير القطار المنتظم، الذي بدا لي للوهلة الأولى كأنَّه آلاف البراميل وعُلب الصفيح الموضوعة في قِدْرٍ هائلةٍ، يحرّكها ماردٌ عملاق. مِن التحريك والتطارق والاحتكاك والتصادم، يصدر هذا الهدير ذو الإيقاع المنتظم.

أخذ الشرود يعزلني عن الضجيج والارتجاج والاهتزاز الذي يحدثه مسيرُ القطار. لم يقطع عليّ شرودي شيء، سوى صوت الصافرة، الذي بدا لي وكأنّه عويل امرأة تستغيث. عاودتُ النظرَ إلى

النافذة المرتعشة والعكرة الزجاج، متسائلاً: من منّا يمرّ بالآخر، نحن أم هذه الأمكنة؟!

بعد وصولنا، وضعونا في معسكر يسمّى «جرجوك». أقامَ الزعيم في منزل قريب منّا. في ما بعد، وزّعونا على تعاونيات فلاحيّة تسمّى «الكولخوزات». أمّا ملا مصطفى فأسكنوه في «طشقند». وافقت السلطات السوفياتيّة على منحنا قطعة أرض، جعلناها مقبرة خاصّة لنا. ما زالت تلك المقبرة موجودة في «طشقند»، يرقد فيها 26 من رفاقنا. بعدها، مررنا بأزمة عصيبة مفاجئة، حيث تمّ تمزيق شملنا. أرسلوا الزعيم إلى مكان مجهول، ووزّعونا على عدّة مناطق في الاتحاد السوفياتي، بين «موسكو»، «سمرقند»، «طشقند» ومنطقة الأورال. لا أعرف إن كان من حسنِ حظّي أنني بقيت في «طشقند» أم لا. دخلنا في عدّة اعتصامات وإضرابات لتسحين أوضاعنا، والسماح لنا بالتواصل مع رفاقنا وزعيمنا. استجابوا لمطالبنا مطلع سنة 1951. أعادوا إسكان زعيمنا في منزل خاص في ضواحي «طشقند»، ونقلوا الآخرين إلى منطقة تسمّى «فيرفسكي» تبعد عن العاصمة نحو خمسين كيلومتراً. بقيتُ مع مجموعة صغيرة في «طشقند»، لسبب لم أعرفه. وربما هي الأقدار التي أرادت لي ذلك!

واصلَ الأبُ حديثهُ لابنهِ ذاكراً كيف مضت عدّة أشهر عليهِ كالأعمى، الأصمّ والأبكم، لأنه لا يجيد اللغة حتّى يتمكّن من التواصل مع المحيط. شعرَ بغربةٍ فظيعة، كأنهُ في قاع وادٍ سحيق لا قرار له، يصرخُ مستنجداً بعلوّ صوتهِ، وما مِن مغيثٍ أو مُجيبٍ.

جوٌّ شديدُ الاكفهرارِ والشحوبِ والكآبةِ، فاقمَ من استبداد الضجر

به. الحنينُ إلى الوطن ينهشُ أعماقهُ. ريحٌ خفيفةٌ تلعقُ سطح النهر الذي يشقّ المدينة. نُتَفُ السحبِ مبعثرةٌ في السماء، تتجه جنوباً. تمنّى لو أن سحابة منها تعود إلى قريته، حتى تخبرها ما حلَّ بهِ. الناي الذي اصطحبه معه من «حاجي عمران» الى «مهاباد» ظلّ يرافقهُ طوال الأحد عشر شهراً من عمر جمهوريتهِ المغدورة، وبقي صديقهُ الوحيد الذي يلوذ به كلما طاشَ به الحزن، وضاقت الدنيا في وجههِ، وعصفَ به الوجع. يخففُ الناي عنهُ الكدرَ والهمَّ والغمَّ المتراكم على قلبهِ وروحهِ. على امتداد رحلتهِ، وحتى وصولهِ إلى «طشقند»، ظلّ الناي يرافقه ويقاسمهُ محنتهُ وألمهُ كلما عنَّ له الحنين. جالساً على ضفّة نهر، استلَّ الناي من الجيب الداخلي لسترتهِ الرثّة، كمن يستلّ ضلعاً من أضلُعه، وبدأ النفخ فيه، والعزف بحرقةٍ وحنينٍ لاهبين، مغمضَ العينين، والدمع ينذرف. انفصلَ عن المكان تماماً، وعادت بهِ الخيالات إلى القرية. بدأت تتراءى أمام ناظريه بعض تفاصيل الماضي: الذهاب إلى المراعي بصحبة شقيقهِ بَهمَن الذي يكبرهُ بثلاثة أعوام. اللعب مع الجداء والحملان. تناول الخبز والجبن والحليب الطازج في المراعي. العودة إلى البيت مهدودَ الحيل. الاستيقاظ الباكر مع الوالد للذهاب إلى جامع القرية وتأدية صلاة الفجر. تعلّم القراءة والكتابة في الكُتّاب، وحفظ القرآن في المسجد. معاقبةُ معلّمه له على الأخطاء أو الشغب الذي يحدثه في المسجد. ومكافأة والده - معلّمه له، حين ختم القرآن، وحفظ «جزءُ عمَّ» عن ظهر قلب، من دون أن يفهم منه شيئاً، حتى بعد أن صار يافعاً. تذكّر أخته الكبيرة «كجال» (Kejal)، وكيف كان يتكوّر كأرنب في حضنها، وينام ملء عينيه، تحت نعمة الدفء المنبعث من

جسدها. قفزت إلى ذاكرته صورة صديقة أخته، ابنة الجيران؛ «آسو». تلك الباسقةُ، ذاتِ الابتسامة القاتلة، وكيف تجلسه في حِجرها، حين كان في السادسة من عمره. تداعبُ شعرهُ بأصابع يدها اليمنى، وتنقر تقاسيم ملامحه بسبابة اليد اليسرى. تمازحه وتناغيه على أنه رضيع، بينما هو ينتقل بنظراتهِ الشقيّة بين عينيها العسليتين الواسعتين، والجزء المنكشف من صدرها ونهدَيها الرخاميين، ثم يقول لها: «صدركِ أجمل من صدر أمّي». فتطلق «آسو» ضحكةً عذبة مترعة بدلال ودلع الفتيات، قائلة: «أنت هكذا، في هذه السنّ! فكيف لو صرت شابّاً؟!».

شقيقاه اللذان يكبرانه؛ حسن وحسين، لا يتذكّر عنهما شيئاً، لأنهما تزوّجا وغادرا القرية إلى السليمانيّة. كذلك أخته الكبيرة بروين، هي أيضاً، حين ولد شالاو كانت متزوجة في قرية مجاورة، ونادراً ما تزورهم. لذا، لم يكن يحتفظ في ذاكرته سوى بذكرياتٍ عن بَهمَن وكجال.

تذكّر مشهد أمّه وهي تغسل الموتى مع نساء القرية، وهو في السابعة، وسط ولولة النسوة وعويلهن ونحيبهن. لأنه صغيرُ الأسرةِ ومدلل، تصطحبهُ أمّه إلى أي مكان تذهب إليه، حتى أثناء غسلها الموتى.

ذات يومٍ صيفي، كان عارياً، يرتدي قميصاً مهلهلاً، يركضُ في فناء الدار محاولاً الإمساك بديك، بينما بلبلهُ الصغير يتراقص كعصفورٍ للتوّ فقصت عنهُ بيضتُهُ. لمحتهُ «آسو» وهي تدخل الحوش صُحبةَ «كجال». أثناء مروره بهما راكضاً وراء الديك، التقطته بسرعة، وحملته وأدخلته البيت وأجلسته في حجرها كأنّه طفلها،

وصارت تدغدغ بسبّابتها بلبله وخصيته، تحبباً ومداعبةً، فجأةً، تخشّب البلبل وانتصب. ارتسمت على وجه «آسو» علامات الخجل، وهي تعضّ بأسنانها خفيفاً على شفتها السفلى. بينما «كجال» تنظر إليها، وقالت: «هذا البلبل الصغير، سيتحوّل لاحقاً إلى خنجر، ويعلم اللّه في خليج مَن سينغرس!». اختتمتا كلامهما بالضحك. ضربت «آسو» بكفّها ضربة صغيرة على ردفي شالاو الصغيرين، وأمرته بالانصراف، ومحاولة الإمساك بالديك.

عزفَ شالاو لما يزيد عن نصف ساعة على نايهِ. ازداد فيض الدمع مع ارتفاع وتيرة الإجهاش. توقّف عن العزف واستسلمَ نهائيّاً للبكاء المرير. بعد غسلِ الدمع جزءاً من الأحزان والهموم المنغرسة في قلبهِ كنصالٍ مسننة، التفتَ إلى اليمين وإذا بفتاةٍ رائعة الجمال، تداعب النسماتُ شعرَها الذهبي، مغمضة العينين، سارحة الذهن، جالسة إلى جوارهِ. تفاجأ بوجودها. راحَ يسائل نفسه؛ أهو حلم أم حقيقة؟! أهي حوريّة هبطت من الجنّة كالتي قرأ عنها في القرآن وتحدّث والده عنها؟ أم جنيّة من اللاتي كانت أمّه تصفها له أثناء سرد الحكايات؟! استدرك تساؤلاته بالقول: «الحوريات في الجنّة، يصعدُ إليهنَّ المؤمنون والصالحون والذين يكافئهم اللّه على خير أعمالهم، ولا ينزلن من السماء إلى الأرض!» كان ذلك أوّل لقاءٍ جمعه بأمّ هوزان؛ أولغا روبينسكي.

عاد الأب لسرد سيرته على مسامع ابنه:

- فتحت عينيها. وإذا بي أمام حقلَي قمح، شديدَي الاخضرار واليناعة. كأنَّ رمحين مستعرين انغرسا في صدري وخرجا من

ظهري. جدَّتكَ ناتالي غريغوريف؛ أورثودكسيّة روسيّة، وجدُّك يوري روبينسكي؛ يهودي أوكراني. كل ذلك الفيض الهائل من السحر والجمال والجاذبيّة المتدفقّ من أولغا كان ثمرة حبّ بين امرأة روسيّة ورجل أوكراني.

صارت أولغا تتحدّث إليّ، ولا أفهم أيّة كلمةٍ منها. رُبَّما كان ذلك جيّداً بالنسبة لي أو من حسنِ حظّي، لأنها ظنّت الخبل والهبل الباديين عليّ، سببهما عدم القدرة على الكلام بالروسيّة. صارت تشفق عليَّ أكثر. حقيقة الأمر، أنني كنت مأخوذاً ومسحوراً بجمالها ورقّتها وعذوبةِ صوتها، أكثر من التركيز على حركاتها وما تريد قوله. قرأتُ في ملامحها شعوراً بأنني ربما أكون أصمَّ وأبكمَ. بعد مضي بضع دقائق، صرتُ أتجاوب معها بلغة الإشارة، وأوحي لها بأنني أسمعها، وتلفّظت ببعض الكلمات الكرديّة والروسيّة في آن.

في المعسكر، علّمونا بعض العبارات والمفردات الروسية: «مرحبا - привет، نعم - да، لا - Нет، صباح الخير - доброе утро، مساء الخير - Добрый вечер...»، حاولت أن أكرر على مسامعها هذه المفردات والعبارات. ازدادت فرحاً. قررت أن تعلّمني الروسيّة، مقابل أن أعزف لها على الناي. فوراً، من دون تردد، وافقت على ذلك. شكرتُ اللّه على هذه النعمة التي أغدقها عليّ في لحظة الضنك والعوز النفسي والعاطفي التي أكابدها.

أولغا مفتونة بالموسيقى. تعزف على الكمان. أثناء عزفها الرشيق، كنتُ أمنّي نفسي؛ يا ليتني الكمان الموجود على كتفها، حين تميل بخدها عليه، بينما أناملها الرقيقة تنقر الأوتار وتضغط عليها برشاقة.

خلال ستة أشهر، أصبح شالاو يقرأ ويكتب بالروسيّة. مع ذلك، لم يتوقّف عن مواصلة التعلّم والقراءة. ما يتعسّر عليه فهمه، تتولّى أولغا شرحهُ. رويداً رويداً، صار ينجذب إليها أكثر، انجذابَ المريد لشيخهِ. كلما التقاها، يصير قلبه يدقّ كدفّ مرتجفٍ في يد درويشٍ متصوّف، وسطَ حلقة ذكر، حبّاً وطرباً وانتشاءً. كلما فارقها، يشعرُ بروحه تنسحب من جسده. هذه المشاعر الغريبة، تشبه تسرّب الدفء في أوردة وشرايين جسدٍ يعاني جحيم الزمهرير. يثيرُ فيه وخزاً خفيفاً لذيذاً وخدراً ممتعاً، لم يشعر به سابقاً. ينتابه الاحتلام والانتصاب والقذف، والاستمتاع باللذة والقشعريرة والرجفة أثناء النوم، إلّا أنه لا يعرف شيئاً عن الحبّ والجنس حتى تلك الفترة. كان يرى الأكباش والنعاج، الماعز والتيوس، القطط، الكلاب، الحمير، الأبقار والثيران، الدجاج والديكة، تمارس طقس التكاثر. لكنه، لم يصدف أن رأى البشر يمارسون الجنس. أثناء الطفولة، كان يطلقُ الشتائم بحق الأطفال الذين يتشاجر معهم، وأنه سيمزق فروج أمهاتهم وأخواتهم بقضيبه. إخوته الذين يكبرونه تزوجوا باكراً، لم يذكروا له شيئاً عن ممارسة الجنس. كذلك كلما تزوّج أحد من أصدقائه الشباب، شعرَ بأنه فقدهُ إلى الأبد. هؤلاء الأصدقاء أيضاً، لم يتحدّث أي منهم له عن مشاعره أثناء الزواج وحلاوتهِ. بقيت ممارسة الجنس لديه فقط في إطار التخيّل بين شتائم الطفولة واحتلامات البلوغ.

دعتهُ أولغا للتعرّف على أمّها. تلك كانت أوّل مرّة يدخل فيها شالاو بيتها الكائن في الأحياء القديمة جنوب «طشقند»، قريباً من سوق «شارسو» الذي يرتاده المزارعون لبيع منتجاتهم، ومدرسة «كوكالداش» الدينيّة التي بناها السلطان عبداللّه خان في القرن

السادس عشر. المنزلُ قديمٌ، مؤثثٌ بشكل بسيط وفقير. رأى على جدرانه نفس الصور التي رآها مراراً في مراكز التوقيف والتعاونيات والمؤسسات الحكوميّة. ذلك الرجل المربوع الجسد والممتلئ، برأسه الكبير وشعره المصفوف والمقلوب إلى الوراء، مرتدياً بذلةً عسكريّةً. ملامحه المتجهّمة، وشاربه الكثّ، المعقوف الطرفين للأعلى، فيه شبهٌ كبير من شيخ قبيلته أيضاً. حين سألَ أولغا عنه، أجابت: «إنه قاتل أبي». صعقهُ ردُّها الذي لم يكن يتوقّعه مطلقاً. اجتاحتهُ دهشةٌ مروّعة وذهولٌ وغضبٌ في آن، وكأنّ الدم يجري في أوردته وشرايينه صعوداً وهبوطاً، كشلالٍ هادر. إذ كيف لشخصٍ أن يعلّق صورة قاتل أبيه في منزله؟! بادرته أولغا بالسؤال:

- لماذا تنظر إليَّ هكذا باستغراب؟! نعم.. نعم، إنه قاتل أبي.

- وماذا تفعل صورته هنا؟!!

- نحن مجبرون على تعليقها على الجدار، لئلا يُلحِقونا بهِ.

- بمَن؟!

- بأبي.

قالت ذلك، وابتسامةٌ ساخرة ارتسمت على شفتيها، شابكةً الذراعين، واضعةً يدها اليمنى تحت الإبط الأيسر، واليسرى تحت الإبط الأيمن. صار شالاو وكأنّه في دوّامة من الأسئلة، يريدُ أن ينتشلهُ أحد أجوبتها التي تثير أسئلةً أكثر.

- كيف؟ ولماذا؟.. هل يمكن أن توضّحي أكثر.

ضحكت وقالت: «لا تقلق. سأخبرك لاحقاً». بادرها بسؤالٍ آخر:

- ولمن هذه الصور الأخرى الموجودة إلى جوار قاتل أبيك؟!

- إنهم أساتذته ومعلموه ورفاقه. هذا لينين. وذاك ماركس وإنجلز.

صارت تشير بإصبعها إلى كل صورة من الصور المعلّقة على يمين ويسار ذلك الرجل البدين، صاحب البذلة العسكريّة. حتى ذلك الوقت، لم يكن يعرف أن اسم زعيم الدولة التي فيها، هو ستالين. ذلك أنه كيف لشابٍ ريفي، شبه أمّي، مثله، لم يقرأ في حياته شيئاً سوى القرآن، أن يعرف كل هؤلاء الذين ذكرت أولغا أسماءهم؟!.

- لكن، أين صورة والدكِ؟!

طأطأت رأسها، وحرّكته يمنة ويسرة، مع استمرار ابتسامة السخرية على شفتيها، لمّا رأت فيه بساطة الأطفال وطرافة أسئلتهم. ابتعدت عن الجدار لتجلس على الكرسي الخشبي إلى جوار الطاولة التي تتوسّط صالة الشقة. أزالت بيدها اليمنى شعرها الذهبي المنفلت الذي غطى نصف وجهها، لتشبكه خلف أذنها. أطلقت زفرةً عميقةً كأنّها صادرة من قاع بئرٍ مليئة بالأسرار والآلام، وقالت:

- هل رأيتَ صورةَ الضحيّةِ معلّقةً إلى جوارِ صورةِ جلاديهِ؟! يحقُّ لكَ الاستغراب مما يجري هنا. لكن، حسناً فعلوا بأن أجبرونا على تعليق صورهم في بيوتنا، وفي كل مؤسسة من مؤسسات الدولة، وفي المرافق العامّة، وحتى لو شأوا، لعلّقناها في غرف نومنا، فقط كيلا ننسى أنهم الجلادون وأننا الضحايا. حقّاً، حسناً فعلوا ذلك. صورة أبي، ممنوعٌ علينا تعليقها في منزلنا.

- لماذا؟!

- لأنه في نظرهم؛ الخائن وعميل الرأسماليّة والإمبرياليّة والرجعيّة العالميّة، والمُرتدُّ عن سلطة الشعب ودولة الشعب، وهم الأخيارُ المدافعون عن الشعب وسلطته ودولته.

لم أفهم شيئاً مما قالته. ما هي الرأسماليّة؟ ومن هي الإمبرياليّة؟! وطلبتُ منها أن ترفق بي وترأف بحالي، لأنني عاجز عن فهم هذه المفردات. فاعتذرتْ، وتأسّفتْ على ذلك.

سمعا صوت مفتاح يتحرّك في قفل الباب، وانفتح. دخلت منه سيدة جميلة، نحيلة الجسد، فارعة الطول، بما يزيد عن طول أولغا أيضاً. اقتربت منه مبتسمةً وكأنّها تعرفه.

- «أهلاً بك شالاو. اسمكَ صعب جداً لفظهُ». وهي تضحك. ثم أضافت: «أنا ناتالي، والدة أولغا. سررت بالتعرّف عليك».

تلعثمَ ولم يعرف أن يردّ عليها بالمثل، وفق أصول وتقاليد التعارف بين الأشخاص في اللقاء الأوّل، لم يكن لديه سوى إبداء الابتسامة والمصافحة والانحناء احتراماً لها. بدت ملامحها أكبر من عمرها. استودعتهما ودخلت غرفتها.

توقّف شالاو عن سرد حكايته لابنهِ. أخذ نفساً عميقاً، ثم أطلق زفرةً، وارتسمت على وجهه ملامح الامتنان والفخر والإعجاب وقال:

- جدّتك، يا هوزان، كانت سيّدة عظيمة ونبيلة وأمّاً حنوناً، لقيتُ منها حبّاً وحناناً، لم أَلْقَهُ من أمّي. بقيت مخلصة لزوجها، وربّت طفلتها الوحيدة، بعد اقتياد جدّك إلى المعتقل. عادت معنا،

على متن السفينة غروزيا إلى العراق، ثم إلى كردستان. لكن، لم يعجبها الوضع هناك. قررنا المجيء إلى دمشق. لكنها لم تحتمل العيش هنا أيضاً. عادت إلى بيتها في «طشقند» سنة 1965. وفقدت حياتها في الزلزال العنيف الذي ضرب المدينة سنة 1966، فانهار عليها ذلك البيت القديم الذي ضمّني وأمّك وأختك مريم، ذات أيّام.

توقّفَ قليلاً، كأنَّ الكلامَ تحجَّرَ في حلقهِ، وصار عصيّاً على النطق. تناول كوب ماءٍ. شربهُ على دفعات، مع لحظاتٍ من الشرود. ثم عاود سرد حكاية حماه، يوري روبنسكي، كما روته أولغا له:

اعتُقِلَ أوّلَ مرّةٍ؛ يوم 29/ 3/ 1908، في موسكو، أثناء مداهمة بوليس السلطة القيصريّة، مبنى المطبعة السريّة لحزب العمل الاشتراكي الروسي البلشفي. حينذاك، كان في السابعة عشرة. مِن ضمن الذين اعتقلوا معه؛ الشاعر فلاديمير مايكوفسكي. لأنه يصغرُ أبي بسنتين، أُفرِجَ عنه. كان والدي أيضاً شاعراً. لكن الهمّ السياسي والحزبي طغى على الهمّ الشعري لديه. المتبقي من إرثه الشعري، اثنتا عشرة قصيدة قصيرة فقط. من يقرأها، لا يكاد يفهم منها شيئاً. إذ لا يوجد فيها أيّ ملمح من ملامح الشاعر الثوري الملتزم المؤدلج الذي يدعو إلى الثورة والاشتراكية وسلطة العمال. بينما مقالاته السياسيّة، في جريدة الحزب، أفصحت عن موهبة في الكتابة السياسيّة والخطابة وفنّ التعبئة والتحشيد والتنظير الأيديولوجي. بقي في سجن «بوتيركا» وسط موسكو سنتين. ثم رُحِّلَ إلى سجن «توفولسكي» في سيبيريا، قريباً من جبال الأورال. بقي هناك ثلاث سنوات. أُطلِق سراحه صيف 1913. عاد إلى الحزب، بحماس

تجاوز ما كان عليه سابقاً. صار يكتب بغزارة، تحت هاجس أنه سيموت في أيّة لحظة، وعليه الكتابة أكثر وأكثر. كأنّهُ في سباق مع الموت. لم تدم معانقته الحرية طويلاً. اعتُقل مرّة أخرى. حُكم عليه بالسجن خمس سنوات، وأُودعَ سجن «بيتالك» وسط موسكو، ثم نقلوهُ إلى سجن «كريستي» الذي هاجمه الثوار سنة 1917، وحرروا السجناء، ومن ضمنهم والدي، في محاكاة للثوار الفرنسيين الذين هاجموا الباستيل.

لم يكن أبي من قيادات الصفّ الأوّل أو الثاني للحزب. ثوريٌّ شاعرٌ حالم، تربطه علاقة صداقة قويّة بمايكوفسكي، كما ذكرت لك. قبل انتحاره، كان يراسل أبي، ويحدّثهُ عن خيبة أمله في الثورة، وأن الدكتاتوريّة قادمة، وأنه محاصر وتحت مراقبة الوشاة والانتهازيين والطفيليين الذين أمسكوا بخناق الثورة والدولة، بعد موت لينين. في حين أن أبي يردّ عليه، بالطمأنة والتهدئة والصبر، وأن أحلامهما لم تنهَر بعد، وما زال هنالك أمل. بعد انتحار مايكوفسكي منتصف أبريل 1930، عثرت الشرطة السريّة على رسالة من رسائل أبي في بيتهِ، يطالب فيها بإحراق الرسالة فور الانتهاء من قراءتها. لكنه لم يحرقها، لسبب مجهول. داهم البوليس السرّي منزلنا أيضاً، ليجدوا فيه رسالة مُرسلة من مايكوفسكي، لم يحرقها أبي. أيضاً لسبب ما، لم يعلمه أحد. كما وجدوا رسالة من ليون تروتسكي. وقتها، اكتشفت السلطة أن أبي، يوري روبينسكي، يعارض سلطة ستالين، ومن أتباع المنشقّ تروتسكي.

- من هو ستالين؟! قاطعها شالاو.

- هذا الرجل، الذي ترى صوره وتماثيله في كل مكان!

- قاتل أبيك؟!

- نعم. قاتل أبي. على الفور، تم اعتقال أبي. أحيل إلى المحكمة الثوريّة بتهمة «عناصر ضارّة غير مرغوب فيها»، وحُكم عليه بالأشغال الشاقّة المؤبّدة. رُحِّلَ مع آلاف المعتقلين إلى جزيرة «نازينو» المتجمّدة على نهر «أوب» في سيبيريا سنة 1933. بينما تم ترحيل أمّي إلى «طشقند». وقتذاك كان عمري 5 سنوات.

- مَن هو تروتسكي؟

ضحكت أولغا مجدداً، ضحكة خفيفة: «ستعرفه في ما بعد، لا تقلق. ستعرفه».

- ماذا حلّ بوالدك؟!

أطلقت أولغا ضحكة أخرى، مترعةً بالمرارة والحرقة ورفعت رأسها إلى الأعلى، ناظرةً إلى السقف. صمتت لبرهةٍ ثم تنهّدت وقالت:

- أبي؟! لا نعلم عنه أي شيء. ومن غير المسموح لنا السؤال عنه، بوصفه من الخونة وعملاء الرأسماليّة والإمبرياليّة العالميّة، كما قلتُ لك. وإن كان ميّتاً؟ وهو في حكم الميّت بالنسبة لي ولأمّي، فلا نعرف حتى مكان دفنهِ.

توقّف شالاو مرّة أخرى عن الكلام، ساكباً من الإبريق ماءً في الكوب. بدد خريرُ الماء الترقّب الذي يكتنف الصمت المحيط بهوزان لمعرفة عاقبة جده يوري. بعد إفراغ الأب كوب الماء في جوفه، كأنّه يحاول إطفاء الجمر المتقد في أحشائه، عاود استكمال الحكاية:

- لاحقاً، بعد موت ستالين واستلام خروتشوف السلطة، وكشفه فظائع الفترة الستالينيّة في التقرير الموجّه للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي المنعقد في فبراير 1956، بدأت تظهر بعض الأمور والمعلومات عن جزيرة «نازينو». وكيف أن السجناء المرحّلين، الذين زاد عددهم عن ستة آلاف، تُرِكوا من دون مأوى وطعام وكساء، تفترسهم رحمة الثلوج والرياح، ويلتهمهم البرد، واحداً تلو الآخر. أجبرهم الجوع على أن يأكل بعضهم لحم بعض. صارت تسمّى تلك الجزيرة؛ «جزيرة آكلي لحوم البشر».

نجا من هذه الكارثة نحو ألفي معتقل، تم توزيعهم مجدداً على معسكرات «الغولاغ» للقيام بأعمال السخرة، على اعتبارها إعادة إصلاح وتهذيب للعناصر الضالة والمناوئة للثورة. أحد الناجين؛ شابٌّ قويّ البنيّة يدعى سيرغي رومانوفيتش. بعد تحمّلهِ كل عذابات ذلك المعتقل، ذكر أن العشرات ماتوا في الطريق إلى الجزيرة على متن القطار. ومات المئات من الجوع والبرد. وأنه التهم لحم عشرة معتقلين، من بينهم العمّ روبينسكي الذي طالبه بقتلهِ، وتعليقهِ بشجرةٍ، وتقطيع المتبقّي من لحمه وإطعامه للمعتقلين الجياع. أفاد ذلك المعتقل السابق أن روبينسكي حاول الغناء وقراءة الشعر للجياع، لربما يلهيهم عن جوعهم، أو يخفف عنهم الألم والمعاناة، لكنه فشل. فقال:

- يا سيرغي العزيز. هذا الشعب الذي ساهمتُ في تضليله، على أن سلطة البروليتاريا ستكون أفضل من سلطة البرجوازيّة ونظام الحكم القيصري، الأجدى بي أن أموت لأجله، تكفيراً عن ذنبي. ساعدني كي ألحق بمايكوفسكي، صديقي الشاعر. إنه ينتظرني هناك.

يناديني. لقد تأخّرت عليه كثيراً. علّقني بهذه الشجرة، كما تعلّق الشاة أو الخنزير أو العجل، واسلخ لحمي عن عظمي، وأطعمه لهؤلاء الجياع. هيا. خذ هذه البلطة، وافصل رأسي المحشوّ بالخرافات الأيديولوجيّة عن جسدي، وقطّع بها أوصالي. أريد التحرر من الطاعون والكوليرا الأيديولوجيّة التي تسكنني. كل هؤلاء الأوغاد الذين يأمرون الجنود والحرس هنا، هم مثلي. لو أنني خارج السجن، لَكنتُ واحداً من هذه السلطة الغاشمة التي تقتلكم الآن. لا تخف. خذ البلطة وانزل بها على رأسي.

صار روبينسكي يبكي، ممسكاً بقبضة البلطة وهوى بشفرتها على رأسه، فغاص وجهه بالدم المتدفّق من الجرح العميق الذي أحدثته الضربة. وكلمته الأخيرة كانت:

– في جيبي بعض الأوراق، خذها لزوجتي ناتالي غريغوريف وابنتي أولغا. لا أعرفُ عنوانهما. إلّا أن الضابط الذي حقق معي، قال: تمّ ترحيلهما إلى «طشقند». ابحث عنهما هناك، وحاول أن تجدهما.

بعد مضي سنتين على إطلاق سراح سيرغي من سجنه، وكَمنْ يبحثُ عن إبرةٍ في كومةٍ هائلةٍ من القشّ، عَثَرَ على البيت الذي تسكنه جدّتكَ في «طشقند». تلك القصاصات التي هي اثنتا عشرة ومضة شعريّة، كتبها جدّك في سجنه، سلّمها لنا سيرغي رومانوفيتش مطلع 1958، قبل مغادرتنا الاتحاد السوفياتي. وقتذاك، كنتُ موجوداً في البيت، والتقيت بسيرغي. ومنه عرفنا تفاصيل ما جرى مع جدّك؛ يوري. استطعنا عبر الرشوة الحصول على نسخة من الرسالة التي

كتبها تروتسكي لجدّك، ونسخة من الرسالة التي كتبها جدّك لمايكوفسكي، من ملفّ محاكمته.

قال شالاو ذلك لابنه هوزان، وهو يمسح الدمع المنذرف من عينيه.

* * *

غروزيا.. أيّتها الأقدار العائمة

«أعلمُ تماماً أنه سيأتي اليوم الذي أندمُ فيه على كلِّ الأشياء التي لم أقترفها، أكثر من الأشياء التي اقترفتُها. لذا، عليَّ ارتكابُ المزيد، حتّى يكون النّدمُ أقلّ، وأكثر توازناً وعدلاً. النّدمُ ندمان؛ جاثمٌ، يرجمُ صاحبهُ، ويلتهمهُ بلا رحمة. وحكيمٌ، ينتشل المرءَ من مستنقع اليأس والكآبة، فاتحاً لهُ السبيلَ أمام الحكمة. البشرُ أبناءُ النَّدمِ الشّرعيون، وهو الابن الشرعي للحياة. مهما أخذتنا العزّةُ بالتكبّر والتجبّر والخيلاء، وأمعنا في نفيه عن أنفسنا، نحنُ كاذبونَ. ما من أحدٍ دخل هذه الحياة إلّا وكانَ النَّدمُ في استقبالهِ، ولو بعد حين. وما من أحدٍ خرج منها، إلّا وهو في وداعهِ، كي يستقبلَ وافداً آخر، ينوي دخولها. لأنّهُ أحدُ الأبطال الأبديين على مسرح الحياة، ونحنُ محضُ كومبارس، لا أكثر، ولا أقل؛ نتناوبُ على الصّعود إلى خشبة المسرح والنزول منها». هذه كانت إحدى الخلاصات التي وصل إليها شالاو في تجربته، بعد أن علّمته أولغا العزف على الكمان والكلارينيت أيضاً. صار يستمعُ إلى الموسيقى الروسيّة بشكل دائم. ازداد لديه الشغف بالموسيقى المحليّة الأوزبكيّة والطاجيكيّة في «طشقند»، والسيمفونيّات الروسيّة. لا يملُّ الاستماع إلى أسطوانات

سيمفونية «شهرزاد» لنيكولاي كورساكوف، و«بحيرة البجع» و«كسارة البندق» لبيتر تشايكوفسكي. زيارتهُ الأولى لمنزل أولغا، أتت بعد تعلّمهِ اللغة الروسيّة. وعقبَ تمكّنهِ منها تماماً، قرأَ أعمال تولستوي. لكن، سحرتهُ روايات دوستويفسكي؛ «الأخوة كارامازوف»، «الجريمة والعقاب»، «الأبله»، «المقامر» و«المراهق». حال نفض يديه من أحد تلك الأعمال، يتخَّيلُ نفسه أحد أبطالها، ويبقى تحت سطوة وسحر الرواية لحين بدئه قراءة عمل آخر. كلما أوغلَ في الاطلاع والقراءة بنَهم وشراهة، اتسعت مداركهُ على العالم، وانكشف له مدى جهلهِ بما يدور حوله. الجهلُ يختلقُ الأوهامَ ويثيرها. والوعي مؤلم؛ يتبنّى آلامَ الآخرين أيضاً ويديرها. في الوقت عينه، كلما ازداد وعياً، ازداد ابتعاداً عن رفاقه البيشمركة، وانعدمَ لديه الاستعداد للموت في سبيل قتال العدو الذي تمّ تصويرهُ له على أنه الوحش الذي يهددُ حياتهُ وكرامتهُ، ويتحيّن الفرص للانقضاض عليه وعلى إخوتهِ وشعبهِ. لم يعد مقتنعاً بكل تلك الشعارات. لولا الحرج والخجل، لقطع علاقته مع رفاقه القدامى نهائيّاً.

تنفيذاً للتعليمات الصادرة من الملا مصطفى والاتفاق الذي أبرمه مع السوفيات، دخل شالاو أحد المعاهد العسكرية. ساعده ذلك في تعلّم اللغة الروسيّة أكثر. أنهى الدراسة في سنتين وحصل على رتبة ضابط صف. تقدّم للدراسة الإعدادية فالثانوية، وسجل في كلية التاريخ بجامعة «طشقند». إلّا أنه لم يكمل الدراسة. امتهن حرفة النجارة، عاملاً لدى نجّارٍ أوزبكي عجوز، يصنعُ الأبوابَ والنوافذَ والخزائن والكراسي والطاولات. صار يقارن حياتهُ في القرية بين

التكيّة والمراعي، ثم الاتجاه نحو قتال العدو، وبين وجودهِ في «طشقند»، وكيف حوّلته أولغا إلى إنسانٍ آخر تماماً؛ فناناً يعزف الناي، الكلارينيت والكمان، ويدمن القراءة والاستماع إلى الموسيقى، فضلاً عن إجادةِ حرفة النجارة بمهارةٍ وإتقان.

بعد مضي ثلاث سنوات على علاقتهِ بأولغا، وانتقالهِ للعيش معها في منزل والدتها، رُزق شالاو بطفلة رائعة الجمال تشبه أمها، أطلق عليها اسم والدته؛ مريم. وصار يناديها؛ «ميري» و«ماريوشكا»، دلالاً ودلعاً. ملأت الطفلةُ عليهم البيتَ فرحاً وأعادت الحياة والأمل إلى ناتالي وأولغا من جديد.

شعرَ رفاقهُ بتململهِ من دعواتهم له إلى حضور الاجتماعات الحزبيّة الدوريّة، واعتبروا أن الاعتذارات والأعذار التي يقدّمها، ما هي إلّا حجج للتهرّب من المشاركة. سئم شالاو الكلام المكرر والخطابات التي يلقيها، كل مرّة، أحد القيادات الكرديّة عن العدو وضرورة قتاله صوناً لشرف وكرامة الأمة والشعب الكردي وحمايته، وضرورة تحرير الوطن الكردستاني. لكنه عمل بنصيحة أولغا. مِن أصل ثلاثة، كان يحضر على مضض اجتماعاً، لئلا ينقلب الرفاق عليه، ويشتكوه لدى الاستخبارات الروسيّة التي تتابع أحوالهم وحياتهم وتحرّكاتهم بدقّة وعن كثب.

بعد عودته من العمل، مساء يوم 15 تموز 1958، وبينما كان يتناول طعام العشاء، مستمعاً للإذاعة السوفياتية وهي تقرأ نشرة الأخبار، وإذ بخبر مفاجئ، قطعَ عليهِ طعامهُ. جعلهُ يتوقّف عن المضغ والبلع. ذكر المذيع أن مجموعة من الضباط الثوريين الاشتراكيين نفّذوا انقلاباً ضدّ نظام الحكم الملكي الرجعي في

العراق، المتعاون مع الإمبرياليّة العالميّة. وأن موسكو تراقب الأحداث عن كثب، وترحّب بأيّ عمل ثوري يكون في خدمة الطبقة العاملة والشعب العامل في دولة العراق.

يدهُ الممسكة بالملعقة، بقيت في الهواء، لحين انتهاء المذيع من قراءة الخبر. ثمّ هبطت ببطء شديد لتضع الملعقة في الصحن، مع بدئه مواصلة مضغ اللقمة الموجودة في فمه وبلعها وكأنّها حفنة رمل. مسح فمه بمنديل. توقّف عن تناول الطعام. انتابتهُ مشاعر من الفرح والحنين للوطن ورؤية الأهل، والقلق والترقّب والخشية من تبعات ذلك على مستقبله. تتقاذفه الهواجس بين رغبة البقاء في «طشقند» وضرورة العودة من الغربة إلى أحضان عائلته وقريته. أعادهُ الخبر إلى أجواء الاهتمام بالأمور السياسيّة. صار يناقش أولغا حول احتمال العودة إلى قريته «حاجي عمران» في كردستان. لم تبدِ زوجته أيّ اعتراض على فكرة الذهاب إلى كردستان. أشارت إلى ضرورة إقناع والدتها بأهميّة الذهاب معهم. لأنه في حال سفرهم من الاتحاد السوفياتي، ستبقى وحدها. استمرّ النقاش في الأمر لأكثر من شهر، من دون اقتناع ناتالي بفكرة مغادرة بلادها وذكرياتها إلى مكان آخر. وجدت نفسها مجبرة على اتخاذ قرار كهذا، لشدة تعلّقها بالطفلة مريم. خاصّةً، بعد أن بدأت تظهر على أولغا علامات الحمل، مرّة أخرى، وضرورة بقاء الأمّ إلى جوار ابنتها لحين الولادة.

في تشرين الأول 1958؛ وأولغا حامل في الشهر الثالث، وصلته رسالة من الزعيم ملا مصطفى بارزاني يخاطب فيها جميع مقاتليه الذين رافقوه في رحلته من كردستان العراق إلى «مهاباد» ومنها إلى روسيا السوفياتيّة. لم يكن الخطاب مخصصاً أو موجّهاً لشخص

معيّن، بل عامّاً، يحضّ على العودة إلى الوطن والدفاع عنه في مواجهة العدو والمخاطر التي تتهدد الشعب الكردي. كأنَّ الروحَ عادت إلى تلك الخطابات القديمة وبعثتها من رقادها. أحيت فيها العدو ومخاطره وتهديداته. مع موافقة ناتالي ووصول هذا الخطاب، صار شالاو مستعداً نفسيّاً لرحلة العودة. أكثرُ شيءٍ أدخل في نفسه الفرحة؛ أن زوجته ستضع مولدها في قريته. وستلعب مريم الصغيرة في نفس فناء الدار الذي كان يلعب فيه والدها، راكضاً وراء الديك والدجاجات.

سافر إلى موسكو. استغربَ رفاقه حضورهُ الاجتماع، واندهشوا من موافقته على العودة إلى الوطن، بعد أن ظنّوا أنه سيرجّح البقاء في «طشقند». أثناء دخوله قاعدة الاجتماع الكبيرة، لاحظ اصطحاب المُلا مصطفى جنرالاً سوفياتيّاً آخر، ببذلته العسكريّة، يشعُّ من كتفيه بريقُ الأنجم. صدرهُ مرصّع بالأوسمة. غادرَ المكان، وسط تدابير أمنيّة مشددة. عاد بارزاني إلى قاعة الاجتماع وسط تصفيق حادّ من المشاركين. لاحقاً، وبعد استفساره عن ذلك الضابط، عرف شالاو بأنه الضابط البديل للجنرال في الاستخبارات السوفياتية بافل سودوبلاتوف (Pavel Sudoplatov) الذي أُودع السجن سنة 1953.

ظهر الملا مصطفى أنيقاً، مرتدياً بذلةً رسميّة، حليق الذقن، تفوح منه رائحة عطرٍ فاخر. كأنّه ليس ذلك القائد العسكري الكردي الذي كان يرتدي ثياب «البيشمركة» ويعتمر عمامته البيضاء المعروفة. ما جعل شالاو يشرد عائداً بذاكرته إلى خطاب بارزاني الأوّل في جبل «كوردمند» سنة 1946. صار يقارن ويحسب آثار السنين عليه، وعلى الزعيم. لمس نبرة مختلفة في الخطاب الأخير، وكيف أنه لم

يحاول إثارة الحميّة والحماسة لدى الحضور، وحضّهم على مقاتلة العدو، كما فعلها في خطابه القديم، قبل ما يزيد عن 12 عاماً، وفي رسالته الأخيرة أيضاً. بينما في خطابه الجديد، أمامهم في القاعة، صار يقول؛ إن الوطن ينتظرهم على أحرّ من جمر. عبدالكريم قاسم أصدر عفواً. يمكن الحصول على حقوق الكُرد عبر الأساليب السياسيّة وليس فقط عبر الحرب والقتال. الكفاح لا يعني فقط حمل السلاح واللجوء إلى الجبال.

كان ذلك مطلع أيلول، قبل مغادرة الزعيم الاتحاد السوفياتي في تشرين الأول 1958 إلى مصر ولقائه جمال عبدالناصر، والتقائه بإبراهيم أحمد ورفاقه في القاهرة والسفر معاً إلى بغداد في الشهر نفسه والاستقبال والترحيب الشعبي الذي حظي به في المطار، واستقبال عبدالكريم قاسم له.

بعد وصول بارزاني إلى بغداد بشهر، أوفد بعض القيادات إلى موسكو للاجتماع بالسوفيات وبدء ترتيب رحلة العودة الجماعية لمقاتليه. جرى اجتماع آخر حضره شالاو، منتصف كانون الثاني تحدّث فيه ضابط مقرّب من الزعيم. ذكر أن الرحلة ستكون جماعية، مطلع شهر نيسان 1959، على متن باخرة سوفياتيّة. ربما تستغرق أسبوعاً أو أكثر. وعليهم ترتيب كل أمورهم، وتصفية أشغالهم وأعمالهم خلال الأشهر المتبقيّة. «مَن يتخلّف عن المجيء، سيعود على نفقته الخاصة، في حال أراد العودة. ومَن لم يشأ العودة، سيتم التعامل معه على أنه منشقّ ومرتدّ أو هارب من المعركة». نبرةُ التهديد والوعيد المبطّن في حديث الضابط الكردي، فاجأت شالاو. أضافت إلى قلقهِ المزيد من التوتّر. بعد انتهاء الاجتماع، بدأ العدّ

العكسي لموسم هجرة المقاتلين الكرد السابقين، من الشمال إلى الجنوب، حيث لا تلوحُ في الأفق نُذرُ عدوٍّ مرتقب، يترصّدهم ويكمنُ لهم، ولا معاركَ طاحنة معهُ.

مضتِ الأيّام بخفّةِ حلم جميل. خلافاً لعاداتِ وتقاليدِ الانتظارِ التي يصبحُ فيها الزمنُ لزجاً مطّاطيّاً، شديدَ الملوحةِ والعُسرِ والوطأةِ في المرور على المنتظرين كحبلٍ يزداد اشتداداً على الأعناقِ، في كلِّ لحظة. كلما اقترب موعد المغادرة، كَبُرَ بطنُ أولغا لدرجة أن الناظر إليها ظنّ أنها تحمل توأماً.

حزموا أمتعتهم وسطَ مكابداتِ الحزنِ والحيرةِ والمرارةِ الواخزةِ، كأنّهم لن يروا هذه البلاد مرّة أخرى. مَن يحزمُ حقائب الرحيل من أيّ مكان، يستحيلُ عليه حزمَ أمتعة الذكريات التي نثرها هناك. لا يمكنهم أخذُ كل شيءٍ يذكّرهم بأيّ شيء جرى معهم في «طشقند». حَوَتْ حقائبُ شالاو بعض الكتب والكمان والكلارينيت ونايهِ القديم، وبعض الملابس. بودّهِ لو أمكنهُ وضع «طشقند» في حقيبة وجلبها معه. بينما احتوت حقيبة ناتالي على ملابسها، والمتبقي من أرشيف زوجها من صور وبعض القصائد ورسائله إلى مايكوفسكي وتروتسكي التي حصلوا عليها عبر الرشوة. لكنها أيضاً تمنّت لو أمكنها وضع المنزل كله في حقيبتها. اقتصرت حقيبة أولغا على ملابسها وملابس مريم، وبعض ثياب الأطفال الرضّع، تحسّباً لأي طارئ أثناء الرحلة.

حزنهم حزنُ الواقفِ في جنازة عزيزٍ عليهم، يلقونَ عليهِ النظرةَ الأخيرة. يتأمّلون الحقائب المتكوّمة وسط الصالة كأنّها جثث ضحايا حرب، مضرّجة بدمائهم، أو كحطام مدينةٍ تحت قصف طيران

الغزاة. صمتٌ أليم يخيّم على المكان، لم يعهدوه من قبل. ليس كالصمتِ الذي يسبق العاصفة، بل الصمت الذي يأتي بعدها. صمتٌ مذهلٌ يفترسُ كل الأصوات؛ يدورُ بهم كنفقٍ حلزوني أشبهَ بالدوّامة والمتاهة اللتين تبتلعان كل ما يصادفهما. أعينهم محتقنة بالدمع، تنتظر لحظة الانفجار. يفيض الشوق من قلوبهم إلى هذا المنزل، ويعتصرها، قبل مغادرتهم له. تجوب نظراتهم أرجاء وزوايا الصالة. نظراتُ اعتذارٍ، وداعٍ، تفحّصٍ، وتضرّع؛ تطلبُ الصفحَ والعفو والمغفرة من البيت. انتهى شالاو من نقل كومة الحقائب إلى الشارع، قطعةً قطعة، ثم بدأ بترتيبها داخل الشاحنة الصغيرة التي تنتظرهم كي تقلّهم إلى المطار. تأكّدت ناتالي من إطفاء المصابيح، وإقفال صنابير المياه. جابت غرف البيت للمرّة الأخيرة. مع إدخالها المفتاح في قفل الباب وسماع صوت طقّاته أثناء الإقفال، انفجر البكاء، وفاضت أعين الثلاثة بالدمع المدرار. رأتهم مريم يبكون من دون معرفة السبب، فبكت. بكى معهم سائق الشاحنة، والرصيف والشارع. وبكى ذلكَ الصمتُ أيضاً.

بدأت الشاحنة سيرها. رأسُ أولغا على كتفهِ اليمنى. مريم مرتمية في حضن جدّتها، كأنّها غافية، وليست بغافية. لم يشأ أحد الجلوس إلى جوار السائق، وآثروا البقاء معاً في عربة الشاحنة إلى جوار الحقائب، حتى لحظة الوصول إلى المطار الذي يبعد مسافة ساعة ونصف عن منزلهم، في الطرف الآخر من المدينة. أعين أولغا وأمّها مغمضة تحاولُ الحفاظ على الصور الأخيرة للمنزل، كيلا تخالطها صور الافتراق عنه فتصبح لصيقة الذاكرة البصريّة الأليمة التي ستبقى تسكنهما. فقط شالاو، عيناه مفتوحتان، تتأمّلان بنظرات منكسرة

مشهد ارتجاج صورة البيت، وهو يبتعد تباعاً، ويضيعُ في الشوارع، وتضيع هي في شوارع وأحياء جديدة، تختفي في عبّ أخرى. وهكذا.

مشاعر الفقدان والخسران والحسرة على مغادرة «طشقند»، لم يشعر بها شالاو، أثناء تركه «حاجي عمران» خلفه والاتّجاه نحو «مهاباد» مقاتلاً. هذه الأحاسيس لم يشعر بها أيضاً أثناء تركهِ «مهاباد» خلفهُ متّجهاً نحو مقارعة العدو خارج المدينة. غيّرت «طشقند» حياتهُ وتكوينه النفسي والمعرفي. قلبتهُ رأساً على عقب. منحته الحبّ، العقل، الذائقة والتأمّل في الحياة والاستمتاع بها. هذه المدينة الغريبة، أسست تجربته وخصّبتها. هي مكانُ ولادته الثانية، أو مسقط رأسِ الحقيقي. أوّلُ مدينةٍ عاش فيها ذلك الفتى الذي تحوّل من راعي قطيعٍ صغيرٍ من الغنم إلى مقاتل في قطيع كبير من المقاتلين، يقودهم راعٍ زعيم. علاقتهُ بـ«طشقند»، هي نفسها علاقته بالحبّ الكبير، واللّغة والثقافة والمعارف والخبرات التي حصل عليها. هي الرحم التي أنجبته وأطلقته للعالم والحياة، مرّة أخرى.

أبقى عينيهِ شبه مفتوحتين، كالخائف من إغلاقهما، والخائف من تركهما مفتوحتين تماماً. كأنّ التردد بدأ تسرّبه إلى قاع قرارهِ ترك المدينة التي لا يريد توديعها. الترددُ سوسة، يمكنها صناعة قرار، إذ نجح نخرها في قرار آخر. الترددُ أيضاً قرار. الآن، تشكّل لديهِ صديقٌ لدود، سيلازمهُ طوال حياته، اسمه التردد. ها هو يودّع المدينة، بحرقةٍ وحسرةٍ قابضةٍ على روحهِ. حالهُ أشبه بحال النازح من بلده، أثناء الحروب والكوارث، رغم أن الأمر لم يكن نتاج ذلك. نزحَ من قريته راكضاً وراءَ أوهامِ الحريّة ومقارعةِ العدو. نزحَ

من «مهاباد» لملاقاة العدو، خارج المدينة وقتالهِ. نزحَ من كردستان إيران باتجاه أذربيجان، ومنها إلى «طشقند». وينزحُ الآن من تلك المدينة العتيقة التي أنعمت عليه، نحو بلده المحفوف بالحروب والويلات. يخامرهُ ظنّ أنه سيعاودُ نزوحه من هناك أيضاً. لا يعرف؛ متى؟ إلى أين؟ هكذا هي الحياة؛ نزوحٌ مستمرّ، يختتمهُ الموت بترحيل المرءِ إلى عامٍ آخر؛ مُملّ ومُضجر، لا نزوح فيه.

عيناه شبه المفتوحتين، تسجّلان تفاصيل مغادرة «طشقند»، ولو بشكل مشوّش وغير واضح، بسبب ارتجاج الشاحنة أثناء السير، بحيث تبدو له المشاهد كأنّها فيلم وثائقي قديم جداً. الشاحنة تشبه ناقلات الجند. الشادرُ الذي يغطي عربتها، خلق جوّاً من العتمة بحيث أوحى وكأنّ شالاو ومَن معه؛ ضمن كهفٍ أو نفقٍ متحرّك، تظهر على جانبي فتحته البيوت، الأشجار، الناس، العربات والسيارات، كبيرة، ثم تصغر رويداً حتى تختفي. تلك الفتحة بدت أشبه بشاشة عرض سينمائيّة تعرض لهم فيلمَ مغادرتهم «طشقند». بقيت العينان على حالهما، لا يغيّر وضعيتهما شيء، رغم ارتطام عجلات الشاحنة بالحفر الصغيرة الموجودة في الطريق، ما يسفر عن ارتجاج وضجيج وارتفاع العربة عن الأرض واصطدامها بها، أثناء السير. وسط حالة الشرود الثقيل والتأمّل الناتج عن أحلام اليقظة المسيطرة عليه، تمنّى أن يكون كل ما جرى ويجري حلماً. لكن، أيُعقل أن يمتدّ الحلم بالمرءِ أحد عشر عاماً؟!

بعد وصولهم المطار، قام السائق بوضع سلَّم صغيرٍ في نهاية الشاحنة، وساعد شالاو في إنزال أولغا برفق وتأنٍّ، كونها في الشهر الأخير من حملها. الجو غائم، مائلٌ إلى البرودة رغم أنهم في مطلع

نيسان 1959. تبعد «طشقند» عن أوكرانيا مسافة 4000 كيلومتر تقريباً. يستغرق السفر بالطائرة إليها نحو ست ساعات. طالتِ الرحلة أكثر بسبب التوقّف في مطار «تبليسي» بجورجيا. هذه المرّة الأولى التي يسافر فيها على متن طائرة. كل رحلاته إلى موسكو والعودة منها كانت على متن القطار. ما إن رأى طائرات متوقّفة، وأخرى تقلع، عادت به الذاكرة إلى أيام وصولهم من «مهاباد» إلى الحدود الأذربيجانيّة، وهم تحت رحمة قصف طائرات شاه إيران الحربيّة. حاولَ تبديد الرهبة، وتمالكَ نفسهُ لئلا يظهر مهزوزاً ضعيفاً أمام زوجتهِ وحماتهِ في وقتٍ هما أحوج فيهِ إلى مُعين.

لقاء شالاو بأصدقاء ورفاق آخرين له في المطار، خفَّف عنهُ هموم وألم المغادرة. بعد الانتهاء من إجراءات السفر وجمع الحقائب وترتيبها وتسليمها، اتّجه الجميع إلى قاعة الانتظار. نودي على ركّاب الرحلة المتّجه من «طشقند» إلى «كييف». صعدوا سلّم الطائرة. أمسكَ بذراع أولغا وهي تصعد السلّم بحذرٍ وتثاقل، بينما الجدّة ممسكة بيد حفيدتها. حاولت ناتالي التهدئة من روع الطفلة كونها مذعورة من هدير الطائرة. ما من أحدٍ يخفّف عن الأب قلقهُ على زوجته وجنينها.

ترتيب مقاعدهم مناسبة تماماً، في منتصف الطائرة وعلى نسق واحد. أولغا إلى جانب النافذة اليمنى، يجاورها زوجها. والحفيدة إلى جانب النافذة اليسرى، وتجاورها جدّتها. مع ازدياد هدير الطائرة، وبدئها التحرّك، وضع شالاو يده اليسرى على بطن زوجتهِ المتكوّر المنتفخ، محاولاً طمأنتها وتهدئتها، راسماً ابتسامةً في عينيهِ وعلى شفتيهِ. لكنهُ بحرٌ هائجٌ من القلق والترقّب، وبحاجة إلى مَن

يطمئنهُ ويخففُ من عبء هواجسه وخوفه. مع بدء الارتفاع عن الأرض، شعرَ بأن أحداً يعصرُ قلبهُ بين كفّين خشنتين، ويضغطُ على صدرهِ من الداخل والخارج، ويشدّه نحو الأسفل. عيناهُ على النافذة الصغيرة، مواصلاً التأمّل وكيف يصغر العالم كلما ارتفعت الطائرة نحو السماء. انتابته فكرة الاقتراب من اللّه. هذا ما قيل له وهو طفل، وتعلّمه في الكُتّاب ومن قراءة القرآن أيضاً، على أن اللّه جالس على عرشهِ الموجود في السماء. ها هم يقتربون منه. ولكن، لماذا لا يتواجد اللّه على الأرض أيضاً؟! أوليست الأرض أيضاً ملكاً له؟! ألهذه الدرجة الأرض نجسةٌ بحيث غادرها اللّه إلى السماء؟! ولماذا يبقى مُلْكٌ من أملاك اللّه في هذا الكون نجساً، ولا يسعى صاحبها إلى تطهيره من هذا الدنس والنجاسة الموجودَين على هذا المُلك؟! هذه الأسئلة التي أعاد طرحها على نفسه، طرحها سابقاً، حين بدأ ينفتح عقلهُ على الفلسفةِ بفضل علاقته مع أولغا وتزويدها له بالكتب التي تحضّ على الشكّ والأسئلة.

مع غوص الطائرة بين قطن الغيوم وأبخرتها، عاود اختلاق ابتسامة خفيفةً ناظراً إلى أولغا، ناقراً برؤوس أصابعه على بطنها مدغدغاً، محاولاً بثَّ الطمأنينة والثقة والأمان في قلبها، بعد أن قرأ في عينيها الخوف والقلق من الآتي. قبّل رأسها، وأماله على كتفه اليمنى، فاركاً بكفّه وأصابعه شعرها ثم وجهها. مغمضة العينين، همست له:

- أتعرف!؟ أخشى أن يأتيني مخاض الولادة ونحن معلّقون في السماء على متن الطائرة؟!

أصدر شالاو ضحكةً خفيفةً مع إطباق الشفتين، كان صوتها

أقرب إلى الهمهمة، محاولاً تبديد هواجسها المجنونة. مجيباً بأنه «لا داعي للخوف والقلق. كل شيء سيكون على ما يرام». هذا الاحتمال لم يكن متوقّعاً، وجاء وقعهُ كوقع الصاعقة عليه. في حال حدوث ذلك، ماذا سيكون الموقف؟! قال لها:

- بكل تأكيد، شركة الطيران تحسّبت لهذه الأمور الطارئة. وبين هؤلاء الركّاب، مؤكّد أن هناك طبيباً أو طبيبة، ممرّضاً أو ممرضة. ثم إن والدتكِ معنا. فلا تقلقي يا حبيبتي، لا تخافي.

هذه الإجابة، هو نفسهُ لم يكن مقتنعاً بها. لكنها أفضل وأقصى ما يمكن أن يتفتّق به خيالهُ القلق والمذعور أصلاً. رؤيته الطائرة تعوم وتشقّ عباب برزخ لا ينتهي بين بحرين؛ أزرق من الأعلى وأبيض من الأسفل، هذا المشهد كان كفيلاً بفتح أبواب التأمّل على مصارعها. إلّا أنه أغمض عينيهِ، محاولاً تشتيت الهواجس التي تكالبت عليه.

هبطت الطائرة في مطار «تبليسي» للتزوّد بالوقود، ثم حلّقت كتمساحٍ بنجاحين، متّجهةً نحو مطار «كييف». عاودت الهبوط. كان الجوّ ماطراً هناك. في استقبالهم بعض قياداتهم الكرديّة وضباط سوفيات، وحافلات أقلّتهم إلى محطة القطار المتّجه إلى ميناء «أوديسا» على البحر الأسود. زاد عددهم عن 300 شخص. بدت ترتيبات السفر شديدة الانضباط والدقّة. كأنّ القطار أيضاً مخصص للمقاتلين العائدين إلى بلدهم. خُصّصت غرفة نوم لأولغا وزوجها وطفلتها وأمها على متن القطار، مراعاةً لوضعها الصحّي. تلك الغرف مخصصة للحالات الطارئة والمرضى أو المسؤولين الكبار. المسافة بين «كييف» العاصمة وميناء «أوديسا» نحو 480 كيلومتراً تقريباً. رحلة القطار أيضاً طالت أكثر من سبع ساعات. حاولت

أولغا مرّة أخرى كتم آلامها وعناء السفر أثناء الرحلة على متن الشاحنة، ثم الطائرة، فالحافلة، ثم القطار، لحين وصولهم الميناء. كل علامات الإعياء والتعب بادية عليها. الميناء شديد الاحتشاد والاكتظاظ والضجيج. البواخر الموشكة على الإبحار، كحيتانٍ هائلةٍ تطلقُ صافراتٍ أشبه بخوار ثيرانٍ عملاقة، لكنها لا تثير في النوارس شيئاً من الفزع والقلق، كأنّها اعتادت على تلك الصافرات. في انتظارهم ما يزيد عن عددهم. تذكّر شالاو أنهم كانوا نحو خمس مئة شخص حين غادروا «مهاباد» بينما الآن، وبعد طرح عدد الذين ماتوا والذين تخلّفوا عن العودة، زاد عددهم عن سبع مئة شخص. لأن الكثيرين منهم تزوجوا وأنجبوا أطفالاً أيضاً.

سبق له أن قرأ عن السفن، ورأى صورها ومشاهد عنها في الأفلام السينمائيّة التي حضرها مع أولغا في «طشقند». لكن حين رأت عيناه تلك الباخرة الضخمة التي ستنقلهم إلى بلادهم، اندهش وراعه منظرها رابضةً بجانب رصيف الميناء. صار يسأل نفسه؛ «كيف لهذه الكتلة المعدنيّة الهائلة الحجم، هذا الحيّ العائم، بما فيه من مسافرين وأمتعة، كيف لا تغرق في البحر؟!». استدرك مجيباً؛ «طالما أن العِلمَ جعل الحديد يطير، وفي جوفه البشر وأمتعتهم، فإنه سيحافظُ أيضاً على هذه المدينة العائمة من الغرقِ في البحر».

تمَّ فرز الحقائب وسط قلق أصحابها على فقدان إحداها. المسافرُ إذا ما فقد أحد أمتعتهِ أثناءَ السفر، كأنّهُ فقد عزيزاً لن يراهُ حتّى في العالم الآخر أيضاً. المرضى، ومنهم أولغا، أوّلُ مَن صعدوا إلى الباخرة العملاقة «غروزيا». وبمعيّتها صعد زوجها وطفلتها وأمّها.

لاحقاً، عرف شالاو أن تلك السفينة من غنائم نهايةِ الحرب العالميّة الثانية، وانتصار السوفيات على الألمان. طولها 250 متراً، وعرضها 36 متراً. قيل: إنها كانت سفينة هتلر الخاصة. وقيل إنها تشبه إلى حدّ كبير البارجة «بيسمارك» التي غرقت في الأطلسي سنة 1941، ومات ما يزيد على 2100 شخص كانوا على متنها، بينهم قبطانها. وتضاربت الأنباء وقتذاك حول مَن أغرقها، الإنكليز أم الألمان؟

بُنيت الباخرة «غروزيا» في مدينة «كيل» بولاية «شليزفيغ-هولشتاين» شمال ألمانيا، في الثلاثينات من القرن العشرين، كواحدة من السفن الضخمة ضمن أسطول البحريّة الألمانيّة أثناء الحكم النازي. منذ عام 1949 حوّلها الروس الى سفينة ركاب، ترسو في ميناء «أوديسا» على البحر الأسود، وتبحر حول العالم. سنة 1975، أحيلت على التقاعد والإعفاء من الخدمة.

الناسُ متجمهرةٌ على سطح السفينة تنتظرُ لحظة الوداع. البحرُ رائقُ المزاجِ، مرتدياً هدوءَ المتربّص وحذرهُ، كأنّه يدبّرُ مكيدةً وينصبُ فخاخاً، منتظراً طرائدهُ. هدوؤهُ هدوءُ الملكِ المعتدِّ بنفسهِ، الواثقِ من قدرتهِ على الانتصار في أيّةِ حربٍ يخوضها. على الرصيف العشرات من أهالي الفتيات اللاتي تزوجن من المقاتلين الكُرد، جاءوا لتوديع بناتهم. لم يكن هنالك أحد يودّع أولغا ومن معها، إلّا الذكريات. مع ذلك، رفعت هي وعائلتها أيديهم، مُشاركين أصدقائهم، راسمين في الهواء تلويحات الوداع لأناسٍ لا يعرفونهم، ولم يأتوا لتوديعهم. وحدها ناتالي، تخيّلت وجه زوجها المغدور، ضمن الوجوه المحتشدة. يدها المرفوعة في الهواء، لم ترسم له

إشارة الوداعِ ببلاهة أو كتفصيل بليدٍ وأليمٍ انسجاماً مع تفاصيل المشهد الحزين، بل عن قناعة منها؛ إنها تراهُ رؤية العين. حركةُ يدها، من البطء والثِّقَل والنَّدم، ما جعلها أكثر إيلاماً وحزناً وأسفاً من أيّة تلويحة بين كل تلك الأيادي المرفوعة على سطح «غروزيا». ربما البحرُ وحدهُ المنصتُ بهدوءٍ واحترامٍ لأنين قلبها ويدها المرفوعة في الهواء بخجلٍ وكسلٍ وحزن.

على حدّ سواء، اعتصرت قلوب شالاو وأولغا وناتالي، بإحساس الغربة واليتم. أصدقاؤهم تركوا هنا أهلاً وأقاربَ لهم. بينما هم، لم يتركوا سوى بيتٍ خاوٍ في «طشقند» لرحمة العناكب والصراصير والغبار، سينهار هو أيضاً، ويطيح به زلزالٌ ضرب المدينة سنة 1966، دمّر نحو 78 بالمئة من مساكنها.

مع إطلاق «غروزيا» صافرتها المدوّية كصافرات الإنذار المبكّر أثناء الغارات الجويّة في فترات الحروب، تيقّنَ الجميعُ أن ما يعيشونه ليس كابوساً يجاهدون للاستيقاظ منه، بل حقيقةٌ شديدة المرارة والحرقة، ولم يبقَ أمامهم سوى تقبّلها والتأقلم معها ومع ما سيأتي بعدها أيضاً. بدأت السفينة تبتعد عن الرصيف. تديرُ ظهرها للميناء بحذرٍ وبطء، وتجاهد في شقّ عباب البحر كاللائذ بالفرار من مسرح جريمةٍ ارتكبها. بالكاد يشعر المرء بميلان وتأرجح السفينة. بينما الأعين الموجودة على الرصيف والمتواجدة على سطح الباخرة، منها ما هو دامع، منها ما هو مبتسم، ومنها ما هو خائف وقلق من الآتي. الأعينُ التي على رصيف الميناء، تراقب حركة ابتعاد الباخرة عن الميناء واليابسة. والتي على سطح الباخرة، تراقب ابتعاد الميناء عنهم. رُبَّما أعين السماء والغيوم محايدة، تنظر باستقلالية عن

الناظرين إلى المشهد، من طرفي نقيض. في حين أن الأعين كلّها متفقة على أن ثمّة افتراقاً أليماً حصل، وبات من المستحيل تداركهُ أو العدول عنهُ. كلّما ابتعدت السفينة عن أوكرانيا السوفياتيّة، ازدادت أخيلة المسافرين في حركتها المتعرّجة بين الماضي والمستقبل، من دون المرور بالحاضر. الكلُّ يستحضر الذكريات في بلاد السوفيات، ويترقّب ما تخفيه الأقدار لهم في وطنهم.

* * *

مضى على إبحارهم نحو عشر ساعات. خلدت زوجته لنومٍ عميق، نتيجة ذلك العناء والإرهاق والحزن. جافاهُ النوم. ضاقَ عليهِ صدرهُ. ارتدى معطفاً واعتمر القبعة الروسيّة السميكة الفراء، وغادر الغرفة. نظرَ إلى ساعتهِ فرآها تشيرُ إلى الثانية بعد منتصف الليل. صار يبحث عن الدرج الذي يؤدّي إلى سطح الباخرة. سلك كوريدوراً، على جانبيه الغرف، مناراً بأضوية خافتة، يفضي إلى درج. مع صعوده واقترابه من السطح، ازداد الهواء حدَّةً كأنه منجلٌ يحصدُ جيئةً وذهاباً حقل سنابل، لم ينضج بعد. مع ذلك، بدا الهواء منعشاً نديّاً، مشبعاً بالأوكسجين، كأنَّه آتٍ من الجنّة. كميّة الأوكسجين الطازج التي تغلغلت رئتيهِ وأشبعت دمَهُ، كانت كافية لغسل القليل من الهموم والكدر والغمّ عن قلبه. رويداً رويداً، بصيصُ تفاؤلٍ ما، هبّ على روحهِ وفكره من جهةٍ يجهلها. مع إطلاقهِ تنهيدةً عميقةً، شعر وكأنَّ هذه الزفرة نفضت عن أعماقه غبار الرحيل. حلَّ شذر التفاؤل محلَّ سخامِ الحزن والقنوط. تلك الرياح التي واجهتهُ بقسوةٍ في البداية، صارت تتراقصُ على سطح الباخرة، بدلعٍ ودلالٍ وغنج، كأنّها أقربُ

إلى النسائم النديّة منها إلى المنجل، وتنبئُ بهطول المطر. تلك الرياح ذكّرته بهاتيك النَسمات، أثناء مشاركته في العرض العسكري إبان الاحتفال بإعلان جمهورية «كردستان» في «مهاباد» سنة 1946. اسند ذراعيه إلى الدرابزين الذي يسوّر حافة الباخرة. السحب التي تفترشُ السماء، زادت من ظلام الليل. خلفهُ أضواء السفينة وأمامهُ عتمةُ البحر والسماء الغارقة في الحلكة الدامسة، الممتدة إلى ما لانهاية. تناهى إلى خاطره فكرة مفادها أن لكل نورٍ عتمتهُ، ولكل عتمةٍ نورها. ثمّة أنوارٌ تعتّم وتعمي. وثمّة عتمةٌ تنير البصائر. صوّب نظراتهِ إلى البعيد البعيد. قطّب حاجبيه، كأنّه يحدّق، من دون أن يلمحَ شيئاً في هذا السواد العميم. لا صوت سوى صوت تكسّر الأمواج أثناء شقّ الباخرةِ طريقها وسطَ عنادِ البحرِ وممانعته. أغمض شالاو عينيهِ على أمل زيادة حالة الخلوة والتأمّل الداخلي. بقي على تلك الحال عدّة دقائق يستعرض خلالها شريط الذكريات. لم يقطع عليه اختلاؤه بذاتهِ سوى سماع صوت سقوط شيء في البحر، مصحوباً بصرخةٍ آتيةٍ من بعيد. خامرهُ ظنٌّ أن أحد البحّارة ربما رمى شيئاً ثقيلاً في البحر، وأصدر مع الرمي تلك الصرخة. ولكن، انقبضَ قلبهُ للحظةِ. انتابهُ هاجسٌ غريب مفاده؛ ماذا لو أن شخصاً، ربما ثمِلاً، لم ينتبه، وسقط في البحر؟! ذلك الهاجس، سمَّمَ عليهِ خلوتهُ التي لم تدمْ طويلاً. قفلَ عائداً إلى غرفته. بقي ذلك الصوت يؤرّقهُ. لم يعرف كيف استسلم للنوم. في نهار اليوم التالي، طرقَ باب غرفتهِ أحد القيادات الكرديّة؛ المسؤول عن تفقّد الأشخاص المدرجة أسماؤهم ضمن لائحة المسافرين، للاطمئنان على أحوالهم، كجزء من التدابير الأمنيّة التي صاحبت الرحلة. سأل القيادي عن شخص

اسمه شوان ميركه صوري. أبلغه شالاو بعدم معرفتِهِ بِهِ، مستفسراً عن سبب السؤال. أجابه القيادي بأنه «غير موجود على متن السفينة، بالرغم من أنه ضمن المسافرين العائدين إلى الوطن». هذه الإجابة أذكت هواجس يوم أمس حيال تلك الصرخة وسماع سقوط شيء في البحر. بلع ريقهُ مطأطئاً رأسه، شارداً. همَّ الشخص بالمغادرة. طلب منه شالاو التوقّف، مُفصحاً له عمّا سمعه يوم أمس، أثناء تواجدِهِ على سطح الباخرة. تلك المعلومة فاقمت قلق القيادي على أن مكروهاً ما رُبَّما حدث. دفعهُ قلقهُ إلى إجراء جولة أخرى على المسافرين والسؤال عن الشخص المفقود. بعد التأكّد من عدم وجوده، فتحوا أمتعته. عثروا على كتب تتعلق بالطبّ. وبعض الوثائق التي تؤكد حصوله على شهادة من كليّة الطبّ من جامعة «لينينغراد». شابٌّ من ناحية «شيروان مزن» التابعة لقضاء «ميركه صور» في كردستان العراق. كان ضمن المقاتلين الذين التحقوا بالقتال في «مهاباد» وسافروا مع الملا مصطفى إلى الاتحاد السوفياتي. بعد إنهائه التدريب العسكري، دخل كليّة الطبّ. كذلك عثروا على ألبوم صور له ولزوجته وطفليه. لم تكن عائلته معه. أحد أصدقائهِ سرد قصّته بأنّه أحبّ إحدى زميلاته في كليّة الطبّ وتزوّجها وأنجب منها طفلين. خلال الأشهر الماضية، عاش صراعاً نفسيّاً مريراً بين البقاء في موسكو وتقبّل وصف الخيانة وبيع الوطن والقضيّة، أو العودة إلى الوطن، والتأكيد على أنه شخص وطني مخلص، وفيّ، وباقٍ على العهد. حاولَ إقناع زوجته بالسفر معه. في حال عدم تقبّلها العيش في العراق وكردستان، يمكنهم العودة إلى موسكو. إلّا أنها رفضت فكرة السفر ومغادرة بلادها، من حيث

المبدأ. ما أدخلَ شوان جحيمَ السجال الداخلي، والأسئلة التي مزّقته بين ثلاث أنانيات؛ هل هو أناني، إذا فضّل اتهاماتِ رفاقهِ له، في حال بقائه في موسكو؟ أم أن زوجته أنانية، ضربت بحبّهما عرض حائط العناد ورفض السفر والعيش معه أينما كان؟ أم أن رفاقه كانوا أنانيين بوضعهم إيّاه أمام خيارين أحلاهما مرّ؛ إمّا المهجر وعار الخيانة أو الوطن وفقدان الحبيبة والطفلين؟

عثروا في جيب سترته على رسالة موجّهة إلى زوجته وطفليه، كتب فيها:

حبيبتي إيلينا

حبيبيَّ آزاد وشيركوه

أنا آسف. أعتذر منكم. فشلتُ في أن أكون أباً صالحاً حين اخترتُ السفرَ ومغادرتكم وترككم وحدكم. فضّلتُ الإذعان للكلام البرّاق والشعارات. ربما كنتِ مخطئة، عزيزتي إيلينا. لكنني أيضاً أخطأت. أعترف بذلك. ما أرجوه منكِ، ألا ينتابك شعور بالذنب على أنكِ المسؤولة عمّا جرى. أَبعدي الطفلين، قدر استطاعتك، عن قراءة النصوص التافهة التي تبرر سحق الإنسانيّ الخاص في سبيل تحقيق السياسيّ العام، بذريعةِ خدمةِ الوطن والمجتمع والثورة، كرواية «كيف سقينا الفولاذ». هذا النصّ، يمكن أن تجدي له مثيلاً في آداب شعوب كثيرة، ولكن بعناوين وأسماء مختلفة، ترجّحُ الانصياع والإذعان لقرار ووعي وإرادة الجماعة السياسيّة والأيديولوجيّة والدينيّة والقوميّة والتضحية بما هو فردي وخاصّ. ذلك النصّ فيه تحريض على قتل المشاعر والأحاسيس الإنسانيّة الفرديّة على مذبح خرافات وترّهات الأيديولوجيا. لا أريد لكم أن

تحزنوا على أبٍ خان الأبوّة، كي يرضى عنه الوطن والرفاق. لا أريدُ لكم أن تحزنوا على شخصٍ لم يستحقّ أن يكون حبيباً أو زوجاً أو أباً، بعد تفضيلهِ الرحيل عنكم. أنا الجاني بحقّكم وبحقّ نفسي، وأنا الذي سأقاضي نفسي وأصدر في حقّي الحكم، وأنفّذه أيضاً. حين تصلكم هذه الرسالة، سأكون طعاماً في جوف الأسماك. ما أخشاه أن يتسمَّم البحر والأسماك بلحمي. لا أجد نفسي أستحقُّ الدفن في كردستان أو في موسكو. ولا مناص أمامي من اختيار البحر لحداً. أنا آسف أيّها البحر، لا مناص أمامي غير ذلك.

آزاد وشيركوه. . .

أتمنّى لكما حياةً حرّة، بلا أبٍ يملي عليكما خرافاته وأوهامه وأكاذيبه. يمكن للمرء العيش من دون أب، ولا يمكن العيش من دون أم. اعتنيا بوالدتكما. كونا للحياة، تكنْ لكما. كونا للإنسانيّة، تجداها في متناولكما حضناً وحصناً.

سامحوني واغفروا لي.

شوان

5/ 4/ 1959

* * *

في الأشهر الأخيرة، نصحها الطبيب بالمشي. كان شالاو يتأبّط ذراعها ويمشيان على ضفّة نهر «الشاش» حيث التقيا أوّل مرّة في «طشقند». لكن عناء الرحلة من «طشقند» إلى «أوديسا» مروراً

بـ«كييف» جعلها طريحة الفراش ليومين، ويأتيها زوجها بالأكل. في اليوم الرابع، «غروزيا» راسية في ميناء «غرب بور سعيد» شمال قناة السويس لتفريغ شحنات من صناديق كثيرة لم يعرفوا ما بداخلها، إلّا بعد مغادرة الميناء. أخبرهم القبطان أنها شحنات أسلحة أرسلها خروتشوف إلى جمال عبدالناصر كي يحارب بها الأعداء من الإمبرياليّة والرأسماليّة العالميّة المتربّصين بدولة الطبقة العاملة في مصر والاتحاد السوفياتي. زحمة السفن والبواخر جعلت المسافة الواصلة بين «بور سعيد» وميناء «بور توفيق» جنوب قناة السويس، تستغرق ما يزيد عن 11 ساعة.

تحسّنت حال أولغا قليلاً. بعد مضي ساعة على إبحار الباخرة في عرض البحر الأحمر، اصطحب شالاو زوجتهُ وحماتهُ وطفلتهُ إلى مطعم الباخرة لتناول الغداء. وسط الضجيج والضوضاء العارمة الناجمة من اختلاط أصوات المتواجدين بأصوات اصطكاك المعالق بالأطباق، لمحَ شالاو نُذر توتر يخيّم على المكان. لم تكد تمضي 10 دقائق، حتى اندلعت الحرب وانقسم المتواجدون إلى ثلاث فرق، الأوّل يناصر القيادي المسؤول عن أمن المسافرين، وآخر يناصر القيادي المسؤول عن التوجيه السياسي والمعنوي، وفريق ثالث يقف على الحياد متفرّجاً، شالاو ضمنهم. حاول الفريق المحايد الفصل بين المتقاتلين. الإصابات بينهم أكثر، نتيجة تلقّيهم الضربات من الطرفين المتحاربين. بشقّ النفس نجح في إخراج زوجته من وسط المعمعة، وأوصلها إلى غرفتها. سارع بالعودة إلى ساحة المعركة لفضّ الاشتباك والفصل بين المتقاتلين. أثناء المعركة، تراشق زعيما الفريقين بالشتائم والاتهامات:

- «أنت جاسوس وعميل صغير للاستخبارات السوفياتية. مستعدّ أن تبيع كردستان والأكراد وشرفك وأمّك وزوجتك بقنينة فودكا»! فردّ الآخر على الأوّل:

- بل أنت خائن وعميل صغير لاستخبارات عبدالكريم قاسم وأمريكا والرجعية العالميّة.

- لو كنتُ عميلَ عبدالكريم قاسم، فماذا يفعل الزعيم ملا مصطفى في ضيافته، يا تافه؟!

- ولو كنتُ أنا عميلَ الاستخبارات السوفياتيّة، فماذا كنّا نفعل بصحبة الزعيم في الاتحاد السوفياتي طوال تلك السنوات، يا عديم الضمير؟!

حاول كلاهما اللجوء إلى التخوين وزجّ الزعيم والوطن والقضيّة في صراعهما، الذي اتضح أنه شخصي، ليست له أيّة خلفيّات سياسيّة أو فكريّة. يمتدّ جذرهُ لبداية سنة 1951، حين تصارعا على فتاة روسيّة، ومن هو الأجدر في استمالتها والظفر بها في الفراش. في حين أن الفتاة خدعت الاثنين، وهجرتهما ومضت في سبيلها إلى زبائن آخرين. لكنها تركت بذور الخلاف والشقاق بينهما مستمرّة، حتى انفجر وأثمرت المعركة الطاحنة، على متن السفينة. تلك المعركة التي جرت ودارت رحاها في عرض البحر، أعادت شالاو إلى حكاية رواها له والدهُ عن الكُرد والشقاق والاحتراب بين الإخوة لأسباب تافهة، مفادها: إن مجموعة من الرجال كانوا جالسين يتبادلون أطراف الحديث في لحظات من الأنس والانسجام والمزاح. وإذا بقطٍّ يمرّ مذعوراً من كلبٍ يلاحقهُ. فاختلف اثنان حول حركة القط السريعة وقفزاته الخاطفة. ذكر أحدهما أن ذنبه لامس الحائط.

بينما نفى الآخر ذلك. أصرّ الأوّل على رأيه وأن الآخر رأى ذنب القط يلعق الجدار لعقاً بيّناً، لكنه يمانع الاعتراف بذلك نتيجة العناد. بينما ردّ الآخر أنه ليس في الأمر أيّ عناد، ولماذا العناد؟ بل إن الأوّل ربما شحيح البصر، فالتبس عليهِ ظلّ القط المتشكّل على الحائط، وظنّه الذَنَب! عادَ الأوّل إلى مدح بصرهِ وأنه قادر على ثقب الجدار ورؤية ما يوجد خلفهُ. ومستعدّ لأن يحلف على المصحف على صحّة كلامه وأن ذنب القط لامس الجدار. انتفض الآخر وأقسم أن الأوّل كاذب وأنه لو نطق هذا الجدار أو القط، لقالا: إنه يكذب. كل ذلك، بعد مغادرة القطّ والكلب المكان! ولم يتساءل أحد: «هل نجح القط في الفكاك من الكلب؟!».

احتدّ النقاش وتحوّل من اتهام بالكذب إلى شتم في العِرض والشرف. ثم انقلبت جلسة الأنس تلك إلى عراك بالأيدي. فاستلّ الأوّل خنجراً كان بحوزته وطعن به الآخر طعنةً في كتفه، وطاشت طعنةٌ أخرى لتصيب شخصاً حاول الفصل بينهما. توسّعت دائرة الإشكال. جرّ الشخصان المتعاركان عائلتيهما إلى المعركة التافهة. صارت كل عائلة تكمن للأخرى. في أحد الكمائن، قُتل شقيق الأوّل طعناً بالخناجر. هاجمت عائلة القتيل عائلة القاتل بالبنادق وقتلت شخصين وأصابت خمسة. تحوّل الإشكال إلى عداوة وثأر بين عشيرتين، استمرّت عقداً من الزمن أزهقت خلاله دماء عشرة أشخاص، لم يكن بينهم الشخصان المتخاصمان المختلفان على ذنب القط. تدخّلت عشيرة ثالثة أكبر من العشيرتين المتعاديتين، للصلح بينهما، وطيّ صفحة العداوة. وافق الجميع على ذلك. أعدّت العشيرةُ الكبيرةُ مأدبةَ صلحٍ جمعت عليها أفراد وأعيان العشيرتين

المتعاديتين. بعد أن تصافح الجميع وتعانقوا، صار كل شخص يسدي المواعظ والنصائح حول عبثية الخلافات وضرورة التكاتف والوحدة. وأن العداوات بين الأكراد سببها الأعداء. وينبغي ألّا يكون الأكراد ألعوبة بين أعدائهم ولقمةً سائغة في أفواههم. خيّم جوّ من الألفة والودّ بين كل الأشخاص وكأنّهم لم يكونوا أولئك الذين تحاربوا وهدروا بعضهم دماء بعض طوال عشرة أعوام. وإذا بالشخص الأوّل ضاحكاً مخاطباً صديقه السابق:

- باللّه عليك. وبصراحة، ألم يلامس ذنب القط الحائط الذي كنّا نجلس إلى جواره؟!

- لا. بكل تأكيد. لم يلامسه.

شعر السائلُ بالإهانة والحرج حين وصله جواب النفي، وأصبح المسؤول، أمام عشيرتهِ والعشيرة الأخرى، والعشيرة المستضيفة لمائدة الصلح، وأنّ كل ما جرى من قتال وعداوة وسفك للدماء، كان بسببِ ادّعائهِ. نظر في أعين أبناء عشيرتهِ التي تلومه، وقال:

- أنت تكذب.

- بل أنت الكاذب.

وانقلبت المأدبة إلى ساحة معركة سقط فيها خمسة قتلى وما يزيد عن ثلاثين جريحاً. وعادت العداوة من النقطة التي بدأت منها. بل تفاقمت وتعمّقت أكثر واتسعت دائرتها.

حال انتهاء شالاو من استحضار ذاكرته تفاصيل هذه الحكاية، انتابته موجة ضحك هستيريّة، كافية لشدّ انتباه الجميع نحوه، وإيقافهم عن التراشق والعراك. لشدّة قوّة القهقهة. شاركه آخرون

الضحك من دون معرفة سبب ضحكه. اتسعت موجة الضحك لتطغى على تفاصيل المعركة والمتعاركين. شعر الجميع بهزلية وسخافة ما قاموا به. بعد أن هدأ شالاو، سأله المسؤول الأمني عن سبب ضحكته؟ أجابه بأنه لن يخبرهم إلّا بعد إزالة حطام المعركة من المطعم. عقِبَ إنجاز ذلك، وتقديم الاعتذار للقبطان وطاقم السفينة، قصّ عليهم الحكاية التي رواها له والده عن الشقاق والحروب الطاحنة التي تنشب بين الأكراد لأسباب تافهة. ثم قال:

- تتقاتلون كأنّكم أعداء، ولستم إخوة ورفاقاً وأبناء أرومة واحدة؟! ألم تكونوا في «مهاباد» رفاق سلاحٍ ودربٍ واحد؟! ألم نقطع تلك المسيرة من «مهاباد» إلى أذربيجان، وقطعنا العهد بالعودة معاً إلى الوطن؟! لماذا كل هذا التخوين وتحويل الأخ إلى عدو؟! تتقاتلون وأنتم على سفينة الغرباء وفي عرض البحر! فماذا أنتم فاعلون إن وطئت أقدامكم تراب الوطن؟! شجاركم وتقاتلكم هنا، يؤكّد صحّة الحكاية التي رواها أبي. ربما تكون الحكاية نتاج الخيال. لكن ما شاهدناه الآن لا يختلف كثيراً عن جوهر تلك الحكاية. ذكّرتموني برواية «الإخوة كارامازوف» لدوستويفسكي. أغلبكم صار يجيد الروسيّة. اقرأوا تلك الرواية وابحثوا عن أنفسكم فيها.

حين أنهى حديثه بذكر هذه الرواية، طأطأ القياديان المسؤولان عن العراك رأسيهما خجلاً وندماً، وإقراراً ضمنيّاً بأن سبب هذا الخلاف هو صراع قديم على فتاة روسيّة حسناء عابرة، عبرت سريريهما ذات يوم. الخلاف التافه بين القياديين على امتداد سنوات، خلق بطانة فاسدة حولهما، تحاول تعميق الخلاف وتأجيجه. تصالحَ

المسؤولان المتخاصمان. لكن، مَنْ في إمكانه الدفعُ باتجاه المصالحة بين العناصر المحيطة بهما، والتي تعتاش على اختلاق الخلافات من أي شيء، وحول أي شيء؟!

فجأةً ظهرت ناتالي وصرخت مناديةً شالاو بأن أولغا أتاها مخاض الولادة. ارتبك. لم يعد يعرف ماذا يفعل. الطبيب الكردي الذي كان موجوداً انتحر في اليوم الأوّل للرحلة. صرخ في الجموع:

- هل من طبيب؟ زوجتي تلد.

لم يتلقَّ أي ردّ. فاتجه مُسرعاً نحو غرفة القطبان كالسائر في الحُلم، يحثّ الخطى ولكنه يشعر بأنه بطيء جداً، لإخبارهِ بالأمر. طمأنه القبطان بألّا يقلق. وأن الباخرة مجهزة بغرفة عمليات وطاقم طبّي. أصدر أوامره بإرسال فريق الإسعاف وتجهيز غرفة العمليات.

نسي المتواجدون على متن الباخرة ما كانوا عليه من خصام وشقاق وعراك وبلبلة. وحّدهم مخاض أولغا وآلامها، وحالة الترقُّب التي سيطرت عليهم. في عرض البحر الأحمر، وعلى متن سفينةٍ غريبة، شقّت صرخة رضيعة كرديّة عباب السماء فكان تاريخ مولدها العاشر من نيسان 1959، ومكان ولادتها أرضٌ معدنيّة متحرّكة تمخرُ البحرَ. هذه السمكة الصغيرة التي ما كانت تريد الخروج من عتمة مياه رحم أمّها إلى نور الهواء الملوّث بعتمة الأحقاد والضغائن، ولدت في المنطقة الفاصلة بين الوطن والغربة. الأمكنة التي يعتبرها والداها وطناً وغربة، كل منهما من زاويته. فـ«طشقند» التي كانت غربةً بالنسبة إلى شالاو، تحوّلت إلى وطن. وربما تغدو «كردستان» وطناً لأولغا ووالدتها أيضاً، رغم أنهما تعتبرانها غربة.

ولادة الطفلة قلبت أجواء العداء والعراك على متن السفينة إلى أجواء فرح ورقصٍ وغناء. صار كل شخص يجتهد في اقتراح اسم يليق بها. فاقترح أحدهم اسم «كردستان» واقترح ثانٍ اسم «نيشتمان (الوطن)». واقترح ثالث اسم «بربانغ (الفجر)». ورابعٌ اقترح اسم «شورش (ثورة)». واقترح خامس اسمَي «خبات (كفاح) و تيكوشين (نضال)». وقال سادس: كل هذه الأسماء يمكن اختصارها باسم «آزادي (الحرية)». هكذا، شعر كل شخص بأن تلك الطفلة طفلته، وعليه اختيار اسمٍ يليق بها، يرافقها حتى لحظة رحيلها عن هذا العالم. فليكن اسمها ناتالي. حسمَ شالاو الأمر. هذا الاختيار، فاجأ أولغا وأمّها، واعتبرا ذلك هديّة لحماتهِ.

* * *

سَمعَ شالاو صوت فتاةٍ روسيّة تغنّي بحرقة وألم، كأنّها ترثي ميّتاً. بدا عليها الترنّحُ والسُّكرُ والحزنُ الشديد. تغنّي وتبكي، وزوجها الكردي يحاول التخفيف عنها. صوتها مريرٌ جارحٌ ومؤلم. ما جعل زوجها يبكي، محاولاً تهدئتها وطمأنتها بالعودة السريعة إلى موسكو. صوتها الفجائعي الموغل في الحداد والكآبة، أعاد إلى ذاكرة شالاو أيّام الطفولة، وتلك الفتاة الضريرة اليتيمة التي امتلكت فوق جمالها الفاتن، صوتاً شديدَ العذوبةِ والتعذيب والحرقة، أثناء الغناء. «كازيوا» التي تكبرهُ بسنة، ذات العينين الخضراوين والشعر الأسود الفاحم والبشرة الناصعة البياض، التي تزيدُ من احمرار الوجنتين والشفتين. كانت أمّه تطلب منه الذهابَ إلى غرفتها الملاصقة لمسجد القرية، كي يمسك بيدها ويأتي بها حتّى تغسلها

وتغسل الثياب التي عليها، وتلبسها ثوباً من أثواب أختهِ. أثناء الطريق من المسجد إلى البيت، يُطالبها بالغناء فتغنّي بصوتٍ طفوليّ مريرٍ وأليم، كأنَّهُ عصارةُ وخلاصةُ أصواتِ ألفِ امرأةٍ ثكلى يرثين أبناهنَّ القتلى. صوتٌ يعمي الدروب ندماً على أنها دروب. صوتٌ إنْ كابدتهُ الجبال غدت ودياناً من الحِداد. أدمن شالاو الاستماع إلى صوتها وغنائها وهي تجلس بجوار باب المسجد، تتسوّل وتسأل الناس قوت يومها. بعض القرويين، ومن بينهم أمّه، اعتبروها صاحبة كرامات. ومنهم من اعتبرها ابنة حرامٍ ولقيطةً مجهولةَ الأهل والنسب، وجدها خادمُ المسجد أمام غرفته وهي في الرابعة من عمرها. ما إن بلغت العاشرة حتّى مات خادم المسجد العجوز، فورثت «كازيوا» غرفته. لم يقبل أيّ من أبناء القرية، ومنهم والد شالاو، تبنّي تلكَ الفتاة وضمّها إلى أسرته، بعد أن اعتبروها شؤماً، فوق اعتبارهم لها لقيطة. لكن والدتهُ التي تغسل الموتى من النساء، تكفّلت بغسلها مرة واحدة كل أسبوع، وغسل وتبديل ثيابها وإطعامها في ذلك اليوم. كما نجحت في إقناع بعض نساء القرية بأن يتناوبن على تقديم الطعام لها، ريثما تبلغ الحيض، وتصبح قادرة على خدمة نفسها، أو يتزوّجها رجلٌ يبصر، قادر على خدمتها.

ذات يوم، طلبت أمّه من «كازيوا» أن تغنّي وهي تغلسها في الحمام. بدأت تطلق صوتها الشجيّ الذي جذب شالاو. اتجه نحو الحمام وصار يختلس؛ ليس السمع فقط، بل النظر أيضاً، عبر الشقوق والثقوب الموجودة في الباب الخشبي للحمام. كان وقتذاك في الثانية عشرة، وآسو في الثالثة عشرة. استعذب النظر إلى بريق جسدها المبلل بالماء ونور السراج الخافت المنعكس عليه. رأى أمه

تفرك نهديها وبطنها وتطالبها بإبعاد فخذيها بعضهما عن بعض حتى تتمكّن من تمرير يدها الممسكة بالليفة من فرجها إلى أعلى الردفين أسفل الظهر، ثم العودة إلى أسفل البطن. ومع كل حركة ليد الأم، جيئة وذهاباً، كان الردفان يرتعشان كأنهما قرصان كبيران من الجبن الطازج الطري. وبعد انتهاء الفرك، وهي مستمرّة في الغناء، تحمل الأمُّ طاسة الماء وتسكبها على فروة الرأس المبللة بالماء والصابون، فينحدر الماءُ الممزوجُ بالرغوة من الشعرِ على الوجه إلى العنق، ويتوزّع على النهدين. يتحوّلُ إلى جدول صغير يمرّ بين النهدين على البطن. يتجمّع عند العانة المعشوشبة بشعرٍ أشقر، وينسكب على الأرض كحبل. أمّا الماء المنسكب على الظهر، فيتجمّع بعضه في الشق الفاصل بين الردفين، ثم يتصل بالماء المنسكب من العانة، بحيث تزداد سماكة حبل الماء الذي ما إن يرتطم بالأرض حتى ينكسر ويتحوّل إلى قطرات متطايرة. صوتُ الماءِ المتكسّر على أرض الحمام الصغير، يشوّشُ عليها غناءها. لكنها ممسكة بناصية الأغنيّة تماماً. بعد الانتهاء من الاغتسال، بدأت الأمّ بالتنشيف، وفركِ وتمرير المنشفة على الصدر والظهر فالبطن والفرج والردفين ثم الفخذين والساقين. . . ، وهي تقول:

- كازيوا، أصبحتِ سلّة من الفاكهة الناضجة الشهيّة. حماك اللّه من أعين الطامعين. لا تكشفي جسدك للرجال. هل بدأت آلام العادة الشهرية لديكِ؟

- وما العادة الشهريّة، يا خالة؟!

- آلام مبرّحة تنتاب المرأة في البطن، تستمرّ يومين أو ثلاثة، تنتهي بظهور الدم.

- وما الدم يا خالة؟!

شعرت الأمّ بالحزن، لحال هذه الضريرة التي لا تعرف ما هو الدم، إذ لم تره من قبل. فأجابت:

- ماءٌ دافئٌ لزج، يخرج من الجسد. كل فتاة في عمرك تشعر بآلام شديدة كل شهر، تخفّ الآلام، بعد نزف الدم من الفرج. لا تخافي من ذلك يا ابنتي. إنه أمر عادي، كلنا عانينا ونعاني منه. أخبريني بكل ما يجري معك. لا تخافي.

أحبّ شالاو التلصص على الفتاة وهي بين يدي أمّه في الحمّام، والاستماع إلى الأحاديث الدائرة بينهما، دون أن يفهم شيئاً.

ذات يوم، أفسدت كازيوا عليه اختلاسه النظر إليها، حين قالت:

- أيّها الأعمى الواقف وراء الباب. إنّي أراك، فابتعد.

تفاجأ مصعوقاً. غزاهُ الذعرُ من دنو الموت، كفأرٍ فاجأهُ هرٌّ متربّص، يودُّ افتراسهُ. ابتعد خطوتين إلى الوراء. ارتبك بشدّة، وطفق هارباً بخفّةِ أرنبٍ فزعٍ من ظهور ثعلب. للوهلة الأولى، لم تستوعب الأمّ ما جرى. إذ كيف لفتاة عمياء معرفة أن هناك شخصاً يتلصص عليهما؟! فتحت الباب بسرعة. لم ترَ شيئاً. لكنها سمعت صوت خطوات شخصٍ هارب. لم تسئ الظنّ بأحد سوى بولدها شالاو. فهو الوحيد الموجود في البيت. وهو الذي أتى بالفتاة، وسيعيدها إلى غرفتها الملاصقة للمسجد أيضاً. شعرت الأمّ بشيءٍ من الغبطة والفرح لأن مياه الذكورة بدأت تسري في عروق ابنها، ما دفعه إلى التجسس والتلصص عليهما في الحمّام. نادت الأم ولدها، كي يعيد الفتاة إلى بيتها. لكنه لم يردّ، فأعادتها هي. تكررت حادثةُ

التلصص. أثناء ذلك، بدأ شالاو يتحسس انتصاب عضوه، ما جعلهُ يخاف ألّا يعود إلى رخاوتهِ السابقة. صار يسأل نفسه: إن بقي متخشّباً هكذا ملاصقاً بطنهُ كأنّه عود، ورأسه إلى الأعلى، فكيف سيبول؟ إذا تبوّل فسيصل البول إلى وجهه! شعر للوهلة الأولى أن هذا التخشّب، لعنةٌ أو عقوبة من اللّه، لأنه اقترف شيئاً ممنوعاً. لذا، امتنع عن التلصص، مدّة شهر. لكنه عاود اختلاس النظر إلى جسد كازيوا، لأنه استعذب ذلك. في أوّل حادثة احتلام، رأى في الحلم أنه يتلصص على كازيوا. واتاه القذف. شعر بالخدر الممتع واللذّة. ظنّ أن ما خرج من قضيبه هو البول. استيقظ فزعاً، متحسساً سرواله، إلّا أنه لم يجد بللا كبيراً، ولم يشمّ رائحة البول تفوح منه. صار يسأل نفسه: إن لم يكن بولاً، فما هذا؟!

تكررت تلك الأحلام الجملية، وشعورهُ بتصلّب قضيبه واحتقانهِ الشديد، كنبعٍ ضاق به الحال، يريدُ منفذاً للانبجاس. ولا تواتيهِ الراحةُ والاسترخاءُ واللذّةُ والخدرُ إلّا مع تدفّق سائلٍ من قضيبهِ على شكل رشقات. قصّ على أصدقائه ما جرى معه. انفجروا ضحكاً. أخبروهُ؛ أنه بلغَ الحُلمَ. أصبح صالحاً للزواج. ظنَّ كلامهم سخريةً وتهكُّماً. لكن والدهُ أيضاً، قال له نفس الشيء، حين فاتحه على خجلٍ، بما جرى معه. وقتها، فهم أنه ليس البولُ وَحدهُ ما تقذفهُ قضبان الرجال.

بدأ صوته يخشوشن. أصبحت أمّه ترى تلطخ سرواله ببقع المني الناشف. تهزُّ رأسها وتبتسم وتشعرُ بالغبطة. ما إن بدأ يرفض غسلَ أمّهِ لهُ، تأكّدت أنه صار بالغاً، وينبغي التوقّف عن إرسالهِ إلى «كازيوا» كي يجلبها من بيتها ويعيدها إليهِ.

في أحد صباحات الشتاء القارس، ذهبت الأمّ إلى بيت الفتاة الضريرة، فلم تجدها. بحثت عنها، من دون جدوى. مرّت أيّام وأسابيع وشهور وسنوات، واختفت للأبد. لم يُعثر لها على أثر. ولم يعرف أحد إن كانت حيّة أو ميّتة، أو إلى أين ذهبت، وهل اختطفها أحد أم لا. اختفت وكأنّها لم تكن موجودة في القرية، ولم يكن شالاو يستمع إلى صوتها الحزين الجارح الأليم، ويستمتع بالتلصص على مفاتن جسدها، وتزورهُ في لحظات الاحتلام. ليس غريباً أن يكونَ أكثر الناس حزناً وألماً على اختفائها.

* * *

بكاءُ الفتاة الروسيّة، بتلك الحرقة والمرارة، أدخلهُ في حالة مراجعة وتأمُّل وسجال داخلي حول الوطن والغربة. دوّامةُ أسئلة تدور به حيثما اتجه، كمَن يدورُ حولَ نفسهِ في حلقةِ ذِكر ودروشة: هل يمكن أن تتحوّل كردستان إلى غربة يعيشُ فيها مُكرهاً أو على مضض، بعد التغيّرات التي طرأت على أفكارهِ وشخصيّتهِ، أو بسبب أحداثٍ، ما زالت طيّ الغيب والمجهول؟ السنوات والتغيير الذي أحدثتهُ في شخصيّتهِ ووعيه، بالتأكيد أنها أحدثت نفس التغييراتِ في كردستان وقريتهِ وعائلتهِ أيضاً. هل سيتكفّل الزمن في خلق انسجام وتفاعل وتوافق بين وعيه ونفسيّته وتكوينه الجديد، وبين التغيير الحاصل في وطنه؟ أهذان التغييران متساويان؟ أم متفاوتان؟ أم أن الزمن يتحرّك في مكان، ويتوقّف في مكان آخر؟!

بالنسبة له، الشيء البعيد عن العين، ليس بالضرورة بعيداً عن القلب والعقل أيضاً، على حدّ القول الشائع! هناك ما يناقض. بعض

الأشياء، حين تبتعد عن العين، تقترب أكثر من القلب والروح والعقل. وإلّا، ممَّ يَنتجُ التوق والحنين الجارف والجامح لأشياء فقدناها، بفعل الابتعاد، وبقيت لصيقة القلب والروح والعقل؟! أحياناً، يصلُ الحالُ بالمرءِ إزاء ابتعاده عن أشيائهِ وفقدانه لها، لأنّ تغدو تلك الأشياء جراحاً في تكوينهِ الروحي والنفسي والعقلي، دائمة الوخز والنعر في الوجدان، والاستثارة في الخيال والذاكرة. يكتشف قيمتها، ومدى تأثيرها فيه، وتأثُّرهِ بها، بعد فقدانهِ لها. حتّى على مستوى الأشخاص، ثمّة أناس، كلّما اقتربتَ منهم، ابتعدتَ عنهم، وشعرتَ بالنفور منهم. ربما تنتابكَ حالة ندم على ذلك الاقتراب، لأنه بدد الصورة المتخيّلة التي كوّنتها عنهم من بعيد.

حاول إقناع نفسه بهذه الفكرة والقول: «إعجابي بأدب وروايات دوستويفسكي، جعلني أكوّن صورة جميلة عن شخصه. وإذا التقيت به أو عايشته وعاشرته واحتككت به، فسأتفاجأ وأصدمُ، وربما أصابُ بالخيبة والنفور منه. وأصبحُ نادماً على ما فعلت». صار يسائل نفسه أكثر: هل صحيحٌ أن الوطن من ضمن الأشياء التي نقترب منها أكثر، حين نبتعد عنها أكثر؟! ما مدى صحّة؛ أن الغربة امتحان العلائق بين الكائن والمكان؟! مع إدخال الغربةِ إلى وجداننا أوطاناً ومدناً جديدة، أيُمكنها مزاحمة مكان الوطن الأصل، في قلوبنا ونفوسنا وعقولنا، وصولاً إلى إطاحة الغربة بالوطن فينا؟!

لم يجرّب شالاو بعد تلك الحالة، لكنه بدأ يتلمّسُ شذر الإحساس بها. وهي أنه حين يعود المُغترب إلى وطنه، مجدداً، يشعر بالتوق والحنين لوطنه الجديد المكتسب، لمدنهِ، شوارعهِ وتفاصيلهِ. الغربة، بالمعاشرة والتواصل والتآلف والانسجام

والاندماج، تشاركُ في تطوير وعينا، وتَدخلُ في نسج أخيلتنا وتنمّي أفكارنا ومداركنا، وتغدو جزءاً أصيلاً من ذاكرتنا.

تبادرت إلى ذهنهِ فكرة مفادها؛ أن الشعور بالانتماء للأوطان، متحوّل ومتغيّر. تتداخل وشائج الغربة والوطن، ويتبادلان الأدوار، بحيث تدفع الغربةُ المرء نحو الوطن، والوطن، إذا قسا عليهِ، يجعلهُ يحنُّ إلى الغربة، باعتبارها وطناً مكتسباً. بالتقادم، شبكة علاقات الإنسان الاجتماعيّة التي كانت موجودة في الوطن، قبل الهجرة والاغتراب، تتعرّض لشيء من التلف والتآكل. بالتوازي مع ذلك، تنشأ في الوطن المكتسب؛ الغربة، شبكة جديدة من العلاقات الاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة، يكون لها مردودها المادّي والمعنوي المختلف عن مردود تلك الشبكة التي كانت موجودة في الوطن الأصل.

تكوّنت لديهِ قناعة أن القيمة المثلى للوطن؛ أن ينتمي المرء لكل مكان، وألّا يتعصّب لأيّ مكان. قابليّة التأقلم والاندماج، لدى الإنسان، هي الكفيلة بتوسيع رقعة الوطن، على حساب تقليص مساحة الغربة. نمطُ معيشةِ كل جيل، تُملي ضرورة إعادة إنتاج مفهوم الوطن، بما يتيح المجال أمام تقليص مساحة الانحيازات للأوطان الأصليّة، مخافة أن تؤدّي تلك الانحيازات، أو أن تساهم، ولو بشكل غير مباشر، في خلق ما يشبه العنصريّة أو الشوفينيّة. صحيحٌ أن الأرض التي تُحسِّسُ المرءَ بوجوده على أنه حرّ، هي وطنه. لكن، ليس هناك مهرب من أن الأرض التي ولِد وعاش عليها، حتّى لو جعلتْهُ يحسُّ بأنه عبد مغلول. لأنها أيضاً وطنه. قال في نفسه: كل أرضٍ مررنا بها، وأقمنا عليها ردحاً، وساهمت في

تكوين شخصيّتنا، ومنحتنا المتعة أو الألم، الحريّة والمعرفة، هي وطننا. وإذا كانت هويّة كل شخص منّا، تتداخل في تكوينها، هويّات أخرى، فإن مفهوم الوطن لدينا، ينبغي أن ينفتح على عدّة أوطانٍ.

بهذه الأسئلة والتأملات الوجوديّة، وفي عرض البحر، على متن الباخرة غروزيا، حاول شالاو تهيئة نفسه لما تخبّئ له الأقدار. هكذا كان الفتى المقاتل الريفي، الراعي، سنة 1946؛ يمنّي النفس بمقاتلة العدو وتخليص الوطن منه، وهكذا أصبحَ سنة 1959، بفعل الغربة والدراسة والحبّ والزواج من فتاة غريبة، والتفاعل مع أناسٍ غريبين عنه في اللغة والثقافة والعرق والأفكار.

* * *

من التواريخ التي لا ينساها؛ يوم رسو «غروزيا» في ميناء «الفاو» جنوب العراق، نهار الخميس؛ 16/ 04/ 1959. مأخوذاً بخليطٍ من مشاعرِ الفرحِ والترقّبِ، يتأمّلُ الحشودَ المستقبلةَ على رصيف الميناء. فوراً، عادت به الذاكرة القريبة الغضّة إلى مشاهد الوداع في ميناء «أوديسا» حيث لم يكن هناك أحد في وداعهم. والآن أيضاً، من غير المتوّقع أن يكون والداهُ أو أحد إخوتهِ في استقبالهِ. إذ لا يعرفُ شيئاً عن عائلته. شيءٌ غامضٌ جعلهُ يعتبر كل تلك الحشود أهله وعائلته. طوال تلك السنوات، لم يستطع زيارتهم. أرسل إلى والديهِ عدّة مرّات صوراً فوتوغرافيّة بالأبيض والأسود، له ولأسرته الصغيرة، مع البريد الحزبي الذي ظنَّ أنه يصل إلى كردستان. لم يتلقَّ أيّ ردّ منهم. لم يكن في إمكانهِ الكتابة لهم بالروسيّة أو الكرديّة أو حتّى

العربيّة، لأن عينَي والدهِ تعوّدتا على قراءة القرآن وحده، من دون فهم معاني السور والآيات. اكتفى بإرسال بعض الصور الفوتوغرافيّة وحسب. ومع عدم تلقّيه أيّ ردّ، باتت مساحةُ الأمل تتضاءل في وصولها إليهم.

لمح شالاو الزعيم ملا مصطفى بين الحشود المستقبلة، بزيّه الكردي، وسط قيادات كرديّة وعراقيّة أخرى. يَصعدُ سطح السفينة، ترحيباً بالقادمين. أيضاً، عادت به الذاكرة إلى احتفال إعلان استقلال جمهوريّة كردستان في «مهاباد» سنة 1946. الآن، لا عروض عسكريّة، لا أناشيد حماسيّة. لا عدو يتهدد الكرد وكردستان. ولا شخص غريب؛ يرتدي معطفاً أسودَ، ويعتمرُ قبّعة سوداء، يشبه تشرشل! سألَ نفسه: لِمَ كل هذا الاحتفال والاستقبال كأنّنا خضنا حروباً عظيمة، وعدنا عودة المنتصرين والفاتحين؟! يا لغرابة الأزمنة والأقدار ولعبها بنا، وكيف أننا غادرنا كردستان العراق إلى «مهاباد» سيراً على الأقدام، بحثاً عن العدو كي نصرعهُ ونزيلهُ من حياتنا. واتجهنا من «مهاباد» إلى الاتحاد السوفياتي، أيضاً سيراً على الأقدام، لمواجهة العدو. وها نحن عائدون إلى الوطن، ولا نعرف ماذا يخبّئ لنا، بعد هذا الاحتفال المهيب!

شدّة الفرحة وحفاوة الاستقبال، لم تمنعهُ من مساءلة نفسه عن جدوى كل هذا التكريم الذي لا يمكن أن يكون إلّا للمنتصرين والمحررين والفاتحين! رغم أنهم تركوا رفاقهم ورئيس جمهوريّتهم خلفهم، ولاذوا بالفرار إلى أحضان مَن خذلهم. وانهارت الدولة الفتيّة، وعُلّقَ رئيسها القاضي محمد على أعمدة المشانق! شعرَ أنهم لا يستحقون ذلك!

حاولَ شقّ طريقهِ بين الجموع بأسرع وقتٍ ممكن، بسبب حالة أولغا التي ما زالت بحاجة إلى رعاية واهتمام. تفاجأ باقتراب الزعيم منه، وسؤاله:

- قيل لي إنكم رُزقتم بطفلة على متن السفينة، هل يمكنني رؤيتها؟

اندهشَ بسماع ذلك من الزعيم الجنرال؛ ملا مصطفى بارزاني. انتابته الغبطة والفخر وغمرته الفرحة، وقال: «نعم يا حضرة القائد، هذه هي»، وناولهُ الرضيعة. سمّى الزعيم باللّه، وقبّلها، متأمّلاً ملامحها، وسأل: ما اسمها؟ أجاب شالاو: ناتالي، على اسم جدّتها.

- اسم جميل. سأطلق عليها اسماً آخر. إنها (Roj - شمس). شمس كردستان، شمس الحريّة التي لن تغيب عن العراق وكردستان.

قبّلها، ورفعها إلى السماء، متحدّثاً إلى الشمس: هذي ابنتكِ أيّتها الشمس العظيمة. هذه شمسكِ أيّتها الحريّة. هذه شمسكَ أيّها المستقبل، اعتنوا بها جيّداً.

تحوّل كل مَن على رصيف الميناء والمتواجدين على سطح السفينة، إلى بركان من الفرح والتصفيق والتهليل والزغاريد. قَبّلَ الزعيمُ الرضيعةَ مرّة أخرى، وأعادها إلى والدها. لم يستطع شالاو إكمال الاحتفال واستأذن بالمغادرة، لأنه أخبرَ أحد المسؤولين، قبل النزول من السفينة، أنهم سيتوجّهون فوراً إلى أقرب مستشفى، حتّى تتحسّن أوضاع زوجته، ثم سيتّجه إلى قريته «حاجي عمران». بعد ذلك، سيتواصل مع الرفاق في الحزب، ليرى ما يمكن فعله لخدمة الوطن.

الابتسامات على وجوه أولغا وأمّها وشالاو. حالة من الفرح والسرور تتدفّق من قلوبهم كجداول مياهٍ عذبة، وهم يرون تلك الجموع المهللة. ممسكاً بذراع أولغا وهي تحمل الرضيعة، بينما الجدّة تحمّل الطفلة مريم، نزلوا بحذر وبطءٍ شديدين. إحدى عينيه على الدرج، والأخرى على الجموع، من دون البحث عن شخص معيّن ينتظرهُ على رصيف الميناء. لم يجد صعوبة في تأمين سيارة. طلبوا من سائقها توصيلهم إلى عيادة طبيب معروف في البصرة. أخذهم إلى عيادة طبيب دمشقي سوري اسمه جمال الدين أحمد الفحّام، عيادتهُ قرب المحكمة، في الحيّ القديم من البصرة. بعد المعاينة والكشف، تمّ تحويل أولغا إلى المستشفى الملكي الذي تغيّر اسمه إلى المستشفى الجمهوري، غداة ثورة عبدالكريم قاسم على النظام الملكي. بقيت أولغا في المستشفى أربعة أيّام. لم يكن في إمكان زوجها البقاء عندها. اضطر إلى الانتقال إلى فندق «شط العرب» الذي افتُتح سنة 1938، بحضور الملك العراقي؛ غازي بن فيصل.

تماثلت أولغا للشفاء تماماً. قرر شالاو قطع المسافة من البصرة إلى كركوك بالقطار، بعد التوقّف في بغداد للاستراحة ليوم. ومن كركوك باتجاه السليمانيّة، ثم «حاجي عمران». هكذا كان مخططه. انطلقَ القطار من محطة «المعقل» في البصرة باتجاه بغداد. شأنهُ شأنُ أولغا وناتالي، للتو يتعرّفُ على هذه البلاد التي يفترض أنها بلادهُ. بلادهُ السابقة؛ المحصورة بين قريته والمراعي، حين كان طفلاً وأصبح شابّاً يافعاً. الآن يكتشف اتساعَ العراق؛ مدينةً مدينة. عالمهُ الصغير الذي خرج منهُ شمالاً باتّجاه الشرق نحو «مهاباد»، ثمّ اتّجه

شمالاً نحو أذربيجان، فـ«طشقند»، ثم موسكو، ثم أوكرانيا، وعلى متن «غروزيا»، خاض البحار، باتّجاه الجنوب، حتّى وصل البصرة. ها هو، يتّجه من الجنوب نحو الشمال مجدداً على متن القطار. استغربَ من دورة الأيّام والأزمنة والأمكنة وما تفعله في المرء من تحوّلات.

قبل حلول المساء، وصل قطارهم إلى محطة القطارات في منطقة «الكرخ» ببغداد. تمكّنوا من رؤية بعض تفاصيلها وتصميمها الانكليزي وقبّتها الفيرزويّة الشرقيّة التي تغطي البهو، وبرجيها والساعتين الموجودتين عليهما، وأرقامهما الهنديّة والأجنبيّة. عرفوا أيضاً أن بدء البناء فيها كان سنة 1948، وافتُتحت سنة 1952 على زمن الإنكليز.

هو، وزوجته التي ما زالت تعاني من تبعات ما بعد الولادة، وحماتهُ، ربما يمكنهم تحمّل عناء السفر. لكن ما ذنب الرضيعة والطفلة مريم؟ رغم أنه جلب معه كل مدّخراته ومدّخرات زوجته وحماته، إلّا أن المصاريف والنفقات بدأت تزداد عليهم. اضطرّ إلى المبيت في أحد الفنادق التي لا تبعد كثيراً عن محطة القطار. جاهل بمعالم وتفاصيل المدينة. لا يعرف اللغة العربيّة. طلب من سائق التاكسي أخذهم إلى فندق. ظنَّ السائق أنهم أجانب. أخذهم إلى فندق بغداد، في الجانب الآخر من نهر دجلة الذي يشطر بغداد. هذا الفندق بنته أربع عوائل مسيحيّة عراقيّة، وافتتحه الملك فيصل في العهد الملكي. أعيد افتتاحه على زمن عبدالكريم قاسم، بعد انقلابه على النظام الملكي، واستلامه السلطة. تذكّر شالاو حالَ أيّامهِ الأولى في «طشقند»، وكيفَ كان كالمشدوهِ، الأبلهِ، الفاقدِ القدرة

على الكلام. جرى ذلك في الغربة، وهو الآن في وطنهِ وحاله هي هي؛ لا يعرف اللغة التي تمكّنه من التنقّل بسهولة، كأحد أبناء هذا الوطن. صحيحٌ أن الإحساس بالغربة في «طشقند»، قبل 12 سنة تقريباً، ليس بنفس شدّة الإحساس بالغربة الآن. لكن عامل اللغة مهمّ جدّاً في جعل المرء غريباً عن وطنهِ، أو منتمياً إلى بلاد الآخرين حين يجيد لغتهم. ما خفف عنه إحساس الغربة، أنه لم يكن وحده؛ معهُ زوجتهُ وطفلتيهِ وحماتهُ، ومتّجهٌ نحو قريته لملاقاة أهله، وعناق أرض الطفولة والصبا. عادَ إلى الوطن، شخصاً آخر، لا كما غادرهُ. صار يستحضر الذكريات، ويفكّر في كيفيّة نقل تفاصيلها إلى أولغا وأمّها.

باتوا ليلتهم في الفندق. في الصباح، اتجهوا مجدداً إلى محطة بغداد، كي يستقلّوا القطار المتّجه إلى كركوك. وصلوا إلى المحطة الموجودة في منطقة «حمزة ليلر» التي بُنيت أيضاً على زمن الإنكليز. بعضُ التاكسي موجودة خارج المحطة، تنتظر اصطياد الزبائن. الآن، صار بإمكانه التكلّم بلغته الأمّ الكرديّة، والتفاوض مع السائق على الأجرة، وتبادل الأحاديث معه، أثناء الطريق. اتفق مع سائق سيارة مرسيدس موديل 1952، في نهاية العقد السادس من عمره، على أن يوصله إلى «حاجي عمران» وليس إلى السليمانيّة فقط. ذكر له السائق؛ أن هذه فرصة، كي يرى المناطق الكرديّة ما بعد هولير (أربيل) والسليمانيّة. لأن معظم تنقلاته هي ضمن المدينة. وإذا أتته سفرات، فلا تتجاوز السليمانيّة وأربيل والموصل. ذكر أيضاً أنه مرَّ بـ«حاجي عمران» مرّة واحد فقط، قبل ما يزيد عن أربعين سنة. وهذه هي المرّة الثانية. حتّى أنه لم يرَ في حياته البصرة وبعض المدن العراقيّة الأخرى التي سمع بها.

ما إن بدأت السيارة رحلتها، حتّى باشر السائق التعريف بنفسه:

- اسمي دارا نوزاد عبدالوهاب جلالي. وأنت؟

- شالاو حمه عبدالمقصود الكسنزاني.

- أنتَ من «كسنزان»، ما الذي أخذكَ إلى «حاجي عمران»؟!

- أجدادي كانوا من «كسنزان». لكنني وأبي ولدنا في «حاجي عمران».

هزَّ السائق رأسّه تعبيراً عن الفهم وزوال الاستغراب لديهِ، وقال: لدينا ما يزيد عن ست ساعات مسافة الطريق. وهذه المدّة بحاجة إلى أن نبددها بالكلام والأحاديث والقصص. شخصيّاً، لا أعرف بالضبط متى ولدتُ. حين تمّ اقتيادي إلى الجنديّة في الجيش العثماني سنة 1915، لمقاتلة الروس، كنتُ بالغاً الحلمَ، وشارباي واضحين. حتّى الآن ينادونني بابن اليهوديّة، رغم أن أمّي دخلت الإسلام، وفارقت أهلها. يمكنك اعتباري خليطاً من أبٍ كردي وأمّ يهوديّة. أنا وحيد والديَّ، بين أربع أخوات. مع ذلك، اقتادوني إلى الخدمة في الجيش العثماني. كنّا بالعشرات. أغلبنا كرد. والقليل من العرب والتركمان. نقلونا إلى حلب سنة 1915، ومن هناك اتجهنا شمالاً، ثم شرقاً، وقطعنا مسافات شاسعة سيراً على الأقدام، إلى أن وصلنا منطقة «إغدر» (Iğdır) على الحدود الأرمنيّة. المنطقة هناك، ساحةُ حرب رهيبة، بين المجموعات الأرمنيّة الموالية للجيش الروسي، والجيش العثماني. قالوا لنا: «هؤلاء أعداء، كفّار. اقتلوا العدو أنّى لقيتموهم. إن لم تقتلوهم، فسيقتلونكم، وينهبون بيوتكم، ويغتصبون نساءكم. قتلُهم حلال زلال، حتّى لو لم يعتدوا عليكم. نساؤهم وأموالهم حلال لكم».

المجموعة التي كانت معي في كركوك، ونُقِلنا معاً إلى حلب، تمّ توزيعها على قطاعات الجيش العثماني. هناك من اتجه إلى لبنان، ومن اتجه إلى الشام، ولم يبقَ معي سوى خمسة؛ ثلاثة أكراد، عربي وتركماني، وأنا سادسهم. كنّا أبناء مدينة واحدة، ونعرف بعضنا. صرنا نسأل أنفسنا: بيوتنا ونساؤنا في كركوك، والأجدى بنا الدفاع عنها هناك، ضدّ هجمات الأرمن، وليس هنا! قُتل جندي كردي وآخر عربي، وبقينا أربعة. كنّا ضمن مجموعة من الجند التي ترافق قافلة من نساء وأطفال وشيوخ ورجال الأرمن، ونريد نقلهم بعيداً عن قراهم. أثناء تواجدنا هناك، تعلّمنا بعض الكلمات الأرمنيّة. اتفقت مع أصدقائي الثلاثة؛ الكرديين والتركماني، على الهرب والعودة إلى كركوك، وليحدث ما يحدث. قطعنا عهداً بالدم على ذلك، وألّا يخون أحدنا الآخرين. وذلك بجرح معاصم أيدينا ومزج قطرات الدم النازف منها. اتفقنا أيضاً، أن نخلّص معنا بعض النساء والأطفال. بدأت القافلة من «إغدر» (Iğdır) ومرّت بـ«دوغوبيازيد» (Doğubayazit) ثمّ «أرجيش» (Ergiş) فـ«وان» (Wan)، وكلّما مررنا بقرية أو قصبة أو بلدة أو مدينة، كان حجم القافلة يزداد، رغم قتل العشرات وموت آخرين جوعاً وبرداً، ناهيك عن الاغتصاب وهتك الأعراض. الفظائع التي رأيتها، لو رويتها للجبال، لخرّت وانهارت حزناً وألماً وفزعاً.

اتفقنا مع عائلة مؤلّفة من أمّ وثلاث بنات وصبيين يافعين ورجل مسنّ، أن نهرّبهم معنا. في ليلة ماطرة، وبينما القافلة معسكرة، انسحبنا من المعسكر. كُنتُ آخرهم، حتّى أتأكد تماماً من نجاح عمليّة الفرار. اتجهنا على غير هدى، لحين ابتعادنا تماماً عن

المعسكر. ربما لم يلحظنا أحد، أو لم يهتمّوا لأمرنا بسبب الليل والجو الماطر، والحجم الكبير للقافلة. بعد قطع مسافة جيدة بين الغابات والبساتين، لحين بزوغ الفجر، وشعورنا ببعض الأمان، خففنا من سرعة المسير، إلى أن وجدنا أنفسنا أمام بيت في أطراف قرية. طرقنا الباب. فتح لنا رجل كردي، رحّب بنا، وآوانا، بعد رؤيته حالنا المزرية والذعر والخوف على وجوهنا. ما زلتُ أحتفظ ببعض الطاقة والأمل، على أن أسوأ ما يمكن أن نتعرّض له هو الاعتقال والقتل. لكن صاحب البيت، وبعد أن قصصنا عليه حكايتنا، بكى لحالنا. أمر زوجته بتحضير العشاء. أخبرنا بأننا قريبون من الحدود الإيرانيّة، وسيساعدنا في عبور الحدود إلى الجهة الأخرى، وكيفية الاتجاه جنوباً لحين الوصول إلى المنطقة الكرديّة الإيرانيّة المواجهة لـ«حاجي عمران». ومن هناك، يمكننا العودة إلى العراق. تلك كانت أوّل مرّة أسمع فيها اسم قرية «حاجي عمران». مع حلول المساء، وبعد فحص الرجل الطريقَ وأنه آمن، سار بنا لساعات. لم نكن نعرف؛ هل اجتزنا الحدود أم لا؟ باشر الفجرُ بزوغهُ. توقّفنا أمام منزل. طرق الرجل بابه، وقال إن معه ضيوفاً. دخلنا جميعاً. اتّجه إلينا بالقول: «أنتم الآن في قرية «رازي» ضمن أذربيجان الغربيّة في إيران. هذا الصديق هو كردي وليس أذري، لا تخافوه، سيساعدكم لحين وصولكم إلى منطقة «تمرجين»، وسيسلّمكم إلى شخص آخر، يعبر بكم الحدود إلى «حاجي عمران». كل ذلك يحتاج إلى مصاريف، هل لديكم ما يغطي نفقات ذلك؟».

نظر بعضنا إلى بعض. حاولت إفهام النسوة بأننا بحاجة إلى

بعض المال، فأعطونا بعض النقود والقطع الذهبيّة. كان معي ومع أصدقائي القليل أيضاً. وضعنا ما بحوزتنا بين يدي الرجلين، فقالا: «هذا يكفي ويزيد». استغرقت رحلتنا ما يزيد عن عشرة أيّام. قطعناها سيراً على الأقدام، وركوب البغال والحمير. لم يحتمل الرجل الأرمني المسنّ عناء الرحلة. فارق الحياة. اضطررنا إلى أن ندفنه أثناء الطريق قريباً من «تمرجين». بعدها بيومين، عبرنا الحدود إلى «حاجي عمران». هناك، بتنا ليلتنا في مسجد القرية. ساعدنا إمام المسجد في المغادرة إلى «السليمانيّة» ومنها إلى «كركوك».

- إنه والدي؛ الشيخ حمه عبدالمقصود الكسنزاني! قالها شالاو فرحاً ودهشةً!

- هل تعني ما تقوله؟! يا إلهي! ياللأقدار الغريبةِ العجيبة! قالها مبتسماً مندهشاً، ثم عاود كلامه: وصلنا كركوك، بحذر وخوف من اكتشاف أمرنا، واعتقالنا. لم نجد أحد يكترث لنا. عرفنا في ما بعد أن الثكنة العثمانيّة فارغة. والجند اتجهوا نحو حلب. وقتذاك، زالت المخاوف.

- ماذا حلّ بالعائلة الأرمنيّة؟

- بعض مضي ثلاث سنوات، ومجيء الإنكليز، الفتاة الكبيرة تزوّجتني. والأمّ تزوّجت من ضابط إنكليزي. الفتاتان تزوجتا من شابين أحدهما كلداني والآخر سرياني، من المسيحيين الكركوكيين.

- هل أجبرتَها على الدخول في الإسلام؟

- لا طبعاً. هي التي أحبّتني. ورأت فيّ الرجل الذي يستحقها، على أنني من أنقذها وعائلتها من موتٍ محتّم. الصبيّان، أصبحا

رجلين قويين. ما زالا في كركوك، وتزوجا من فتاتين أرمنيتين نجتا من المذابح. هذه حكايتي ومروري بـ«حاجي عمران»، فماذا عنك؟

- حكايتي تشبه حكايتكِ، وتعاكسها في الاتجاه. كنتُ شابّاً ريفيّاً، فجأةً وجدتُ نفسي ملتحقاً بجند الملا مصطفى بارزاني. اتجهنا لمقاتلة العدو في «مهاباد». أعلنا هناك دولة، ثم انهارت. هربنا إلى الاتحاد السوفياتي. بقيت هناك قُرابة 12 سنة. وها هي عودتي إلى «حاجي عمران» ومعي زوجتي وحماتي وطفلتاي. هذه باختصار حكايتي. أنتَ عبرت «حاجي عمران» عائداً إلى العراق، وأنا عبرتها مقاتلاً في سبيل دولة كردستان.

اقتربت السيّارة من منطقة، تظهر فيها أسطوانات عملاقة، تنبعث منها النيران ودخّان أسود. «أتعرف هذه المنطقة»؟ سأل السائق. «لا» أجاب شالاو.

- إنها آبار «بابا غورغور» النفطيّة. إنه النفط، أحد الكنوز التي تعومُ عليها بلادنا، وسيكون الوقود الذي سيحرقنا به؛ الذين نريد نيل حريّتنا منهم! إنهم يعبدون نفطنا، ويريدون أن نبقى عبيداً لهم!

- من تقصد؟

- العدو. ليس عدوّاً واحداً. بل أعداء.

أحسَّ شالاو أنه سبق أن سمع نفس هذا الكلام، قبل اثنتي عشرة سنة. وما عاد مقتنعاً به. فقال: لماذا لا يكون هذا الكنز للجميع، لئلا يصبح وقوداً في يديّ أحدهم ضد الآخر؟!

ضحك السائق وردّ: نزعة التملّك، وحبّ السيطرة، إذا ما تفاقمت، تجعل الإنسان يعارك ويصارع ويحارب أخاه الإنسان على

الهواء الذي يتنفّسهُ، وليس على الماء أو الخبر أو النفط. حتّى لو قلت لهم: خذوا النفط، وأعطوني حقّي في الحياة الكريمة! سيردّون عليك بالقول: لا. مجرّد تفكيركَ بأنهُ لديك حقّ عندنا، سيدفعكَ ذلك لاحقاً إلى محاولة استعادة الحق أو النفط أيضاً. أنتَ ليس لديك شيء. أنتَ لا شيء. وستبقى هكذا. وإن أردت أن تصبح شيئاً، فسنحرقك، كما نحرقُ هذا النفط، أو سنحرقُكَ بالنفط الذي تطالبنا به.

أنا سائق تاكسي منذ سنوات. علّمتني مهنتي الكثير من طبائع البشر. لم أنل حظّي من التعليم والدراسة. لكنني أجيدُ الآن الكرديّة والعربيّة والإنكليزيّة والقليل من التركمانيّة والسريانيّة والأرمنيّة. هذه المدينة الملعونة بالنفط، ستجلب على سكّانها والمحيطين بها المزيد من اللعنات والأزمات والصراعات. رحل العثمانيون بظلمهم وجبروتهم وقرفهم، وتركوا الأحقاد التي غرسوها هنا. جاء الإنكليز. صحيح أنهم لم يكونوا كالعثمانيين، لكنهم أضافوا المزيد من المشاكل إلى المشاكل التي خلّفها العثمانيون في المنطقة. رحل الإنكليز. الآن يحكمنا عبدالكريم قاسم، ويفترض أنه من أبناء البلد، ويريد طيّ صفحة الصراعات والخلافات. وها أنت تعود إلى قريتك بفضله. ولكن، لا يوجد ضمانات أن هذه المدينة لن تتحوّل إلى براميل بارود إلى جانب النفط المشتعل فيها. أنا قلق، لأنني ولدتُ على أرض قلقة، تعومُ على بحارٍ من الدم والنفط والأزمات، تحت سماءٍ أكثر قلقاً.

تركَ شالاو وسائق التاكسي كركوك و«بابا غورغور»، و«آلتون كوبرو» خلفهما. أخذتهما الأحاديث وخففت من وطأة الزمن

والمسافة. دخلا «أربيل». مرّا من جوار قلعتها. سأله السائق: «هل تعرف أين نحن الآن؟». أجابه شالاو بالنفي. ردَّ السائق مبتسماً: «وكيف ذهبت لتحارب وتقاتل العدو، دفاعاً عن كردستان، وأنت لا تعرف من قرى ومدن كردستان غير «حاجي عمران»؟!». علّق شالاو ساخراً: «وهل تعرف أنت مدن وقرى كردستان؟ مجيئكَ إلى السليمانيّة وأربيل كان بمحض العمل ونقل الركّاب! أم أنا مخطئ؟».

- لا. لست مخطئاً. لكنني لم أزعم أنني مقاتل من أجل حرية واستقلال كردستان، ولا أعرف شيئاً عن مدن وقرى كردستان؟! كنت مجرّد جندي في الجيش العثماني، اقتيد جبراً وكرهاً إلى حرب لم تكن حربه. بينما أنت، ذهبت بمحض إرادتك إلى حرب، كانت حربكَ، ولأجل وطنك، ومقارعة عدوّ شعبكَ! صحيح؟ أما أنا مخطئ؟

- لست مخطئاً. ربما لم أكن أيضاً مخطئاً أيضاً، أو أنني لم أكن في السنّ والوعي الذي يجعلني أفصل بين الخطأ والصواب. جيشان المشاعر وهيجانها، الرأس الحامية، رفض الظلم، والتأثّر بالكلام الحماسي، جعلني لا أفصل بين الأمور، وأن أرى الوطن وكردستان والعدو، خلفَ الحدود، وليس داخلها!

- نحن الآن في «كسنزان»، البلدة التي أتى منها أجدادكَ. هل تشعر بشيء ونحن نمرّ بها؟

- لا. لا أشعر بشيء، ليس لي فيها شيء. مكانٌ مجهولٌ تماماً، لا يربطني به شيء سوى أن عظام بعض أجدادي مدفونة تحت ترابها. عظامُ الأجداد، لا علاقة لها بالذاكرة. الشعور بالانتماء لمكان،

بحاجة إلى ذاكرة مرتبطة بالمكان، ولا علاقة له برميم الأجداد المدفون تحت ترابهِ.

صادفَ مرورُ السيّارةِ في الشارع العام، مرورَ حشودٍ بشرية تحمل الدفوف وتغنّي. أنزلَ السائقُ زجاج نافذته، وسأل أحد المشاركين في التجمّع عن الأمر، وهل هو عرس؟، ردّ عليه بالنفي؛ «إنها حضرة صوفيّة قادريّة كسنزانيّة». سأل السائقُ شالاو: «هل تأذن لنا بمشاهدة ما يجري، وما كان يقوم به أجدادكَ، أم تفضّل مواصلة الطريق؟». وافق شالاو، وتحدّث بالروسيّة إلى أولغا وناتالي، وأنه يمكنهما النزول ومشاهدة الاحتفال الديني.

شبابٌ ورجالٌ بلحىً وشعورٍ طويلةٍ، يتمايلون يميناً ويساراً، على إيقاع الدفوف، بشكل شبه متناسق. وسرعان ما تتأجّجُ الحالة لدى البعض لتدخل مرحلة فقدان التوازن والارتعاش والهذيان كالممسوس أو المسحور أو المصعوق والمصاب بالصرع، المتمرّغ في الأرض، وسط التهليل والصياح وهياج الناس وانفعالهم. أحدُ الراقصين، تزداد حالة الانفعال والهياج لديه. يقفزُ إلى وسط حلقة الذكر. يقوم بحركات بهلوانيّة، كالقفز في الهواء والدوران. يدخلُ ثلاثة رجال وسط حلقة الذكر. يبدأون بإدخال أسياخ حادّة في بطونهم، وجدران أفواههم، ما شكّل حالة رعب وهلع لدى أولغا وأمّها. طلبتا الابتعاد بسرعة عن هذا السيركِ المرعب، كما وصفته أولغا.

تلك المشاهد الغريبة، بقيت عالقة في مخيّلة شالاو وزوجته وحماته. بينما بدا الأمر عادياً لدى سائق التاكسي. حالة من الصمت والوجوم سيطرت عليهم حتّى بعد خروج السيّارة من البلدة. دخلَ شالاو في حالة من الشرود والتأمّل، وعاودت الثرثرات الداخليّة

تدفقها في ذهنهِ: «ما أشبه هذه الحياة بسيرك كبير، نحن فيهِ اللاعبون والمهرِّجون والحيوانات والمتفرِّجون أيضاً».

قال السائق: «لدينا في كركوك أيضاً حلقات ذكر ودروشة من هذا النوع. وكذلك الأمر في بغداد». قاطعه شالاو مستغرباً: «هل كان أجدادي هكذا؟». ردّ عليه السائق: «ما زالوا، وسيبقون هكذا».

– لا. لقد غيّروا طريقتهم من القادريّة إلى النقشبنديّة.

– الاختلاف في التسمية فقط، الأساليب هي هي.

– لكنني لم أجد شيئاً من هذا القبيل يمارسه أبي أو أهالي «حاجي عمران»!؟ هل تعرف أن هذه الطريقة في الرقص البهلواني، والضرب بالسكاكين والأسياخ، وممارسة ألعاف الخفّة المصحوبةِ بالموسيقى، توجد في روسيا، كنوع من التسليّة والترفيه، وليس كنوع من طقوس العبادات. إنهُ لأمرٌ فظيع أن تتم ممارسة الشعوذة والتجهيل باسم الدين والتقرّب إلى اللّه.

– طبيعي أن تتكلّم بهذه الطريقة. أنت آت من بلد الشيوعيّة والكفر والإلحاد، وعدم الاعتراف بالأديان. أنت شيوعي. هل تصلّي؟

– لا. كنتُ أصلّي وأنا طفل، عندما كان أبي يصطحبني معه إلى المسجد، ويعلّمني قراءة القرآن، دون أن أفهم شيئاً مما أردده.

– إذاً، لست مسلماً.

– أقول لك: أنا من عائلة متديّنة، وأبي إمام جامع. أؤمن بوجود خالق لهذا الكون. ولست مع هذه الطرائق في العبادة والسيطرة على عقول ونفوس الناس.

- أنت شيوعي وانتهى الأمر. قالها السائق ضاحكاً. وأردف: لا تقلق. لا تخف. أنا أيضاً عضو في الحزب الشيوعي العراقي. ولا أفهم من الشيوعيّة شيئاً سوى أنها مع الفقراء ضد الأغنياء والظالمين. تماماً كما أنك لا تفهم من الإسلام شيئاً سوى إيمانك بوجود خالق لهذا الكون. لعلِمكَ؛ تركنا مناطق «صلاح الدين»، «شقلاوة»، «حرير»، «راوندوز» وها نحن نخرج من «شومان»، وأعتقد أننا نقترب من «حاجي عمران». يجب علينا التوقّف هنا، لأن إحدى عجلات السيّارة بحاجة إلى تبديل، على ما يبدو لي.

نزلوا جميعاً. بالفحص والمعاينة، اتضح أن عجلة اليمين الأماميّة نازلة، ولا يمكن مواصلة الطريق بها. لحسن الحظّ أن السائق يحمل معه عجلة احتياطيّة. على جناح السرعة، استبدل المعطوبة بالسليمة، وعادوا إلى مواصلة الطريق. قال السائق: واجبٌ علينا شُكرُ الإنكليز على هذه الطرق التي شقّوها لنا في هذه المناطق. ونشكرهم أكثر على هذه الشاخصات المروريّة التي وضعوها على جانبي الطريق. الإنكليز الكفرة، تركوا لنا طرقاً وجسوراً ومعامل ومصانع، ورحلوا. ولم يتركوا لنا طرقاً صوفيّة، وحلقات ذكر ودروشة.

ذهنُ شالاو مشغولٌ بكيفيّة رؤية والديهِ بعد هذا الغياب. قلبهُ يخفق كلّما اقتربوا من قريتهِ. ليس لديهِ الوقت للتفكير في شكرِ الإنكليز أو أصحاب وأرباب الطرق الصوفيّة أو غيرهم. ما يعنيه الآن، أن يكون أهلهُ بخير. أن تكون الحياة في القرية مقبولةً لزوجتهِ وحماته. ألّا يندم على العودة إلى الوطن. ألّا يضطرَ إلى مغادرتهِ، تحتَ أيّ ظرف. لا يتذكّر إن كانتِ الطريق المؤديّة إلى القرية جيّدة

أم سيِّئة حين عاشَ فيها. لمحَ شاخصة مكتوب عليها اسم القرية. لا يذكر؛ أكانت هناك شاخصة على جانب الطريق، وقتذاك؟ غدا كتلة أعينٍ مركبّةٍ مِن عيونٍ صغيرةٍ، حتّى يتمكّن من التقاط بعض التفاصيل القديمة، وسطَ ما طرأ على القرية من تغيير واتساع وتبدّل في أحوال المنازل، الجدران، الأبواب، النوافذ، والبشر. تلقائيّاً، صار يتحدّث بالروسيّة موجّهاً كلامهُ إلى أولغا، دون أن يكون لديها سابق تصوّر عن تفاصيل القرية، حتّى يُمكنها مقارنة المعلومات السابقة، بما تراه وما تسمعه من معلومات زوجها:

- هذا منزل المختار الآغا. انظري؛ كم الإسطبل الملحق به كبير! إلى جانبه منزل الحاج معصوم أفندي، المطهّر؛ خاتن الأطفال. قالت أمّي إنه هو من ختنني. هذا المنزل هو لعائلة «آسو» صديقة أختي «كجال». هذه المنازل، لا أعرف لمَن هي؟ القرية تغيّرت. نعم، تغيّرت. ربما أنا من تغيّر، ولم أعد أذكر تفاصيل القرية.

أصبح شالاو كمَن يتحدّث إلى نفسهِ. وفجأة قال: «أولغا، أترين ذلك البيت الكبير المبني من الحجر، تعلوهُ مئذنة. إنه جامع القرية. كان والدي إمامه. يا دارا، إنه المسجد الذي قضيتم فيه ليلتكم، حين عبرتم الحدود آتين من إيران. إلى جانبه، غرفة «كازيوا»؛ لا تعرفونها. أنا أعرفها. كم كانت مسكينة وجميلة!».

لم يفهم السائقُ شيئاً، لأنه يتحدّثُ الروسيّة. اختلط الأمر على شالاو. ما عاد يعرف مع مَن يتحدّث الكرديّة أو الروسيّة. ثم سأل نفسهُ بالكرديّة: «مَن هي تلك المرأة الجالسة حيث كانت تجلس «كازيوا»؟!». توجّه للسائق، وعيناه إلى الأمام: «إلى اليمين».

خرجت السيارة من الطريق المعبّدة، ودخلت إلى ما يشبه الطرق الترابيّة. «إلى اليسار. قفْ أمام ذلك الباب الخشبي».

فتح باب السيّارة. بدا الزمن لديهِ متخثّراً، شديد البطء. يظنُّ أنهُ سيجدُ والدهُ أو والدتهُ خلف باب الحوش ينتظرانهِ، فيعانقهما بشغف ولهفة المشتاقِ العائدِ إلى الحياةِ من الموت. نسي زوجته وأمّها وطفلتيه في السيّارة. سيطر عليهِ إحساس الطفل الذي كان يركض وراء دجاجات أمّه في حوش الدار، ويدخلُ الغَنم إلى الزريبة. لحظاتٌ عصيبة من الفرحِ والقلق، الترقّبِ والخوفِ من المفاجآت، وما يخبّئه ذلك الباب الخشبي، شبه المتهالك، خلفهُ. الأبوابُ المغلقة، رواةٌ يتكتّمون على رواياتٍ، لا يروونها إلّا لمَن اصطفتهم الأزمنة والأمكنة للاستماع إلى الحكاية. أبوابُ البيوتِ أفواهها، والنوافذُ أعينها.

وضعَ يدهُ على الخشب. صارَ يتحسسُ الباب، تحسُّسَ الأعمى للأشياء. لم يكن مغلقاً بإحكام. دفعةٌ خفيفةٌ جعلته ينفتحُ على صمتٍ كئيب، وحوش مكتئب، ومنزلٍ مهجورٍ ينضحُ بالحزن والكآبة. حالهُ كحالِ رجل مسنٍّ متهالكٍ ينتظرُ نفخةَ الموت الأخيرة، كي تنهي محنتهُ وتطوي صفحته من كتاب الحياة. والآن، وجدَ تلك النفخة التي لطالما انتظرها.

القرية والطريق المؤدّية إليها، كانتا تضجّان بالربيع ونهوض الطبيعة وجمالها الخلّاب. إلّا أن منظر بيت شالاو، بدا وكأنّهُ لطخة الخريف المريعة المنفّرة، وسط لوحة الربيع الضحوكِ. بدأ الارتعاش يدبُّ في أوصالهِ، مفاصلهِ وركبتيه. يخشى مما يمكنُ أن يخفيه باب المنزل، أكثر مما أخفاهُ باب الحوش. راعهُ منظرُ البيت

وأفزعه. سلسلةٌ حديديّة سميكة وصدئة، تشدُّ درفتَي الباب إلى بعض، يتدلّى منها قفلٌ كبير. من كمَّمَ فمَ البيت بهذه الطريقة. لا يُرادُ لهُ البوحَ بما بهِ!؟ لا يودُّ القفلُ لأحدٍ اقتحام حرمة صمتِ البيت وحزنهِ، عقبَ مغادرة آخر شخص لهُ؟! أمسكَ القفلَ وحاولَ فتحهُ عنوةً. أتاهُ هاتفٌ غريبٌ بصوتٍ مألوفٍ؛ يأمرهُ بالتوقّف، وألّا يمعنَ في تجريحِ المنزل، وتقليب أحزانهِ أكثر. أيّها الغريبُ العائدُ إلى بيتكَ، عُدْ من حيث أتيت. ما عاد البيتُ بَيتكَ. ذلك القفل وسلسلة الحديد تلك، لهما في هذا البيت أكثر مما لكَ فيه. إن تماديتَ في إزعاج القفل والسلسلة، فسترى منهما، ما يزعجكَ، وربما يودي بك. فحذارِ، وقِفْ. عدْ إلى هنا، حينَ تأخذُ الأمانَ من صاحبةِ الدار.

تراجع ثلاث خطواتٍ إلى الوراء، وظهرهُ إلى زوجته وحماتهِ وسائق السيّارة. تناهى إلى سمعه صوت ثغاء الأغنام وقرقرةِ الدجاج آتياً من الزريبة. ركض نحوها. لكن، عبثاً. فجأةً، سمعَ صوت أمّه يناديه؛ «شالاو، ولدي»! التفتَ يميناً ويساراً. لم يجد شيئاً. بدأت أصوات والده، وشقيقه بَهمَن، أختهِ كجال، وصوت الفتاة الضريرة «كازيوا»، وأصوات أولغا وناتالي والطفلتين، وصوته وهو طفل، تعصف به، وتناديه! سقط على الأرض مغشيّاً عليه. سحبهُ سائق السيّارة إلى الخارج. حاول إيقاظه ورشَّ الماء على وجهه. تجمهرَ حولهُ القرويون، وحزنوا لحال هذا الغريب المغمى عليه أمام منزل الشيخ حمه عبدالمقصود الكسنزاني. صاروا يتساءلون عن هذا الشخص الذي لا يرتدي الملابس الكرديّة الشعبيّة، ويرتدي زيّ الأفنديّة! أجابهم السائق: إنه شالاو ابن إمام الجامع الشيخ حمه

عبدالمقصود. كان مع الملا مصطفى بارزاني، يقاتل الأعداء ويريد تحرير كردستان. سافر معه إلى روسيا، ورجع مع الزعيم بارزاني إلى العراق. وعاد إلى بيته وأسرته.

تعرّف عليه بعض القرويين. قال أحدهم: رحمة اللّه على والده. كان شيخاً جليلاً.

- مات؟! لا حول ولا قوّة إلّا باللّه. وأين أمّه وإخوتهُ؟! تساءل السائق، متأسّفاً حزيناً.

- نعم. منذ ما يزيد عن عشر سنوات. مات حزناً وكمداً على اختفاء ابنه. يمكنكم سؤال أمّه عن التفاصيل.

- وأين هي؟!

- هجرت بيتها وتسكن غرفة صغيرة ملاصقة للجامع الذي كان زوجها إماماً له. أصيبت بالعمى، والقرويون يُحسنون إليها بالأكل والصدقات.

فتح شالاو عينيهِ كمن يودُّ الاستيقاظ من كابوس. جاب بنظراته المريبة والفزعة المحيطين به. رأى وجهَي أولغا وأمّها باكيين، اللتين لا تعرفان ما يدور من أحاديث. لكنهما تدركان أن أموراً شديدة الحزن والألم حدثت. سأل عن السبب. ماذا جرى معه؟ لماذا هو ممدد على الأرض؟! أخبره السائق بما جرى. وأن المتبقي من عائلتهِ هي أمّه التي تسكن غرفة صغيرة ملاصقة للمسجد. حال سماعهِ ذلك، دبّت الروح والطاقة فيه، ونهض من دون نفضِ الغبار عن نفسهِ. سار نحو تلك الغرفة، من غير الاستعانة بأحد، كمن يعرف الطريق تماماً. سارَ بخطى وئيدة وحزينة، كأنّه ذلك الطفل الممسك بيد الفتاة العمياء «كازيوا» وهي تُسمِعهُ من مرارةِ وشجنِ صوتِها بدائعَ

الألم والحزن. يمشي وصوتها في أذنَيهِ، يُرشدهُ إلى مكان غرفتها. توقّف قبالة باب الغرفة، وإذا بعجوزٍ كفيفةٍ تغنّي أيضاً بصوتٍ مجروحٍ وأليم. غطّى صوتُ غنائها على صوت غناء كازيوا في داخلهِ. اقترب بحذر، اقترابَ المشتاقِ المنكسر. كَمَن يريدُ عناقَ عزيزٍ، وقدمهُ دهست لغماً. أيّةُ حركةٍ، ستودي به. جثا على ركبتيهِ، ممسكاً بيديها الممسكتين بالمسبحة. رفع يديها إلى فمهِ وقبّلهما بحرارةٍ وفاضَ الدمعُ غزيراً، كالمحرومِ من البكاء منذُ ألفِ عام. لم تَخَفِ العجوزُ ولم تفزع مما جرى. صارت تتحسس بكفّيها وجهَ الغريب ورأسهُ، لعلّها تعرفهُ. وقالت:

- لا تبكِ يا بني. أطال اللّه في عمرك، وأبقاكَ لأهلكَ وأحبابكَ. لا تبكِ. لي ولد، غاب عنّي. وسيعود ذات يوم. لو كان هنا، لكان في عمركَ.

زادَ كلامها من مرارةِ بكائهِ، ومن نحيبهِ وعويلهِ حدّةً وألماً. بصوتٍ راعش مترعٍ بالدمع والأسى والحزن والحداد، كأنّه أصواتُ شعبٍ منكوبٍ في مدينةٍ منكوبةٍ، قال:

- أنا هو، يا أمّي. أنا شالاو، ابنكِ. ها قد عدت، بعد فوات الأوان. عُدتُ، ويا ليتني لم أعدْ.

انفجرت عيناها الغائرتان خلف غلالة من البياض بالدمع. وشدّتهُ إلى صدرها كما كانت تشدّهُ، وهو طفل. بعد أن هدأت عواصفُ البكاء، وسط جمهرة القرويين الذين بكوا أيضاً، حضر المختار، ودعا شالاو وأسرته وأمّه وسائق السيّارة إلى المبيت في دارهِ، ريثما تقوم النسوة بتنظيف بيتهم وترتيبه. فعل المختار ذلك، نظراً للعلاقة القويّة التي ربطته بالشيخ حمه عبدالمقصود الكسنزاني.

في منزل المختار، سردت أمّهُ الحكايةَ، منذُ لحظةِ اختفائهِ. ذكرت أن والدهُ، لم يحتمل الحزن والألم، بعد فُقدانهِ الأملَ في عودتهِ. فَقَدَ الأملَ في الحياة أيضاً. مات كمداً وقهراً وحزناً.

- كان يخرج إلى الخلوة في البراري ويناجي اللّه ورسوله والأولياء والصالحين وشيوخه النقشبنديّة والقادريّة، كي ينجدوه في العثور عليك. في كل مرّة، يعود بكيسٍ فيه عظام بشريّة، ويقول لي: «أكلتْهُ وحوش البراري. وهذا ما تبقّى منه». يدفن العظام على أنها عظامكَ. فعل ذلك نحو سبع مرّات. سبع مرّات عثر على عظام، وجمعها في أكياس، ودفنها على أنها عظامك. ثم فقد الأمل نهائيّاً. قبل نحو عشر سنوات، خرج إلى صلاة الفجر في المسجد، وعاد جثّةً هامدة إلى بيتهِ، ودفن إلى جوار عظام الأشخاص السبعة التي دفنها على أنها عظامك، يا ولدي.

شقيقهُ بهمن، لدغتهُ أفعى سامّة أثناء الرعي، ومات. أختهُ كجال، تزوّجت من كردي إيراني، وسافرت إلى «كرمانشاه» ولم تعد. شقيقاه حسن وحسين، انقطعت علاقتهما بوالدهما. وقيل إنهما هجرا النقشبنديّة، وعادا إلى الطريقة القادريّة. وقيل أيضاً إنهما دخلا المذهب الشيعي، وسافرا إلى النجف. انقطعت أخبارهما نهائيّاً. لم يبق في البيت سوى أمّه التي أصيبت بمرضٍ في عينيها، أفقدها البصر، حزناً على ما حلّ بأسرتها. ما عادت تقوى على رعاية بيتها وتربية الأغنام، وغسل الموتى. هجرت البيت، لحين عودة شالاو. قررت العيش في غرفة «كازيوا».

سألها عن الصور التي كان يرسلها لهم من «طشقند». أخبرته بأنه

لم يصلهم أي شيء منه. لو وصلتهم تلك الصور، لتغيّرت حال والده، وربما عاش حتّى هذه اللحظة. سعيدةٌ أيّما سعادة بوجود ولدها وزوجته وطفلتيهِ إلى جوارها. أقسمت له أنها كانت واثقة من عودته إلى القرية.

في اليوم التالي، استأذن سائقُ التاكسي بالعودة إلى أهله في كركوك، رافضاً أخذ أجرته. لكن شالاو، أصرّ بشدّة أن يأخذها. تواعدا على أمل أن يلتقيا مرّة أخرى.

بعد مضي ثلاثة أيّام في بيت المختار، وانتهاء النسوة من تنظيف منزلهم، انتقلوا إليه. بيت قديم ومتهالك، غير صالح للسكن. لحسن حظّهم أن ربيع 1959 لم يكن قاسياً. فجأةً، اعتلّت صحّة الأمّ، وتدهورت بسرعة غريبة، كأنّها مريضة منذ عشرة أعوام. يبدو أن الأحزان والآلام لم تودي بها، كما أودت بوالدهِ. قلبها المنهك المتعب، المثخن بالأحزان، لم يحتمل فرحة اللقاء. على فراش الموت، همست في أذنهِ؛ بوجود صندوقٍ تحت سريرها في غرفة «كازيوا»، خبأت فيه ما ادّخرتهُ لحينِ عودتهِ. ها قد عاد ومعه زوجته وطفلتاه. قالت له:

- ارحلْ عن هذه الأرض. كنتُ واثقة من أنك حيّ، وستعود. وأشكرُ اللّه وأحمدهُ لأنه أبقاني حيّة كي أراك مجدداً، حتى لو كنتُ عمياء. أنا الآن، أراك بعينَي قلبي وروحي. انتظرتكَ كي أخبركَ؛ بأن تغادر هذه البلاد، إلى حيث تنتظركَ الحياة في مكان آخر. خذ ذلك الصندوق. كان لكازيوا، وأصبح لي، والآن هو لك. ارحلْ من هنا، وابتعد. أو عدْ من حيث أتيت. اعتنِ بنفسكَ وبأطفالكَ وزوجتكَ ودينكَ وأخلاقك. كنْ مثل الشجرة المثمرة التي تصلح

للزرع في أيّة أرض، وتحت أيّة سماء. اذهب إلى تلك الغرفة خفيةً، وأخرج الصندوق من تحت الفرشة المحشوّة بالصوف والقشّ. لا تدع أحداً يراك. الآن، يمكنني أن أموت بقلبٍ مرتاح.

* * *

طبول مثقوبة

فعلَ ما أمرت بهِ أمّهُ. اكتشف أن الصندوق الصغير المدفون تحت فراشها، يحتوي نقوداً ذهبيّة عثمانيّة، ونقوداً عراقيّة، وبعض المصوغات الذهبيّة والفضيّة. ما يعني أنها تركت له كنزاً صغيراً يعيلهُ في مستقبلهِ. بعد ذكرها وصيّتها، بقيت يومين تنازعُ سكراتِ الموت. فاضت روحها، عقب سنوات من الحزن والألم والعمى. دفنها ابنها إلى جوار والدهِ في مقبرة القرية.

وعدَ أولغا بمغادرة القرية فورَ عثورهِ على بيت للإيجار في أربيل. لأن العيش في ذلك المنزل المتهالك، وفي تلك القرية النائية، لا يُطاق. عقب عثورهِ على منزلٍ مناسب بالقرب من قلعة أربيل، غادرَ «حاجي عمران» في نهاية شهر أيّار 1959. أوصد باب المنزل بنفس السلسلة الحديدة وذلك القفل الكبير. مغادرتهُ المنزل لم تكن بتلك المرارة والحرقة والأسى، حين عاد إليه. أولغا وأمّها سعيدتان، ليس بسبب مغادرتهم تلك الظروف الصعبة في القرية وحسب، بل لأن المكان يحمل ذكريات أليمة جدّاً، ومغادرتهُ، بمثابة تضميد جراحٍ نازفة. بينما بقاؤهم هناك، نكأٌ دائمٌ لها.

عادت علاقات شالاو برفاقه الحزبيين مجدداً. خيّمت أجواء الأمل والسلام على الخطابات السياسيّة. احتفلَ مع عائلتهِ الصغيرة

بدخول سنة 1960 في أربيل. بعد مضي أشهرٍ، صار يسمعُ لهجةً جديدة في الاجتماعات، تنمّ عن احتمال العودة إلى حمل السلاح، إذا لم تفِ الحكومة العراقية بوعودِها والتزاماتها تجاه الكرد وحقوقهم العادلة.

اشترى دكّاناً كبيراً وقرر أن يحوّله إلى ورشة نجارة، يصنع فيها الأبواب والنوافذ والخزائن والمناضد والكراسي لأهالي أربيل. كما فعل لأهل «طشقند». باشر العمل في أكتوبر من نفس العام. بدأت عجلة العمل تتحرّك. في نهاية 1960 رجع الزعيم بارزاني من بغداد إلى كردستان. هذا غير مُطمئن، ونذير شؤم. الحرب باتت قريبة، ورُبَّما وشيكة. عادَ التراشقُ بالاتهامات بين القيادة الكرديّة والحكومة العراقيّة. صار كل طرف يحشد للآخر التهم والأسباب والمبررات التي تشرعن لجوءه إلى العنف. جريدة «خبات (الكفاح)» التابعة للحزب الديمقراطي الكردستاني تهاجم عبدالكريم قاسم على مماطلته في تنفيذ الوعود الواردة في الدستور المؤقت، في ما يتعلّق بحقوق ومطالب الكرد. وتطالب برفع حالة الطوارئ والأحكام العرفيّة، وإطلاق سراح السجناء السياسيين، والكفّ عن التضييق على الحياة العامّة والحريّات والتوقّف عن ملاحقة المعارضين، وإجراء انتخابات حرّة. ردّ قاسم بإغلاق مكاتب الحزب الديمقراطي في بغداد والمحافظات. حظر جريدته الرسميّة. أمر بملاحقة واعتقال كوادره وعناصره وقياداته. هكذا، العنفُ في الخطاب، جرّ أصحابهُ إلى العنف في الأفعال أيضاً. بدأ الحزبُ يطالب المحاربين القدامى، وحملةَ السلاح السابقين، بالعودة إلى حملهِ مجدداً، لمقارعة العدو، وتحرير كردستان، والذود عن حياضها، وحماية الشعب والدفاع عن

قضيّته وحقوقه. وإن أي تقاعس عن فعل ذلك، هو خيانةٌ للقيم والمبادئ والنضال ودماء الشهداء، وخدمةٌ مجّانيّةٌ للعدو. . . إلى آخر ذلك الكلام الذي سمعه شالاو قبل خمس عشرة سنة!

تملّكتهُ مشاعر مضطربة. مزيجٌ من الخوف والقلق والجبن والحيرة والندم على العودة إلى كردستان. ها هو على مقربة من تورّطٍ جديد، مثلما تورّط أوّل مرّة، ولحق بمقاتلي الزعيم وغادر قريته إلى «مهاباد» سنة 1946، فخسر والده وكل أسرتهِ. عاد ليرى النكبة التي ألحقها بنفسه وأمّهِ ووالدهِ، جرّاء قراره الطائش، غير المحسوب العواقب. تورّطه الحالي، أنه جاءَ بزوجتهِ وحماتهِ وطفلتيهِ إلى هذه المنطقة القلقة المضطربة، الأشبه بحقول ألغام موقوتة. سابقاً كان شابّاً مراهقاً راعياً ريفيّاً، مدجَّجاً بالحماس، سريعَ الانفعال والاشتعال بالخطابات الثوريّة، من دون أن يفهم ما هي الثورة؟ لكنه الآن، أبٌ لطفلتين، وصاحب مهنة وورشة نجارة، وليس بذلك الحماس الشبابي الذي يدفعهُ إلى خوض المخاطر وركوب الأهوال وعدم حساب العواقب.

الأخطار المحدقة التي تتهدد المنطقة أشعرته بحقيقة ومعاناة وألم ومسؤوليّة أن يكون أباً. صار يفهمُ حزنَ وألمَ والديهِ. يندبُ ويعاتب نفسه بالقول: «على المقاتل أو المناضل ألّا يصبح أباً. لأن الأبوّة والخوف على الأطفال، تضعان المرءَ في منطقة التردد والجبن». تأكّدَ أن المنطقة مقبلة على حربٍ وشيكة. وأن الزعيم الجنرال ملا مصطفى بارزاني، غير متحمّس لها والدخول في مواجهة عسكريّة مع بغداد. لكن الجناح اليساري في الحزب يدفعُ باتجاه المواجهة، معوّلاً على الدعم السوفياتي، وأن الحزب يجب أن يكون حزباً

يساريّاً ثوريّاً، ملتزماً بالماركسيّة. بينما بارزاني، بفطرتِهِ وتجربتهِ العمليّة، يعي ويدرك أن المجتمع الكردي القبلي والريفي، لا تنفعُ معهُ الماركسيّة. الكرد خبروا الاتحاد السوفياتي في تجربة جمهورية «مهاباد» سنة 1946. هو نفسه خبر الروس والحزب الشيوعي السوفياتي طوال فترة بقائه هناك. ولا مجال للمغامرة في التعويل على السوفيات مرّة أخرى. أمّا القيادات الأخرى التي ترى نفسها مثقّفة، وتعتبرُ القائدَ مجرّد وجهٍ قبلي وديني ورجعي أيضاً، فقد أصرّت على موقفها، والدخول في مواجهة مع بغداد. هكذا فَهِمَ شالاو سلوك وتوجّه رفاقه، وأن التيّار اليساري سيأخذ الحزب وكردستان إلى الحرب والمواجهة مع بغداد، بينما القائد؛ الرجل العسكري، وصاحب الخبرة القتاليّة، ما عاد يميل إلى المواجهة والعنف، وأنّه سيُجبرُ على خوض المعركة على مضض، رغم معرفته بأن السلاح رهانٌ خاسر. إنْ لم يفعل ذلك، فسينقسم الحزب على نفسه، لا محالة.

بوادر الخلاف في الحزب ظهرت حيال الذهاب إلى الردّ المسلّح على مماطلة عبدالكريم قاسم في تنفيذ الإصلاحات والوعود والالتزامات بخصوص القضيّة الكرديّة والمواد الدستوريّة التي تدعمها. الجناح اليساري، اعتبر موقفهُ ثوريّاً ومبدئيّاً، وموقفَ الطرف الآخر يمينيّاً قبليّاً إصلاحيّاً متراخياً ومتخلّفاً، وأنهم المثقفون التنويريون النهضويون. لكن، يناصرهم قلّة من المقاتلين البيشمركة. بينما التيّار الآخر، هم قلّة من المثقّفين، يناصرهم كثرة من البيشمركة وزعماء القبائل الذين يرجّحون رأي الزعيم بضرورة التمهُّل وعدم التسرّع في الذهاب إلى العنف والكفاح المسلّح. خاصّة أن بارزاني

أرسل من موسكو برقية تأييد ودعم لانقلاب عبدالكريم قاسم على النظام الملكي في 14/ 7/ 1958. وقام قاسم بإطلاق سراح الشيخ أحمد بارزاني من السجن. بارزاني كان يحفظ لعبدالكريم قاسم جميله. لكنه فشل في نشر قناعته ضمن الحزب، والتي تقول: عبدالكريم قاسم شخص جيّد، بينما المحيطون به، قوميّون فاشيّون، سينقضّون عليهِ في أيّة فرصة سانحة. وهذا ما حدث فعلاً، عقب انقلاب عبدالسلام عارف.

مالَ شالاو إلى رأي وموقف الزعيم، لكنه آثر الحياد، وهمّهُ وشغلهُ الشاغل؛ كيف ينقذ أسرته الصغيرة من أتون حربٍ مدمّرةٍ وشيكة!

وسط تلك المعمعة الحزبيّة والأخطار المحدقة، قرر نقل أسرته إلى مكان بعيد وآمن، ريثما يلتحق بها، ثم يعودوا معاً إلى «طشقند». هذه المرّة، رجَّحَ كفّةَ حمايةِ أسرتهِ على كفّةِ الإذعان للشعارات والاتهامات بالخيانة والجبن والانهزام، بخلاف مشاعرهِ السابقة التي دفعتهُ إلى ترك «طشقند» واللحاق بالرفاق. في شهر تموز سافر إلى دمشق، واستأجر منزلاً في حي «ركن الدين» الذي تسكنه غالبية كرديّة. عاد إلى أربيل على جناح السرعة وتحت جنحِ السرّيّة، كي ينقل عائلتهُ إلى هناك. في آب 1961، باع ورشته بنصف ثمنها، وانتقل إلى دمشق. أحبّت زوجته المدينة الجديدة. عدلت عن رغبتها في العودة إلى «طشقند».

بدأ يبحث عن منزل واسع يشتريه. في مطلع 1962 عثرَ على بيت دمشقي قديم ورخيص. لم يكترث للأقاويل والشائعات المثارة حولهُ على أنه مسكون بالجنّ. كان ذلك أحد أسباب رخصِ ثمنِ البيت

وعدمِ اقترابِ أحد من شرائهِ. لا ينقصهُ شيء. بحاجة إلى ترميم وتصليحات بسيطة فقط.

نجحَ الجناح اليساري في جرّ الحزب وزعيمه إلى صفّهم. وبدأت المعارك. في أيلول 1961 أعلن الكرد الإضراب العام في كردستان، وردّت حكومة عبدالكريم قاسم بتسليح بعض العشائر الكردية المناوئة للبارزاني، ثم قصفت الطائرات العراقية الكرد في 11 أيلول. تلاهُ الاجتياح العسكري لكردستان. ما لبثت القوّات الكرديّة أن استعادت زمام المبادرة، وسيطرت على المناطق التي استولى عليها الجيش العراقي. ما إن اطمأن شالاو على وضع عائلته في دمشق، عاد إلى كردستان عبر المناطق الكرديّة السوريّة، لحمل السلاح مع رفاقهِ القدامى. تفاجأ بأن ظروف الحرب، لم تساهم في تبديد الخلافات الداخليّة في الحزب. استشفَّ خطورة احتمال أن يصوّب الكرديُّ فوّهة بندقيّتهِ إلى صدرِ شقيقهِ الكردي، بعد أن كانا رفاق سلاحٍ واحد، ورفاق دربٍ واحد. اتخذ قرارهُ بالابتعاد النهائي عن السياسة الكرديّة وتجنيب نفسه التورّط في أيّ اقتتال داخلي كردي - كردي محتمل، تلوح بوادرهُ في الأفق. اختفى شالاو مرّة أخرى. اعتبرهُ بعض رفاقهِ شهيداً. آخرون اعتبروهُ أسيراً، لأنه لم يشارك في المعارك. لكن الحزب سجّل اسمهُ ضمن المفقودين. هكذا، بقي شالاو اثنتي عشرة سنة مفقوداً لدى أسرته. وسيقضي بقية عمرهِ مُدرجاً على لوائح المفقودين التي أصدرها حزبهُ.

انقلبَ البعثيون والناصريون على عبدالكريم قاسم، وأعدموهُ. ومثلما رحّب بارزاني بالانقلاب على النظام الملكي، كذلك رحّب

الحزب بالانقلاب على قاسم. ترحيب بارزاني كان على مضض. لم يكن سعيداً بما يجري، ولم يستطع مواجهة التيّار اليساري المتنفّذ في الحزب. إيران لم تكن تريد الخير للعراق. تريدهُ دائماً خراباً ساحة صراعات وحروبِ داخليّة، وملطّخاً بدماء أبنائه. لم يرقْ لطهران التسوية بين نظام عبدالكريم قاسم ومصطفى بارزاني الذي كان محكوماً بالإعدام غيابيّاً في إيران. بدا أن طهران تغلغلت أيضاً ضمن صفوف الحزب، ونجحت في استمالة بعض الذين دفعوا بارزاني دفعاً إلى الدخول في مواجهة مع بغداد. الصدامات بين الجيش العراقي وقوات بارزاني في سنوات 1961 ولغاية 1964 والهجوم على منطقة بارزان، وتجاهل قيادات المكتب السياسي ذلك الهجوم على زعيم الحزب، وعدم محاولتهم التخفيف من الضغط العسكري على تلك المناطق، عبر مهاجمة الجيش العراقي من محاور أخرى، كل ذلك، أكّد لشالاو أن هناك رهاناً على هزيمة بارزاني من قبل رفاق السلاح أنفسهم.

أبعد نفسهُ عن ساحة الاحترابِ والتطاحنِ الداخلي بين رفاق الأمس، والإخوة الأعداء اليوم. نأى بنفسهِ عن التورّطِ في الدمِ الكردي المسفوكِ بأيدي الكرد أنفسهم. إلّا أنه يتابعُ من بعيد، ويتسقّط بمنتهى المرارة والحرقة والخيبة أخبارَ ما جرى في كردستان. دائماً كانت تقفز إلى ذاكرتهِ حادثةُ العراكِ الذي دار على متن سفينة «غروزيا» في عرض البحر. فيقول لنفسه: الكرد تقاتلوا على متن سفينة الأغرابِ في عرضِ البحر، وهم ليسوا سلطة، فكيف ستكون حالهم، إذا كانت لديهم دولة!؟

الأحداث التي توالت من 1963 ولغاية 1967، ودخول مجموعة من الرفاق في حلف مع بغداد وحمل سلاح العدو الذي كانوا

يقاتلونهُ، والعمل مع جيشهِ كمرتزقة، ضدّ رفاقهم الآخرين، ودخول الزعيم بارزاني في حلف مع أعدائه الإيرانيين، ضد كرد إيران، كل ذلك أكّد له صواب خيارهِ في الابتعاد عن تلك المستنقعات والصفحات السوداء لغدرِ الرفاق بالرفاق، وهدر دماء وكرامة بعضهم البعض. صار يسألُ نفسهُ عن سبب ذلك؛ وهل السياسة والمصالح الشخصيّة وعقدة السلطة والزعامات، هي التي تقف وراء هذا الحضيض والانحطاط؟ كيف أن هؤلاء الذين يقاتلون بعضهم بعضاً، كانوا قبل سنوات، يقاتلون جنباً إلىَ جنب، ضدّ عدوّ واحد، وفي سبيل تحقيق هدف واحد مشترك؟! بقي الهدف هو هو، يردده كل طرف ويبرر بهِ قتالهُ الطرفَ الآخر على أنهم العدو والخونة والواجبُ قتالهم واستئصال شأفتهم!

تملّكته حالة من الخزي والعار والخيبة والخذلان، سممت عليهِ حياتهُ وعلاقتهُ بزوجتهِ، وأدخلتهُ عدّة مرّات في أزمات وحالات اكتئاب شديدة. ما إن يخرج مِن أزمةٍ، حتّى تدخلهُ مشاكل الكرد في أزمة أخرى. لم يخض المعركة مع أي طرف ضد الطرف الآخر. أصلاً سقط من ذاكرة جميع رفاقهِ، بعد اعتبارهِ في عِداد المفقودين. يعيشُ معركةَ العجزِ والخيبةِ وانعدامِ القدرةِ عن فعلِ أيّ شيءٍ يمكن أن يخففَ الكوارثَ اللاحقةَ بالكرد بأيدي الكرد أنفسهم. كان على وشكِ الخروجِ من أزمة الحرب الداخليّة التي بدأت بوادرها مطلع الستينات واستمرّت حتّى نهايتها، فداهمتهُ هزيمة 1975 وإعلان ملا مصطفى بارزاني انهيار الثورة، عقب توقيع طهران وبغداد على اتفاقيّة الجزائر. وما إن بدأ يلتمس طريقه للخروج من تلك الأزمة أيضاً، أتى خبر موت مصطفى بارزاني سنة 1979، ليعيدهُ إلى دوّامة الحزن

والأسى والاكتئاب وانهيار كل شيء كان يعتبرهُ حلماً جميلاً، سعى مع الكثيرين نحو تحقيقه، في يومٍ ما.

لم يعرف أن ذلك سيكون آخر خريف له في دمشق. آخر خريفٍ من عمرهِ الذي دخلَ خريفهُ باكراً. حتّى لو عَرفَ ذلك، فالأمرُ لديه سيّان. بينما كان يمشي على غير هدى، في شارع بغداد وحي الأزبكيّة الدمشقي، شاردَ الذهنِ والخطوات، سقطت ورقة شالاو حمه عبدالمقصود الكسنزاني القادري من شجرة الحياة نهائيّاً. قُتل ضمن الذين سقطوا ضحايا التفجير الذي استهدف المكان، نهار يوم 29 تشرين الثاني سنة 1981، وحصد أرواح نحو 200 شخص. لم يحقق حلمهُ في مواجهة العدو في «مهاباد»، كي يصرعهُ ويخلّص الكرد والبشريّة منهُ. لم يمتْ طوالَ رحلةِ السيرِ على الأقدام من «مهاباد» إلى «طشقند»، بين الجبال الوعرة والوديان السحيقة، في مواجهةِ توحّشِ البرد، ومَكرِ الثلوج وجنونِ الأمطار، وتحت قصفِ الطيران الإيراني. حاولَ الابتعاد عن الحرب؛ حرب أهلهِ على أهلهِ، وحربِ رفاقه على رفاقهِ، فأصبح ضحيّة حربٍ أهليّة أخرى، لم تكن له أيّة علاقة بها، سوى أن وجودهُ كانَ حدثاً عارضاً؛ صادفَ لحظةً عبثيّةً دمويّةً عمياء من صراع دموي أعمى بين نظام حافظ الأسد وجماعة الإخوان المسلمين، أطاحت بأحلام وحيوات 200 شخص لا علاقة لهم بالصراع الأسدي الإخواني على السلطة. دائماً في الحرب والصراعات على السلطة، أغلبُ الضحايا، همُ العُشبُ الذي تستحقهُ أقدامُ الفيلة المتصارعة على السلطة.

ألقى نظام الأسد بالتهمة على جماعة الإخوان المسلمين، والجماعة نفتها، ونددت بالتفجير. ضاعت الحقيقة وسط ذلك

التراشق. سواءٌ أكان النظام دبّر الجريمة ونفّذها، أو جماعة الإخوان، النتيجة تشير إلى أن 200 روح أزهقت، منها روح شالاو الكردي العراقي الغريب الذي كان وجوده، كوجودِ الضحايا الآخرين، محضَ صدفةٍ عارضةٍ عمياء، تزامنت مع مرور مجزرة عمياء ومتوحّشة في تلك المنطقة. الصُّدفُ العمياءُ، متوحّشةً، كزوبعةٍ هوجاء مجنونة، وليدة حروبٍ غادرة، تهرسُ حيوات كل ما يصادفها.

في السنتين الأخيرتين قبل مقتله، ارتدّ إلى الصلاة والتديّن وقراءة القرآن، كنوع من الملاذ الروحي الذي ربّما يخلق لديه الطمأنينة والسلام الداخلي. أوصى زوجته وأولاده: بألّا تُنقلَ جثّتهُ إلى «حاجي عمران»، إذا فارق الحياة. طلب بدفنها في مقبرة الشيخ خالد النقشبندي في دمشق. ذلك المتصوّف الذي أحدث انعطافة لدى أجدادهِ وأخرجهم من الطريقة القادريّة وأدخلهم الطريقة النقشبنديّة. وري الثرى في تلك المقبرة.

* * *



كتالوغ ناقص

الأكثرُ متابعةً لسيرِ عملهِ، حتّى أكثر من زوجتهِ، هي أمّهُ الثمانينيّة؛ أولغا، المتلّهفة إلى افتتاح معرضه المرتقب، دوناً عن كل معارضه السابقة، لأنه مُهدى إلى روح والدها؛ الشاعر الروسي يوري روبينسكي. ستُعرَضُ فيه اثنتا عشرة جداريّة (1,5 × 2 م) زيت على قماش، أنجزَ منها هوزان حتّى الآن إحدى عشرة لوحة. والثانية عشرة، ينبغي أن ينفض يديه منها قريباً، حتّى يلتقط لها صورة توضع إلى جانب صور اللوحات الأخرى في كتالوغ المعرض الذي يضمّ أيضاً نبذة عنهُ، وصورة ونبذة عن جدّهِ؛ وقصائده الاثنتي عشرة، باللغة الروسيّة والترجمة العربيّة والكرديّة لتلك القصائد. اللوحات مستوحاة من تلك القصائد. عَنونَ كلَّ لوحةٍ بعنوان قصيدتها: «أخضرُ الجحيم»، «الأزرقُ اللعين»، «الأبيضُ الذليل»، «الأحمرُ الميّت»، «البرتقالي الحكيم»، «الأصفرُ الكتوم»، «الأسودُ الجبان»، «الأرجواني الذبيح»، «الرمادي العصيب»، «البنفسجي المغدور»، «النيللي البتول»، و«القرمزي التائه». كذلك يحتوي الكتالوغ على رسائلَ متبادلةَ بين روبينسكي وليو تروتسكي، والشاعر الروسي مايكوفسكي المنتحر. ما يعني أنه كتاب تعريفي بجدّ صاحب المعرض، أكثر من كونهِ كتالوغاً خاصاً بمعرض تشكيلي.

على وشكِ الانتهاءِ من اللوحةِ الثانية عشرة والأخيرة؛ «الأحمر الميّت». حالةٌ من الطمأنينة والرضا مسيطرةٌ عليهِ، لأنه سيحيي جدّهُ شاعراً وملهماً له، ويقدّمهُ كأحد ضحايا الحقبة الستالينيّة في روسيا السوفياتيّة. سيحييهِ بعد مضي 78 سنة على مقتلهِ في جزيرة «نازينو»، أو جزيرة «آكلي لحوم البشر». اتخذَ هوزان اسم الجزيرة عنواناً رئيساً للمعرض المزمع افتتاحه يوم 25 تشرين الأول 2011 في صالة الأتاسي للفنون التشكيليّة بدمشق. اختيارهُ هذا التاريخ لم يكن صدفة. فيه تعمّد على أنه تاريخ اندلاع ثورة تشرين الأول في روسيا سنة 1917. رغم عدم اهتمامهِ بالسياسة وابتعادهِ عنها نهائيّاً، التزاماً بوصيّة والدهِ، إلّا أنه أرادَ كشف أحد الوجوه القبيحة والمظلمة لتلك الثورة التي انطوت على شعارات رومانسيّة وأهداف حالمة، ألهبت قلوب وعقول وخيال الكثير من الناس العامّة والأدباء والفلاسفة والفنانين، لكنّها أضافت إلى تاريخ البشريّة المزيد من الكوارث والفظائع والمجازر البشعة والمريعة وعشراتِ الملايين من الضحايا.

العجوز أولغا مسرورة جدّاً. تشعرُ بالامتنان لولدها، وأن أرواح والديها، وزوجها شالاو، تخيّم على دمشق التي تشقّها صيحات المتظاهرين المدنيين السلميين في ثورة أخرى على نظام استبدادي آخر. تلك الصيحات التي كان يواجهها النظام برشقات الرصاص الحيّ، لم تكن تصل إلى مسامع هوزان وأمّه، كأنَّهما كائنان حياديّان تماماً. لا يسترعي اهتمامهما مَن يحكمُ البلاد، وبأيّة طريقة يحكمها! ما يشغل بالهُ، معرضهُ الذي بقي على موعد افتتاحه نحو شهرين. لكن، هناك إحساس يشبه القلق يساورهُ، دون أن يجد مبرراً أو تفسيراً له، حتّى يجد لنفسهِ مخرجاً أو مهرباً منه.

كل شيء مرَّ عاديّاً في ليلةٍ الخميس 22 آب 2011. عشاء عائلتي مع الجدّة أولغا. هوزان وزوجته سارا، والأولاد؛ آزاد، ولات، وزوزان، وبعض الأحاديث والدردشات العادية حول الأحداث التي تشهدها البلاد التي لم يولِها الأب أيّ اهتمام غير عادي.

البِكر آزاد، في العشرين من عمرهِ؛ طالب في كليّة الآداب، قسم اللغة الإنكليزيّة بجامعة دمشق. زوزان؛ في الثامنة عشرة، وطالبة ثانويّة عامّة. آخر العنقود ولات؛ في السادسة عشرة، طالب أوّل ثانوي. صحيحٌ أن لغتّهم الأمّ هي العربيّة، لكنهم أخذوا الكرديّة من أبيهم. والقليل من الروسيّة، أخذوها من جدّتهم. فخورون بهويّتهم المركّبة؛ الكرديّة، العربيّة، السوريّة، والروسيّة!

ذهب هوزان إلى مرسمهِ وبدأ بالرسم لساعتين، مع الاستماع لموسيقى كلاسيكيّة هادئة. صعدت إليه سارا. دردشت معه قليلاً، وداعبته وألمحت بأنها تريدهُ وتشتهيه الليلة. انقاد إليها إلى غرفة النوم، انقيادَ الطريدة للفخّ. حصلت منه على جولتي حبّ، رغم بلوغه السادسة والأربعين. تَعرفُ بأن لديه علاقات نسائيّة، من دون معرفة مَن هنَّ. تحبّه، وتتحاشى إثارة الأمر، ليس لأنها مقتنعة بذلك السلوك، بل ترفضه أيضاً، ككل النساء في العالم. لكنها متيقّنة أنهُ يُحبُّها، وتتفادى حدوثَ مشاكل بينهما. هو أيضاً، متيقّن مِن أنهُ لو طافَ العالم كلّهُ، لن يجدَ امرأةً تُحبّهُ وتصبر عليهِ، وتُؤازرهُ في فنّهِ، بمقدارِ ما تحبّه سارا.

تعرّفت عليه أثناء الدراسة الجامعيّة في كليّة الفنون الجميلة بدمشق. كانت تدرس في نفس الكليّة، قسم النحت. بينما هو؛ طالب في قسم التصوير. للوهلة الأولى، اعتبرته مغروراً، سمجاً، بل

طاووساً مختالاً بنفسه، رغم عدم امتلاكهِ تلك المقاييس المثاليّة في جمال الرجل. مواصفاته عاديّة، ومعتدلة في كل شيء؛ الطول، ملامح الوجه، نبرة الصوت. ما مِن شيءٍ مثيرٍ ولافت. لكنه يمتلك موهبتين عاليتي الجودّة والاحتراف؛ الرسم، وسحرٌ غريبٌ جاذب للفتيات، لا يمكنها تفسيرهُ. ربما كان ذلك السِّحر في تلقائيّته وروحهِ المرحة وارتجالاتهِ التي تضيف إلى تكوينه الجسدي جرعة من الفتنة، تسدّ النقص الموجود في نسب الجمال. التقت به، أوّل مرّة، أثناء تحضيره مشروعَ التخرّج. تواصلت معه، واكتشفت أنها كانت مخطئة في حقّهِ. تبدد انطباع الغرور الذي كوّنتهُ عنهُ. الانطباعات الأولى، ليست دائماً صحيحة وفي محلّها. استمرّت علاقتهما فترة لا بأس بها. تزوّجا عن حبٍّ كبير، مطلع التسعينات، رغم رفض أهلها، كونها من طائفة الموحّدين الدروز، وهو كردي، وسنّي وأيضاً.

واصل هوزان الدراسات العليا، لحين حصوله على الدكتوراه. لم يمارس التدريس، لأنه ليس مع منطق الأستذة في الفنون والآداب، بل مع فكرة أن الأولويّة للموهبّة، وأن الشخص الموهوب أستاذُ نفسه. يرددُ دائماً بيتَ شعرٍ للشاعر الكردي المتصوّف؛ ملا الجزري، يقول فيه، بما معناه: «ماذا في وسعِ حكمة الأستاذ فعله، مع انعدام قابليّة التطوّر لدى التلميذ؟!».

هجرت سارا فنّها واختصاصها. انهمكت بإنجاب الأطفال وتربيتهم. ابتعدت عن النحت في الحجر والخشب والطين، وصارت تنحت في الحياة. بعد مضي عشر سنوات، عادت إلى النحت. شاركت في عدّة معارض جماعيّة. افتتحت معارض فرديّة. شهرة هوزان تجاوزت دمشق وسوريا إلى لبنان ومصر ودول الخليج وفرنسا

وأمريكا ودول أوروبيّة. أيُّ نجاحٍ يحققه زوجها تعتبرهُ نجاحاً لها. كذلك هوزان، واثقٌ من أن شهرتَهُ ونجاحاتهُ لم يكن لها أن تكون لولا دعم ومساندة زوجته له. طوال عقدين من الزواج، العلاقة بينهما مثاليّة، لا مجال للمشاكل والخلافات فيها. المشكلة الوحيدة في حياتهما، هي عدم وجود مشاكل. المشاكل ملح الحياة. حلُّها، يضفي على الحياة المزيد من الحلاوة.

علاقتهُ مع شقيقيهِ شاهوز وباران، وشقيقته مريم وناتالي، أيضاً ممتازة. من عوائد معارضهِ وبيع لوحاتهِ، اشترى حصصهم في البيت. وساعدهم في حياتهم وأعمالهم. قطع وعداً على نفسه؛ أنه حالَ انتهائهِ من المعرض المخصص لجدّه الأوكراني، سيتّجه إلى التحضير لمعرضٍ آخر، مستوحى من تجربة والده. لم يكن يعرف أن الأقدار تخبئ له مفاجأة غريبة ستهددُ مشاريعهُ وأحلامهُ، وتقلبُ حياتهُ الهادئةَ رأساً على عقب.

غطَّ في نومٍ عميق وتأخّر في الاستيقاظ، بخلاف عادتهِ. تركتهُ سارا على راحته، ظنّاً منها أنه ربما تعب ليلة أمس أثناء ممارسة الحبّ. في حدود الحادية عشرة، فتحَ عينيه للحظة. لاحظ أن الغرفة غارقة في ظلامٍ دامسٍ حالك، مصحوبٍ بهدوءٍ مطبق، وأن النومَ ما زال يريدهُ وهو يريدُ النومَ. مأخوذاً بالرغبة في مواصلةِ الاسترخاء والمزيد من الراحة. عاد إلى نومهِ راضخاً مُستسلماً. أحالتهُ العتمةُ الحالكةُ إلى فكرة أن الليل ما يزال مخيّماً، والكهرباء رُبَّما انقطعت. بعد مضي ساعة، استيقظ على رائحة القهوة تملأ الغرفة. فتحَ عينيه وإذا بهما تفيضان ظلاماً وعتمةً كثيفةً ومرعبة. نهضَ فزعاً مذعوراً كمَن لدغهُ عقرب. فركَ عينيهِ وحملق في ما حولهُ. لا يجد شيئاً

سوى العتمة تغزوهُ وتحاصرهُ من كلّ الجهات، وتشدد خِناقها عليه. صرخَ منادياً سارا، من هول الصدمة، لكأنَّها بعيدةٌ عنه. وهي الموجودة في الغرفة، تحمل فنجان القهوة إليه، ومرتاحةٌ وسعيدةٌ بما جرى بينهما ليلة أمس، وتُهيئ نفسها لتقول له: «صباح الخير». لكن، أفزعها صراخهُ، وكتمَ عليها أنفاسها. وضعتِ الطبق الذي عليه كوبي القهوة والماء على الكومودينة، واتجهت إليهِ. هرعت أمّه العجوز وابنه ولات ليحيطوا به جميعاً يسألونه عمّا به. أجابهم: «لا أرى شيئاً! فقدتُ القدرة على الرؤية. لا أرى شيئاً. عُميت». أمسكت سارا بيديه، محاولةً تهدئتهُ وطمأنتهُ. أحاطت وجهه بكفّيها وصارت تحدّق كالمجنونة في عينيه. شعرت بأنه لا يراها. ما عادت تعرف ماذا تفعل. قالت له: «فوراً، دعنا نتجه إلى المستشفى». على عجل، غيّرت ملابسه، وأنزلته بمعيّة ولات من الدرج إلى فناء الدار. أجلستهُ إلى جانبها وبدأت تقود السيارة. أقرب مستشفى إليهم، يبعد عنهم 7 دقائق سيراً على الأقدام، و4 دقائق بالسيّارة، هو مستشفى «أميّة» المجاور لأحد أفرع المخابرات السياسيّة، بالقرب من ساحة «الميسات». تقود السيّارة بتوتّر في الشوارع الفرعيّة. سألها: «أين الأولاد؟» أجابته: «هاي الماما وولات معنا». ردّت أمّه بلغتها العربيّة الركيكة؛ «أنا معك، حبيبي»، كذلك ردّ عليه ولات بالكرديّة، أنه موجود معه. سأل مرّة أخرى؛ «أين آزاد وزوزان؟». خيّم الصمت للحظات. أجاب ولات: «كالعادة، ذهبا للمشاركة في المظاهرات». انزعج وقال: «هؤلاء المجانين، يظنون أنهم بمظاهراتهم هذه، سيجبرون ديناصوراً على التزحزح عن مكانه. أغبياء، حمقى، وحالمون».

- دعك منهم. دعهم يحلمون. اتركهم وشأنهم. لا تقلق. لا تهتم. سيكونون بخير. قليل من الصراخ والهتافات وتفريغ شحنات الغضب، ثم سيعودون إلى بيوتهم. إنهم محض شباب غاضب، وحسب.

- كيف لا أقلق ولا أهتمّ. هل جُننتِ!؟ ألا ترين كيف يطلقون الرصاص الحيّ على المتظاهرين؟! حتّى لو نزلَ نيزك عملاق من السماء وضرب الشام، فلن يطيح بهذا الديناصور، كما أطاحت النيازك والبراكين أو الفيضانات بسلالات الديناصورات القديمة. أتريدين أن يعيدوا إليكِ أولادكِ جثثاً هامدة؟!

- لا سمح اللّه. قلتُ لكَ: لا تخشَ شيئاً. خلاص.

أقلقها كلام هوزان. خاصّة أن اليوم جمعة الذي تخرج فيه المظاهرات المنددة بنظام الأسد. اختلطت عليها الاتجاهات. انحرفت السيّارة من شارع «عبدالغني النابلسي»، باتجاه التقاطع، كي تدخل شارع «ابن طولون» المتّجه نحو ساحة «الميسات» القريبة من المستشفى. رأتهُ مغلقاً، نتيجة وجود حاجز أمني أوقف السيّارة ومنعها من المرور. لا يمكنها الانعطاف، والعودة فوراً، لأنّهم سيشكّون فيها ويظنّون أنها تهرب منهم. قالت باحترام مشوب بالرهبة والخوف لعنصر أمنيّ مدجج بالسلاح:

- حالة إسعافيّة عاجلة. نريد التوجّه إلى مستشفى «أميّة» القريب من هنا.

نظر العنصر بغرابة إلى الموجودين داخل السيّارة، دون أن يجد أي ملمح من ملامح المرضى على وجوههم. اتّجه إلى الضابط

المسؤول كي يخبرهُ بذلك. أتى الضابط بسرعة. صار يتفحّصُ الموجودين. سأل بسخرية: «حالة ولادة!». أجابت سارا بالنفي. سأل مرّة أخرى: «أزمة قلبيّة؟ حالة تسمم شديد؟ الزائدة الدوديّة»؟. ردّت أيضاً بالنفي. فضرب بيدهِ على زجاج السيارة وقال: «لكان حالة إسعافية مستعجلة شو؟! ياالله، انزلوا فوراً من السيّارة».

نزلتْ من السيّارة وقالت له بهدوءٍ مصحوب بالرجاء والتوسّل:

– صباح اليوم، استيقظ زوجي من النوم، وفقد القدرة على الرؤية تماماً. نريد أخذهُ إلى المستشفى فوراً.

– هل تظنين أنني طفل، وأن بإمكانك خداعي بهذه الكذبة الغبيّة؟! ما الذي يؤكد صحّة كلامك؟ وما الذي يضمن أنكم لا تريدون الالتحاق بمظاهرات الخونة في حي «ركن الدين»؟!

– يا حضرة الضابط، نريد سلكَ الطريق المتّجه إلى ساحة «الميسات»، ثم الانحراف نحو مستشفى «أميّة»، ولا نريد الاتجاه نحو «ركن الدين».

– ممنوع. أصلاً الطرق المؤديّة إلى مستشفى «أميّة» مغلقة بسبب وجود فرع المخابرات السياسيّة هناك. قالها الضابط، مادّاً يدهُ وحرّكها أمام وجه هوزان، ليتأكّد؛ هل يبصر أم لا؟ ساورهُ الشكّ أن هناك مشكلة ما في عينيهِ.

– طيّب، والحل؟ إلى أين نذهب؟! لا يمكننا الاتجاه نحو قسم العينيّة في مستشفى «ابن النفيس»، كونه موجود في «ركن الدين»، ولا يمكننا أن نتجه نحو مستشفى «أميّة» لأن بجواره فرع المخابرات السياسيّة!!

- شوفي، لدي صلاحيّات تخوّلني باعتقالكم جميعاً، ومصادرة السيارة، وترحيلكم إلى أحد السجون الأمنيّة، حتى يحققوا معكم والتأكد من صدق ادعاءاتكم. لكن، سأكون كريماً معكم، وأترككم في حال سبيلكم، كرمى عينَي قائدنا؛ طبيب العيون. يا الله، انقلعوا من قدّام عينيّ.

قالها، مقهقهاً وضارباً يده على السيّارة. أسرعت سارا إلى ركوب سيارتها، وهي تسمع زعيق الأغاني الصادرة من سيارات الحاجز الأمني، تمدحُ وتمجّدُ زعيمهم؛ طبيب العيون.

عادوا إلى البيت، وسط حالة من الخيبة والذعر والقلق. حاولت سارا طمأنتهم، بأن الموضوع بضع ساعات، وتنتهي المظاهرات، وتعود الأمور طبيعيّة. عليهم فقط انتظار حلول المساء، لا أكثر. «في أقصى الاحتمالات يمكننا الذهاب إلى المستشفى، صباح الغد. لا. لن ننتظر ذلك». قالتها سارا، وهي تمدد هوزان على سريره، دون أن تنزع عنه ملابسه. بقيت العائلة محيطةً به، مشدوهةً من هول المفاجأة المأساويّة التي حلّت عليهم. حالة الوجوم والذهول والحزن والصدمة مسيطرة على هوزان. عيناه مفتوحتان، ولا بصيص نور يتسرّب إليهما! فتح وإغلاق العينين لديه سيّان؛ عتمةٌ في عتمةٍ. نزلت الأمّ مجدداً إلى صحن الدار، واتصلت بآزاد وأخته على الموبايل، كي تخبرهما بما جرى لوالدهما، وطالبتهما بالعودة إلى البيت على جناح السرعة. مع حلول المساء، دخل آزاد وزوزان المنزل. اتّجها فوراً إلى غرفة والدهما. شاهدا حالة الحزن والبؤس المخيّمة عليه وعلى الأم والجدّة وولات. لم يسألهما عن مشاركتهما في المظاهرات. كان غارقاً في الشرود والتأمُّل حول أسباب ما جرى له! سألت الأمّ

عن حالة الشوارع. أجاب آزاد: «الطرق مفتوحة. أزيلت الحواجز الأمنيّة». قررت عدم التوجّه إلى المستشفى السابق، بل إلى مستشفى العيون التخصصي الكائن في تقاطع شارع «بغداد» مع شارع «الثورة». هذه المرّة، رافق آزاد والديه، وبقيت زوزان وشقيقها الصغير مع جدّتهما في البيت. لم يستغرق الوصول إلى المستشفى أكثر من عشر دقائق. فوراً، دخلوا قسم الإسعاف، وأجروا الفحوصات الأوليّة. النتائج طبيعيّة. لا تشير إلى أيّ تلف في العينين والأجزاء الداخليّة منهما؛ الشبكيّة والعصب البصري. أدخلوه غرفة خاصّة، لاستكمال باقي الفحوصات. باتت سارا ليلتها معهُ. وجدتهُ غارقاً في صمت كئيب، مغمض العينين، لكنه ليس نائماً. ممسكةً بيدهِ اليمنى، وجالسةً على كرسيٍّ بجوارهِ، كي تتبادل معه أطراف الحديث قتلاً للوقت:

- حبيبي، هل أنتَ مستيقظ؟

- لا. ولستُ بنائمٍ أيضاً. أنا الآن أعمى. أعمى وحسب. الأعمى، مستيقظٌ لا ينام، ونائمٌ لا يستيقظ.

- دعكَ من التأمّلاتِ والكلام الفلسفي، وخلِّنا نقتلُ الوقت بالكلام.

- ومَن قال لكِ إن الكلامَ يقتلُ الوقت؟! الكلامُ يبقي الوقتَ حيّاً.

- لستَ أعمى، ولن تكون. هذه حالة طارئة، وستمرّ. أنا واثقة من ذلك.

- أحياناً، أمور طارئة أو حالة طارئة، تصبحُ آبدة في حياتنا.

ليس كل طارئ بالضرورة آبداً، ولكن كلُّ آبد، كان في يومٍ ما طارئاً. ثم إن النتائج الأوليّة للفحوصات تقول: لا مشاكل في العينين، فما سبب هذا العمى؟!

- أنت قلتها؛ نتائج وفحوصات أوليّة، وليست نهائيّة. العمى، هو نتيجة مشكلة أو عطب كبيرٍ في العين، لا يمكن إصلاحه أو مداواته. وطالما لا توجد مشكلة في العين، هذا يعني لا يوجد عمى.

- أنا الآن، أعيشُ وضعاً، يحاول الأطباء البحث عن أسباب له، رُبَّما يعالجونهُ. والنتيجة، أنني عاجزٌ عن رؤيتكِ، كما كنتُ أراكِ. عاجزٌ عن رؤية أولادي، أمّي، لوحاتي، محيطي. أنا الآن، أرى الأشياء بأذنيّ كأيّ أعمى. إذن، أنا أعمى.

هذه أوّل مرّة تجدهُ سارا على هذه الحال الفظيعة من اليأس والإحباط والاستسلام. حارت في كيفيّة إعادة الأمل إليهِ. قالت: دعنا لا نستبق الأمور، ونستسلم بسرعة. أنا واثقة أنها حالة عارضة وطارئة، وسيعودُ إليكَ بصركَ. حاولْ أن تخلدَ للراحة قليلاً. غداً نرى ما يمكننا فعله. أنا مؤمنة بالعِلم وأن الأطباء سيفعلون كل ما في وسعهم.

بعد مضي ثلاثة أيّام من التحاليل والصور والفحوصات في المستشفى، أتت النتيجة النهائيّة تأكيداً على النتائج الأولى؛ لا وجود لأيّة مشكلة عضويّة في العينين، والفصّ القفوي في الدماغ، المسؤول عن البصر.

الأجهزة والتقنيّات الطبيّة الموجودة لديهم هي أحدث ما هو

موجود في سوريا. إذا أرادا المزيد من التحاليل خارج البلاد، بإمكانهم مساعدتهما في التواصل مع مراكز طبيّة مختصّة بالعيون، كمركز «فيدروف» في موسكو، ومستشفى «شتوتغارت» ومستشفى «هيلدبيرغ» الجامعي في ألمانيا، أو مستشفى «مورفيلدز» في لندن، وإرسال التقارير إليهم، كي يسافرا ويجريا فحوصات جديدة هناك. هذا ما ذكره الأطباء لهم.

سبق أن سافر إلى موسكو ولندن بغرض افتتاح معارضه وعرض لوحاته هناك. اختار هوزان وسارا السفر إليهما لإجراء الفحوصات. وضعهُ المالي الجيّد، خوّله السفر للعلاج خارج سوريا. سفارتا روسيا وبريطانيا تعرفانهِ كشخصيّة فنيّة عامّة. إجراءات الحصول على الفيزا بهدف المعالجة الطبيّة لم تستغرق وقتاً. قررا أن تكون الوجهة موسكو، ومنها إلى لندن. هذه المرة، حين تطأ قدماه موسكو ولندن، ستكونان بالنسبة له؛ عبارة عن فراغٍ أسودٍ قاتم، يتحرّك ضمنهُ. سيسمعُ ثرثرة قبطاني الطائرتين؛ بأن الطائرة حطّت في موسكو أو لندن! لكن الأمر لديه سواء، عتمةٌ في عتمة، وكل الأمكنةِ مع العمى، سواء.

إجراءات الحصول على تأشيرة السفر إلى روسيا وبريطانيا، وقطع تذاكر الطائرة من دمشق إلى موسكو، ومنها إلى لندن، والتواصل مع المركزين الطبيين التخصّصيَّين والحجز الفندقي هناك، كل ذلك، تمَّ خلال أسبوع. أثناءها، تدهورت حالة هوزان النفسية. تارةً يحاول إقناع نفسه بأنه راضٍ بما كتبته الأقدار لهُ، ويتعاملُ بهدوء ولين، وبل يحاول رفع معنويات أسرتهِ، بخاصّة أمّه وزوجتهِ. في أحيانٍ أخرى، يبدو عصبيّاً منكسراً، سريع الغضب والانفعال لأتفهِ الأمور. يرفض

بشكل قاطع أيَّ شكل من أشكال التعاطف معه. لأنه يفسّر ذلك بأنه من باب الشفقة على حالهِ. يحاول التحرّك في المنزل بمفردهِ، فيرتطم بالأشياء. كثيراً ما سكب أكواب الماء أو الشاي أو القهوة، أثناء محاولتهِ وضعها على الطاولة أو على أماكن يظنّها مناسبة أو آمنة، فتسقط وتنكسر. يطلب من زوجته أن تساعدهُ في الذهاب إلى مرسمهِ. يتشمم رائحة الألوان والتربنتين واللوحات. كثيراً ما يبكي وحده، مشفقاً على نفسهِ، وما آلت إليهِ حالهُ. هذه الخلوة، تستمرّ ساعات. ولئلا تحدث حركته في المرسم أضراراً كثيرة نتيجة ارتطامه بالأشياء، صار يعتمد على خياله وذاكرته في حساب أبعاد الأمكنة، وقياس توزُّع الأشياء في المرسم، والتحرّك بحذرٍ وهدوءٍ شديدين. مع فقدانه البصر، ازدادت حساسيّتهُ في الشمّ والسمع واللمس، إلى درجات عالية، باتت تزعجهُ. يجلسُ على الكرسي الهزّاز، كأيّ رجل مسنّ متقاعد، رغم أنه ما زال في منتصف العمر. تارةً، يندبُ حظّه وأقدارهُ. وتارةً يسأل نفسه عن السبب الذي دفع الأقدارَ إلى وضعهِ في تلك حالة. أهو عقابٌ على شيءٍ اقترفه؟! تارة ثالثة، يحاول تجاهل الندب والأسئلة، واختلاق القناعة والرضا بما كتبَهُ اللّه له.

فقدانهُ البصرَ، أظهر له، قبل غيرهِ، جوانبَ من شخصيّتهِ المركّبة والمعقّدة الواضحة - الغامضة، كانت خافية عنه. منحهُ مرضهُ مرايا داخليّة، يرى من خلالها بواطن نفسهِ. يطرحُ عليها أسئلة ذاتيّة استشكافيّة تأمّليّة، من قبيل: ألا يمكن للمرءِ معرفةَ جزء من حقيقة ذاته إلّا في المحن التي تلمُّ بهِ؟ هل عليّ الإصابة بالعمى حتّى أعرف نفسي أكثر مما كنتُ أعرفها وأنا أبصِر؟ هل الفقدانُ يمنح أشياء أخرى؟ أم هي الأقدار تأخذُ منّا ما منحتهُ إيّانا، كي تعوّضنا بأشياء

أخرى؟! إلى متى ستبقى الحياة غامضة لنا، ونحن نعيشها؟! إلى متى سنبقى غامضين أمام أنفسنا، رغم أننا نظنُّ أو نوقنُ بأنّنا واضحون وصريحون مع أنفسنا، وأكثر مَن نعرفها؟! غموض الحياة والإنسان، يتكفّلُ الفقدان في إجلاء وإيضاح جزء منهما. يا لتعاستنا حين نحزنُ لحلول الفقدان في حياتنا، رغم أنه يدفعنا إلى الارتداد نحو الذات ومراجعتها واكتشاف دفائنها، ومعرفة؛ أننا كُنّا نمتلكُ أشياءَ كثيرة هامّة وجميلة، قويّة وهشّة، لم ندركها أو نعيها أو نهتمّ بها! يا لتعاستنا؛ إذا احتفينا بالفقدان، أو باركناه أيضاً!

العمى الذي حلّ بي، حفّزَ لدي طاقة التأمّل واستحضار ما اختزنته ذاكرتي البصريّة من ألوانٍ وأشكال وصور وأشياء، كي أعيدَ النظر فيها ودلالاتها ومعانيها، ليس كما أبصرتها، بل كمَن لن يراها إلى الأبد. لكن، ليس جميلاً دائماً أن يقضي المرءُ حياتهُ في التأمّل وسط العتمة. صرتُ أحنُّ إلى الأشياء وألوانها، وهي في متناولي. ألّا ترى الشيءَ وهو موجود، كأنّه أصبحَ غير موجودٍ في حياتك أيضاً. هناك أشياء في حياتنا، لا نراها، وهي موجودة بغزارة حولنا. وهناك أشياء أخرى، نرى، رغم ندرة وشحّ وجودها حولنا. لا يكفي أن نحسَّ بالوجود بأصواته، ونتحسّسه ونلمس أشكاله، بل علينا رؤيةُ أحوالهِ أيضاً، بعين العين، وليس بعين القلب وحسب.

أحوالهُ، صارت متقلّبة وغير مفهومة. تفاقمت لديه حساسيّته من أيّ لفظٍ أو حركةٍ أو همسةٍ ربما توحي إليهِ بالعجز، وأن المحيطين به يشفقون عليهِ. صار يعطي الألفاظ فوق ما تحتمل من تأويلات وتفسيرات. أصبح صِدامياً، عنيفاً، نزقاً، عدوانيّاً. سريعُ الاضطراب والاشتعال والانفعال، على أهون الأسباب وأتفهها. كأنَّهُ كومة قشٍّ

تنتظرُ أيّة شرارةٍ. ذهبَ عنه ذلك الحُلُمُ والهدوءُ، وتلك المرونة وبرودة الأعصاب، والطاقة والقدرة على التحمّل واستيعاب المشاكل. هذه الأيّام العصيبة، فتحت أعين المحيطين به على أمورٍ وطبائع جديدة كانت خبيئة، متوارية وخفيّة في شخصيّته. صاروا يتساءلون عن أيّهما الحقيقي؛ هوزان قبل فقدان البصر، أم بعده!

كذلك سارا، بدأت الهواجس تثير لديها زوابعَ الحيرة والقلق على وضع زوجها، واحتمال بقائهِ أعمى، طوالَ عمرهِ. وخطورة تدهور حالته النفسيّة السيّئة، وتفاقمها أكثر، وانعكاس ذلك على طِباعها، ومدى قدرتها على التحمّل، وكيف أن وظيفةً أو مهمّةً أو دوراً جديداً أنيط بها؛ أن تكون ممرضة ومعالجة نفسيّة، بالإضافة إلى كونها زوجة وحبيبة لهذا الرجل الذي كان مبصراً، وصار أعمى، بين ليلةٍ وضحاها. أصبحت تفكّر جدّيّاً في أنه يمكنها استيعاب وتحمّل إصابته بالعمى وضرورة التخفيف عنه، وإعادة تأهيلهِ لحياة جديدة، لكن هل يمكنها تحمّل تصاعد التوتّر والعصبيّة لديهِ؟! من جهة أخرى، أصبحت تندب بل وتلعن نفسها؛ كيف صارت تفكّر بهذه الطريقة الأنانيّة السخيفة، وتضع قدرتها على تحمّل حالة زوجها النفسيّة المتدهورة، قيد المساءلة؟! هذا مؤشّر على أنها تفكّر في احتمال الانفصال عنه، وتركه يعاني وحدهُ ما يعانيه! هذه الطريقة في التكفير هي فضيحة وعار، حتّى ولو كان ذلك غير معلن، وبينها وبين ذاتها. حاولت طردَ تلك الهواجس والأفكار الجهنّميّة من رأسها. قطعت عهداً على نفسها بأنها ستكون مع حبيبها، حتّى آخر لحظة من حياته؛ مبصراً أو أعمى، سليماً هادئاً أو معتلاً نفسيّاً.

قبل السفر إلى موسكو بيوم، نادى هوزان زوجته، فأسرعت إليهِ

حاملةً فنجاني قهوة. دخلت عليهِ مبتسمةً كما كانت تدخلُ دائماً. نسيت أنه لا يرى ابتساماتها العذبة. وجدتهُ مبتسماً رائق المزاج. سرّها ذلك. قالت: «قبل ما تناديني، ساويت فنجان قهوة، واشتهيت أشربه معك». ردّ عليها «بنت حلال». وأضاف: «سأخبركِ بقرار مهم اتخذته الآن، اعتقد أنه سيفرحكِ ويفرحُ أمّي».

- ما هو؟ بصوتٍ ينضحُ لهفةً وترقُّباً.

- حتّى لو لم أشفَ من العمى، ولم يجد الأطباء دواءً أو طريقةً للمعالجة، سأفتتح المعرض في موعده. بإحدى عشرة ونصف لوحة. وسيكون عنوان المعرض: «اثنتا عشرة قصيدة وإحدى عشرة لوحة ونصف، بدلاً من اسم تلك الجزيرة». وما عليكِ إلّا التقاط صور للوحة غير المكتملة وإرسالها إلى مصمم الكتالوغ. سيكون المعرض في موعدِهِ حتّى لو أصبتُ بالصمم والشلل أو كنتُ في غرفة الإنعاش، أو مت أيضاً. عليكِ إخبار صاحبة الصالة بما حصل لي، ولن يتغيّر أي شيء. وحال عودتنا من موسكو ولندن، يمكن الإعلان عن موعد افتتاح المعرض في الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي.

طارتْ سارا فرحاً بهذا القرار، واعتبرتهُ عودةً سريعةً إلى الحياة، وإعلان القطيعة مع التشنّج والتوتّر والعصبيّة التي كادت تخنقها. قاطعتهُ وقالت: «بعيد الشرّ عنّك حبيبي، لا سمح اللّه. لن نحتاج للسفر إلى لندن. وسنعود من موسكو، لأن حالتك سترجع إلى سابق عهدها، وأحسن أيضاً، إن شاء اللّه. وتُكمل اللوحة الأخيرة».

كفنانة ونحّاتة، تعي وتدرك خطورة وكارثيّة وحجم الألم الفظيع الحاصل لأيّ فنان تشكيلي، يُصابُ فجأةً ولسببٍ مجهول، بالعمى.

ذلك أنه مع إصابة فنان موسيقي بالصمم، كحالة بيتهوفن، يبقى قادراً على العزف والتأليف الموسيقي، اعتماداً على حسّهِ وسمعهِ الداخلي، وتدوين النوتات الموسيقيّة. كم مِن الفنانين الموسيقيين، كانوا عمياناً يغنّون ويعزفون على آلاتهم. في حالة الفنان التشكيلي، الأمر مختلف تماماً. لذا، كشفُ هوزان قرارهُ يشي بأنهُ بات يهيّئ نفسه للاحتمال الأسوأ. إنه سيتحدّى هذه الإعاقة بالبحث عن خيارات أخرى حتّى تستمرّ دورةُ الحياة. هذا ما حفّز الأمل مجدداً لدى سارا. فجأةً، في تلك اللحظة، ولسبب مجهول، باغتتها فكرة ممارسة الحبّ معه. رُبَّما يمكنها إخراجهُ من حالة الاكتئاب وإعادة الثقة والأمل لديهِ. لكنها، سرعان ما عدلت عن ذلك. سخرت من نفسها مجدداً، معتبرةً تفكيرها سخيفاً، وأنها حقّاً باتت غريبةَ الأطوار. حاولت طرد الفكرة من رأسها. لكنها بقيت عالقةً في ذهنها، وطوّرت نفسها؛ بألّا تطلب منه ممارسة الحبّ بشكل مباشر، بل أن تلتصق بهِ على الفراش أثناء النوم، بعد أخذها حماماً ساخناً، ودهن جسمها بالكريمات، ووضع عطرٍ فرنسي، مع ارتداء قميص نوم خفيف. وترى؛ هل سيثير ذلك زوجها، ويتفاعل معها أم لا؟ تفاجأت بسرعة استجابته. حين هيّجهُ العطر، ونداوة وطراوة جسمها، ونعومة ملمسهِ. ذُهلَت من حساسيّته المفرطة في تعاملهِ الجديد والحذر والجد لطيف مع جسدها. كأنّ أصابعهُ تلامس جناحي فراشة أو بتلات وردة شقائق النُعمان. مع كل لمسة وقبلة، تتوالى شهقاتها، وتزداد إفرازاتها، ويزداد جسدها رغبةً وإثارة. ما إن وصلت رؤوس أصابع يدهِ اليمنى فرجها، حتىّ أطبقت فخذيها على يدهِ، كأنّهما تريدان افتراسها. بثلاث أو أربع حركات، صعوداً

ونزولاً، أتتها الرعشةُ عنيفةً وصاعقةً وعميقة، وهي التي كانت رعشتها عنيدة للغاية، ولا تأتي بسرعة، إلّا بعد إنهاك زوجها. عقب مضي نصف ساعة على استمتاعها بلحظات الخدر والاسترخاء والنشوة، صارت هي تداعب زوجها، واستنفرت عضوهُ وجلست عليه. لأنهُ يحبّ هذه الوضعيّة. أتتها الرعشة في نفس لحظة القذف عند زوجها، واختلطت الشهقات والتأوّهات وتعانقت، معلنةً تدفّق فيوضات اللذة والتحليق معاً في سماء الانتشاء.

شعرت سارا في تلك الليلة بأنها لوحة يرسمها زوجها، بمنتهى التخيّل والهدوء والحساسيّة. حالة لم يسبق لها أن جرّبتها معه، طوال فترة زواجهما، وأثناءَ جولاتِ الحبّ التي مارستها معهُ، قبل الزواج. انتابتها فكرة لئيمة وغريبة مفادها أن أداءهُ في ممارسة الحبّ، وهو أعمى، أكثرُ روعةً وجاذبيّة مما كان عليه، وهو يبصر.

بالنسبة له، لم يجد ذلك الاختلاف والفارق الكبير. لأنه أصلاً أثناء ممارسة الحبّ، يغمض عينيهِ. سابقاً، كان يَعلم أنه إذا فتحهما، سيبصر. بقيت عيناه مغلقتين، أثناء الممارسة، بحكم العادة، وليس لأنه لن يبصر بهما، رغم أن الأمر عنده الآن؛ سيّان. شعرَ أن حساسيّة زوجته مرتفعة، ورعشتها لم تكن صعبة المجيء، كالعادة. كذلك هو، حين أتاهُ القذف، شعرَ وكأنَّ النشوةَ تقذفهُ في هوّةٍ لا قرار لها. كالعومِ في فراغٍ منعدمِ الجاذبيّة. سقوطٌ شديد المتعة في بحرِ اللذّة. جلُّ متعتهُ آتٍ من يقينهِ أن هذا السقوط المديد لن تكون نهايتهُ الارتطامَ بقاعٍ صلب.

* * *

قامت سارا بكل ما طلبه منها. التقطت مجموعة صور للوحة غير المكتملة وأرسلتها بالإيميل إلى مصمم الكتالوغ. اتصلت بصاحبة صالة «الأتاسي». وضعتها في صورة ما حدث. أكّدت أن المعرضَ سيكون في موعدهِ، ولن يتغيّر شيء في الترتيبات.

حطَّت طائرتهما في مطار موسكو صباحاً. اتجها فوراً إلى مركز «فيدروف» لطب العيون وجراحتها. بقيا هناك، خمسة أيّام في الفندق التابع للمركز. خلاصةُ التحاليل والفحوصات والصور الشعاعيّة والرنين المغناطيسي أكّدت أنه لا توجد مشكلة عضويّة في العين والدماغ. وأن هذه الحالة فريدة، لم يشهدها تاريخ طب العيون في روسيا والعالم بأسره. الخبرات والأجهزة، وما توصّل إليه العلم حتّى الآن، عاجزٌ عن تفسير وتشخيص هذه الحالة. عقب تسلّمهما نتائج الفحوصات، أشار عليهم البروفسور ومدير المستشفى بضرورة مراجعة طبيب نفسي. ربما تكون هذه الحالة نفسيّة. لم يبقَ أمامهم سوى هذا الخيار.

خذلتهُ النتائج. كأنّهُ يدور حول نفسه، كقشّةٍ تعبث بها زوبعة من خيبةِ أملٍ مريعةٍ، وصدمةٍ مريرة، رغم محاولتهِ تحضير وتهيئة نفسهِ لتلقّي خبرٍ كهذا. محنةُ سارا أعمق وأشدّ وطأة. عليها مغالبة حزنها الشديد، وإحباطها العميق، وتجاوز خوفها وقلقها على احتمال انتكاس نفسيّة زوجها مجدداً. في الوقت عينه، عليها مواساتهُ، والتخفيف عنه، وإحياء الأمل لديه، وأنّ لندن تخبّئ لهما أخباراً سعيدة. حالها حالُ مَن يسعى إلى الحفاظِ على نور شمعةٍ على وشك لفظِ أنفاسها الأخيرة، وسط رياحِ خيبةٍ عاتية. فشلتْ في إخراجهِ مما هو فيهِ، ونجحتْ في إبقاءِ الوضع على ما عليهِ، والحؤولِ دونَ

تدهورهِ، وعدمِ تفاقمِ واشتدادِ خناقِ الأزمةِ على زوجها. أقنعتهُ بمواصلة السفر إلى لندن، بعد عدولهِ عن ذلك، وطلبهِ العودةَ إلى دمشقَ.

خلال الأربع ساعات على متن الطائرة المتّجهةِ من موسكو إلى لندن، كان الصمتُ أسودَ، دَبِقاً، خانقاً ومُخرّشاً للصدور. كذلك الحزنُ، يهوي بمعولهِ على القلب والروح والخيال. كأنهما في حالةِ حدادٍ لا نهاية لهُ، ولا منجيَ منهُ. حاولت سارا الرفع من معنوياته مجدداً، والتخفيف عنه، عبر اختلاق الأحاديث والقصص، لكن عبثاً. بعد الخروج من مطار لندن، أخذا تاكسي يوصلهما إلى مستشفى «مورفيلدز» (Moorfields eye hospital). طوال الطريق، ذهنهُ مشغولٌ ومشتبكٌ مع فكرة أنه يزورها ضريراً، لا يرى من لندنَ شيئاً. هذه الفكرة، تناسلت منها أفكار أخرى، منها؛ أن الشيءَ الذي لا تراهُ، لا يراكَ. تصطدمُ به، ويرتطم بك. والشيءُ الذي تراهُ بعمقٍ وتأمّلٍ، ربما يعاملكَ بالمثلِ. البشرُ مختلفون ومتفاوتون في الحساسيّات والكيمياء، كذلك الأشياء الأخرى. يحدثُ أن ننظرَ إلى شخصٍ، شجرةٍ، زهرةٍ، حيوانٍ، صخرةٍ، جبلٍ، نهرٍ أو مدينةٍ. . . ، بعمقٍ وإعجاب، ولا يبادلنا الشيءُ نفسَ نظرتنا إليه. أحياناً، لا تبادلنا بعض الحجارة، الأشجار، الطيور، القرى، المدن أو البشر، الحبَّ والإعجاب والتأمّلات العميقة، لكنها قطعاً لن تبادلنا الكراهية والأحقاد، إذا ما نظرنا إليها على هذا النحو.

قبل أن يتوقّف التاكسي أمام المستشفى، سخر هوزان من نفسه، واعتبر أفكارهُ بليدة وتافهة: «ما نفعُ التفكير في النظر إلى الأشياء بعمقٍ أو سطحيّةٍ، بالنسبة لشخصٍ كفيف!؟» قالها لنفسه. أثناء

الدخول إلى بهو المستشفى، طلبَ من زوجته الاتصال بطبيب نفسي وتحديد موعد معهُ، فورَ عودتهما إلى دمشق. فهمت سارا منهُ، أنه قطع الأملَ من مستشفى «مورفيلدز»، قبل الدخول إليه. وأن هذه المراجعة مجرّد تحصيل حاصل.

بعد إطلاع الأطباء على التقارير الطبيّة من دمشق وموسكو، ساورهم الشكّ في أن تكون نتائج فحوصاتهم مختلفة عمّا أجري هناك. بعد ثلاثة أيّام، أظهرت النتائج أنها هي هي، لا تتزحزح؛ «عدم العثور على أيّة مشكلة عضويّة جسديّة يمكن أن تكون السبب في إصابته بالعمى». حينَ ذكرت سارا للأطباء مقترح الأطباء الروس بضرورة «مراجعة طبيب نفسي، أو ممارسة اليوغا، لربما تكون المشكلة نفسيّة»، لم يكن أمام الأطباء الإنكليز إلّا هزّ الرؤوس مع ليّ الشفاه، في إشارةٍ إلى الموافقةِ على مضض. استنفدت الحلول الطبيّة. ولم تبقَ طريقة أخرى للمعالجة.

غادرا المستشفى إلى فندق «بومونت لندن» (The Beaumont London Hotel) القريب من شارع «أكسفورد» وشارع «بوند»، وأماكن التسوق، وسط المدينة. لهما فيه ذكريات. هذه هي المرّة الرابعة التي يسافران فيها إلى لندن. الأولى؛ سنة 2005 في جولة سياحيّة. الثانية؛ سنة 2007، أثناء معرضه التشكيلي الفردي الأوّل في متحف وغاليري «تيت مودرن» (Tate Modern) بالقرب من نهر «التيمز» وكاتدرائيّة «سان بول». الثالثة؛ سنة 2009، على خلفيّة معرضِهِ الثاني الذي كان مشتركاً مع سارا، في صالة «غيلدهول» للفنون (Guildhall Art Gallery). عرضت سارا خمس عشرة منحوتة، وعرض زوجها خمسة عشر عملاً تشكيليّاً: خمس

جداريّات، وعشر لوحات متوسّطة الحجم. في المرّات الثلاث السابقة، كان مبيتهم في فندق «بومونت لندن».

زار هوزان لندن فناناً تشكيليّاً وسائحاً. الآن، يزورها عليلاً ضريراً. في المرّات السابقة، أخبرتهُ لندن أشياء كثيرة. في هذه المرّة، لم تخبره شيئاً. رُبَّما لأنها عجزت عن معرفة سبب فقدانهِ البصر.

بقي لهما يومان على المغادرة. لم تكن لديه الرغبة في الخروج من الفندق. ألحّت عليه سارا بالتجوال في شارع «أُكسفورد» (Oxford Street)، كما فعلا سابقاً، وتناولا الغداء والعشاء في مطاعمه. ذكّرته بمتعة المشي في شارع «ريجنت» (Regent Street) والاتجاه نحو حديقة «هايد بارك» (Hyde Park)، والعودة إلى الفندق. لبّى هوزان طلبها، لئلا يشعر بالذنب بأنه لم يمنحها فرصة استرداد ذكرياتها. إذا كان محروماً من رؤية ازدحامِ شوارع المدينة، فلماذا لا يكتفي بسماع صوت ضجيجها؟ لماذا يمنع سارا من معاودة النظر إلى تفاصيل مدينة الضباب، التي ما عاد يمكنهُ رؤيةُ ضبابها أو صحوها ولا ازدحامها؟ كان في لندن، ولم يكن. بينما قضت سارا ليلتها وهي تسرد تفاصيل الذكريات في الفندق، وفي شوارع المدينة، علّها تخفف عنه كآبته وإحباطهُ. اضطرَّ إلى مسايرتها. تفكيرهُ مشغولٌ بأمور ومواضيع أخرى، منها المعرض، واختيار الطبيب النفسي، ومواجهة تحدّيات الحياة الجديدة.

فور عودتهِ إلى دمشق، اتصلَ بمديرة صالة «الأتاسي» للاطمئنان عليها، والتأكيد على أن المعرض سيقام في موعدهِ. كما اتصل ببعض الصحافيين والنقّاد السوريين واللبنانيين ودعاهم إلى معرضه،

وأخبرهم بأنه أصيب بالعمى، وأن التحاليل والفحوصات الطبيّة في دمشق وموسكو ولندن، عجزت عن كشف السبب.

رغم أن البلاد تشهد هزّات عميقة، سياسيّة وثقافيّة، إلّا أن ذيوع خبر إصابته بالعمى، وهو الفنان المعروف، والشخصيّة العامّة، أثار ضجّة في الأوساط الثقافيّة، داخل وخارج سوريا. مستويات التأثّر والتعاطف والتضامن معه بلغت ذروتها بين المثقفين الموالين للنظام الحاكم، والمعارضين له. جمعهم الحزن والأسى على ما أصاب الفنان التشكيلي السوري هوزان كسنزاني. الصفحات الثقافيّة في الصحف السوريّة؛ الموالية والمعارضة، والصحف اللبنانيّة والخليجيّة والمصريّة نشرت خبر إصابة فنان تشكيلي سوري بالعمى، وعجز الطب عن كشفِ السبب. وأنهُ يحضِّرُ معرضَهُ الفردي الجديد، وسيفتتحهُ في موعدِهِ يوم 25 تشرين الأول 2011.

كي يملأ على نفسه الفراغ الحاصل، طلب من زوجته البحث عن الكتب الإلكترونيّة الصوتيّة، أو عن برامج خاصّة بقارئة الكتب الإلكترونيّة. طلب منها مؤلّفات شعراء وأدباء عميان، كـ«بشّار بن برد»، «أبو العلاء المعرّي»، «طه حسين»، «عبداللّه البردوني»، «هيلين كيلر»، و«جون ملتون». صار يقضي نهاره كلّه، وأغلبَ مسائِهِ وليلِهِ في الاستماعِ إلى مُقرئ الكتب.

بدأ قراءاتهُ السمعيّة بأدب طه حسين. من كتبه التاريخيّة، اكتفى بـ«الفتنة الكبرى». ساعدهُ ذلك على معرفة تفاصيل هامّة من التاريخ الإسلامي، لم يكن مطلعاً عليها. صار يطرحُ على نفسهِ أسئلةً كثيرة، منها: طالما أن كل صحابة النبي؛ المبشّرين بالجنّة وغيرهم، ضالعون في التأسيس لـ1400 سنة من الاحتراب والتطاحن الداخلي

على الخلافة، وتسببوا في ما تسببوا به من كوارث وشقاق، ما زال يعانيه ويكابدهُ المسلمون، فلماذا كلّهم عدول، ولا يحقّ لأحدٍ انتقادهم!؟ لماذا لا يعتبرُ المسلمون؛ أن إصرار أبي بكر الصدّيق وعمر وكل رموز قريش أن تبقى الخلافة فيهم، ورفضوا أيّ مقترحٍ من الأنصار، وزعيمهم سعد بن عبادة، على أنه تمييزٌ عنصري قبلي، ومناقض لقول الرسول: «لا فرق بين عربي وأعجمي إلّا بالتقوى»؟! أولم يكن إصرار قريش على أن يكون الخليفة منها، عودة إلى العصبيّة الجاهليّة؟! الحالُ أن حادثة السقيفة، أثبتت أنه ليس هناك فرق بين عربي وأعجمي، لدى المسلمين وحسب، وبين قبيلة وأخرى من العرب المسلمين أيضاً. ألم يكن «الأوس» و«الخزرج» عرباً؟! ماذا لو أغلق أهل يثرب أبوابها في وجه النبي، ولم تناصره وتؤازره وتساعده على فتح مكّة؟! الأنصار الذين فتحوا بيوتهم وقلوبهم للمهاجرين، وقاسموهم لقمة عيشهم، ومنحوهم المال والنساء، والنبي آخى بين المهاجرين والأنصار، في أول اختبار بعد وفاته، سقط كل شيء على مذبح الخلاف على الحكم والسلطة. ظهر أن التعصّب للقبيلة ما زال كما هو. رفض أكثر المعتدلين؛ أبو بكر، أي تنازل للأنصار! حتّى مقترح «منكم أمير، ومنّا وزير» رفضه.

ينتقد الشيعة ما جرى في السقيفة، على أن عليّاً كان مشغولاً بغسل وتكفين النبيّ، وأصحابه مشغولون بالملك والخلافة. لكن، لو حضر عليّ السقيفة، لكان موقفه أكثر تشدداً من موقف أبي بكر. ذلك أنه لا يرى أن الخلافة يجب أن تبقى محصورة في قريش وحسب، بل في بني هاشم، ومنهم، في آل بيت النبي، وأنه يمثّلهم!

لماذا لم يطرح طه حسين هذه الأسئلة على نفسهِ، ولم يذكر أن

«الفتنة الكبرى»، بدأت من حادثة السقيفة والتخاصم والاقتتال على الخلافة، ولم تبدأ بمقتل عثمان بن عفّان؟! بالفعل، كلام فرج فوده كان صحيحاً: «بموت الرسول، اكتمل عهد الإسلام. وبدأ عهد المسلمين».

رأى أن الخوض في التاريخ، كالسير في حقول ألغام. الناسُ أحبُّ إلى قلوبها النوم على حرير زور وأكاذيب التاريخ وأوهام اليقينيّات، بدلاً من رمي سؤال في مستنقع إيمانها. الناس تحبُّ من يطمئن إيمانها ويؤكّده، وتعادي من يقلقه أو يربكهُ. لذا، ركّز هوزان على كتب طه حسين الأدبيّة كـ«الأيّام»، «دعاء الكروان»، «غرام الأدباء»، «الحب الضائع». أذهلهُ كتاب «في الشعر الجاهلي»، رغم أنه في النقد والبحث. قرأه - سمعهُ مرّتين. دعا سارا، ليقاسمها الأفكار التي خَلُصَ إليها من هذا الكتاب. علماً أنها لم تقرأ لطه حسين شيئاً. مع استماعها لكلام زوجها عن كتاب «في الشعر الجاهلي» قررت أن تقرأهُ أيضاً. شعرت بأنه صار يميل إلى الكلام والثرثرة في الثقافة. سابقاً كان يستمع أضعاف ما يتكلّم. يشتغلُ على يدهِ وخيالهِ، أكثر من اشتغالهِ على لسانهِ. ثقافته التشكيليّة النقديّة عاليّة، ليست بحاجة إلى تنمية. فكرتهُ في ذلك أن الفنان بحاجة إلى تنمية موهبته وخيالهِ وتخصيبهما وتصقيلهما، وتعويدِ يدهِ على متابعةِ وملاحقةِ حركةِ خيالهِ، أكثر من حاجتهِ إلى تنميةِ وتغذيةِ وعيه وتصقيل تنظيراته النقديّة. أصبحت سارا تتيحُ لهُ الكلام، دون أن تقاطعه، إلّا حين يطالبها هو بإبداء الرأي. عن كتاب «في الشعر الجاهلي» قال لزوجته:

- شوفي سارا، هذا الكتاب، جعلني أحبُّ الشعر والنقد أكثر.

أجبرني على الاعتذار من الكتاب ومؤلّفه لأنني لم أقرأه حتّى الآن. أبهرني هذا الرجل بفكرته الظاهرة والمبطّنة. إذا كان أبو العلاء المعرّي في زمنه؛ «فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة»، فإن مقام طه حسين في زمنهِ وزمننا أيضاً، يصحُّ توصيفهُ بـ«أديب الفلاسفة، وفيلسوف الأدباء». أهميّتهُ لا تتأتّى فقط من أنه أراد نقد السرديّة الدينيّة والتاريخيّة للعرب، انطلاقاً من مراجعة ونقد الشعر الجاهلي، على صعيد المفهوم والاصطلاح والدلالة والمضمون، منحازاً لنزعة الشكّ الديكارتي والبحث والتدقيق والتمحيص، كما ينبغي للباحث والفيلسوف والناقد الحصيف والجريء أن يكون. أهميّته كمثقف وناقد ومفكّر تنويري، تتأتى من أنه تناول تيمة القداسة ليس في النصّ الديني فقط، بل في النصّ الشعري الذي تحوّل بفعل التقادم والتكريس والترسيخ إلى كونهِ مقدّساً أو شبه مقدّس. الشعر عند العرب كان الوسيلة الوحيدة لتوثيق الأحداث والحيوات والتجارب والشخصيّات، لذا، وصفوهُ بأنه «ديوان العرب». حين اعتبر حسين أن الشعر الجاهلي، في جلّه، مختلق ومنتحل، ومكتوب في الفترة الإسلاميّة، وليس قبلها، فهذا تشكيك في كل الأحداث والشخصيّات الواردة في الشعر الجاهلي، ضمن المرحلة التي سبقت الإسلام. يعني محاولة هدم ركن رئيس من أركان التاريخ العربي!

مش بس هيك؛ مقاربة طه حسين بين النصّ القرآني والنصّ الإنساني من خلال بعض نصوص الشعر الجاهلي، وإيجاد التقاطعات بينها، على صعيد الصيغ والتراكيب، هذه أيضاً خطوة ثوريّة في اتجاه نزع صفة المقدّس عن النصّ الديني؛ القرآني، رغم نفي حسين رفع القداسة عن النصّ الرحماني. في هذا إشارة نقديّة

جد ذكيّة بخصوص إثارة سؤال، ولو كان ذلك بشكل غير مباشر: أيهما اقتبس من الآخر؟ الشعر الجاهلي من القرآن أم العكس؟ وتاريخيّاً، يفترض أن الشعر الجاهلي سابقٌ على القرآن لجهة القول والذكر والتدوين. ولكن، من غير الجائز أيضاً القول: إن القرآن اقتبس من الشعر الجاهلي. وعليه، فلا شعر جاهليّاً قبل القرآن. ومن يقول عكس ذلك، هذا يعني أنه ينحو منحى أن القرآن اقتبس من الشعر الجاهلي، نتيجة التقاطعات الموجودة بين النصّين. ليس على مستوى الألفاظ، بل على مستوى التراكيب أيضاً! بالتالي، وضع طه حسين العرب والمسلمين أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا القرآن أو الشعر الجاهلي، لجهة القِدم والأسبقيّة! وأن الوحي التي نزل على النبيّ محمد، أقدمُ من الوحي الذي تنزّل على امرئ القيس.

سأقول لك شيئاً: صحيح أن طه حسين ينحاز للقرآن والنصّ المقدّس، كما كرر في كتابهِ، ويقيم الحجّة على الشعر الجاهلي بالقرآن، إلّا أنه تمت محاربته وتكفيره من قبل المتديّنين. ورفعوا عليه الدعاوى، وكفّروه. هل تعرفين؛ لماذا؟

- لماذا؟

- أعتقد أن حسين استهدف النصّ الشعري الجاهلي، شكلاً، لكنه في الأصل والفصل والجوهر والجذر، يستهدف ضمناً النصّ المقدّس أيضاً، مهما صرّح باحترامه وانحيازه وتقديسه للنصّ القرآني. لذا، اعتبر التكفيريون أن كتاب «في الشعر الجاهلي» مقدّمة أو توطئة لمراجعة ونقد النصّ المقدّس أيضاً، وأنهم عاجزون عن ردّ الطعون أو التشكيك بنفس المنطق النقدي التحليلي والتفكيكي لبنية النصّ، وإخضاعه لمنطق البحث التاريخي. رأى التكفيريون أنه من

المهم والضروري جدّاً وأد الفكرة في مهدها. للأسف، نجحوا في تقويض وتخويف وترهيب طه حسين، ومحاصرة فكرته. لكنهم فشلوا في اغتيالها. طه حسين نفسه كان يعلم تماماً أن قوّة وقدرة التكفير قاهرة، عملاقة، غاشمة، طغيانيّة عمياء تزعم التبصّر. خاصةً إذا ارتدت لبوس العِلم والدفاع عن الدين واللاهوت. قوّة عمرها آلاف السنين، وليس 1400 سنة وحسب، يستحيل عليه مواجهتها. لم يكن أمامهُ سوى خيارَين لا ثالث لهما. الأول معاندة التيّار وتجرّع كأس السمّ، كما فعل سقراط، أو التراجع والتقهقر، وإبداء اعتذارات شكليّة، وفي أعماقه يقول: «لا وجود لشعرٍ جاهلي. وإلّا فإن الإقرار بوجوده، إقرارٌ باقتباس القرآن منه». كما فعل غاليليو، حين أبدى اعتذارهُ وندمهُ على نظريّته، تجنّباً لتكفير وعقاب الكنيسة، بعد بلوغهِ من العمرِ عتيّاً، وبقي يردد في قلبهِ، أثناءَ توقعيهِ على وثيقةِ النّدم والاعتذار أمام المحكمة: «لكنها تدور» قاصداً الأرض.

سارا، طه حسين، طرح أفكاراً خطيرة جديدة نقديّة وحديثة، لا تقلُّ خطورة عن الأفكار التي طرحها غاليليو. أقام الحجّة بالنصّ القرآني - الرحماني على الإنساني. لكنني أكاد أجزم، أن الأمر لديه معكوس، غير مصرّح به. لذا، رغم أنه كتب في التاريخ وعلم الاجتماع والأدب والنقد والبحث، إلّا أن أكثر كتبهِ شهرةً وصيتاً وإثارة للجدل هو «في الشعر الجاهلي». أعتقد أن حسين، شأن الكثيرين من المتصوّفة والفلاسفة، بقوا على إيمانهم بوجود خالق لهذا الكون. لكنهم ما عادوا يؤمنون بالنصوص المنسوبة إلى هذا الخالق. ذلك أن مستوى تلك النصوص، بحسبهم، يعاني من اختلالاتٍ، لا تضاهي كل هذه الدقّة اللامتناهيّة في خلق الكون

وتسييره، وتوزيع الأرزاق على الخلائق، بشراً وشجراً وحيوانات.

مع كل القيمة الفكريّة العظيمة والسبق النقدي البحثي التنويري والثوري الذي أتى به طه حسين في حينه، لا يمكنُ اعتباره وثناً. فهو أيضاً في نفس هذا الكتاب، لم يمارس البراءة النقديّة البحثيّة والتجرّد التامّ والموضوعيّة التامّة التي يفترض وينبغي للناقد والباحث والمفكّر الالتزام بها. واضحٌ من خلال أقوله في كتابه، تسليمهُ وانحيازهُ التام للنصّ القرآني. ولو أخضع حسين نفس المنهج الديكارتي الذي اتبعهُ في مناقشة ونقد ونفي الشعر الجاهلي، واستخدمهُ على النصّ القرآني، لربما وصل إلى نتائج صادمة أكثر وأكثر. كما قلت لكِ: أعتقد أن هذا هو السبب الذي يقف وراء تكفير طه حسين، لما وجدوهُ من خطورة فادحة على النص القرآني نفسه، إذا ما أُخضعَ لمنهج تحليل وتفكيك بنية النصّ وتاريخيّته، في إطاره الزماني والمكاني.

بصراحة، أستغربُ؛ كيف أن مصر في العقود الثلاثة الماضية، لا تهتم بطه حسين، بنفس مقام اهتمامها بنجيب محفوظ. رغم أن مساهمة حسين في الثقافة المصرية والعربية، هي أضعاف مساهمة نجيب محفوظ التي اقتصرت على الرواية وكتابة السيناريوهات، بينما مساهمة حسين تجاوزت الأدب إلى البحث والنقد والفكر الإصلاحي التنويري. يمكن اعتبارهُ رائدَ المطالبين بمراجعة كتب التراث. ولو كان حسين حيّاً، لاستمرّ في منهجه وسعيه ومشروعه النقدي التنويري في مراجعة المزيد من كتب التراث والفقه أيضاً وأيضاً. يمكن تلخيص تجربتهِ النقديّة والبحثيّة بعبارة: التفكير في مواجهة التكفير.

أنا حكيت كتير. ولم أترك لكِ مجالاً للتعليق. قالها هوزان،

بنبرة مشوبة بالاعتذار. ردّت عليه سارا: «لا. أنا مستمتعة بالاستماع إليكَ. لم أقرأ الكتاب. وكلامكَ عنه، حفّزني وحرّضني على قراءته».

* * *

الصالة تغصُّ بالحضور. فنانون، فنانات، نقّاد، صحافيون، كتّاب، أدباء، شعراء، محبّو الفن، تجّار لوحات وأعمال فنيّة، أغنياء يقتنون اللوحات لزوم الديكور والتباهي والتفاخر. أتوا، ليس لأن هوزان فنان مهمّ ومشهور وحسب، بل لأن خبر إصابتهِ بالعمى، أحدثَ ضجّة وحالة من التضامن والأسى والمفاجأة المحزنة لدى الكثيرين. وخلق نوعاً من الفضول لدى البعض الآخر. صالة الأتاسي في حي الروضة الدمشقي الراقي، قُبالة السفارة الجزائريّة، وبجانب وزارة الثقافة السوريّة. هذا الحيّ يكثر فيه الأمن. حشدُ المتواجدين في الصالة وما حولها خلق نوعاً من القلق والارتباك للجهات الأمنيّة، خشيّة أن تنطلق مظاهرة من المكان مناهضة لنظام الأسد. المظاهرات تخرج أيّام الجمعة، من المساجد. لم يسبق أن خرجت مظاهرة من مكان ثقافي، أو عقب نشاط ثقافي. لكن، الاحتمال وارد. لذا الأمن يراقب المكان عن كثب وبحذر، من دون أي تدخّل وإزعاج.

وصل هوزان إلى المكان ترافقهُ عائلتهُ؛ أمّه، وزوجته وأولادهُ. في استقبالهِ مديرة الصالة. صافحته وقبّلتهُ. ألقت كلمةً رحّبت فيها بالفنان والحضور ودعتهُ إلى قصّ شريط الافتتاح. لكن هوزان بعد توجيههِ الشكرَ إلى مديرة الصالة والحضور، فاجأ الجميع بأن دعا أمّهُ

كي تفتتح المعرض، ذاكراً أن الأعمال المعروضة فيه، مستوحاة من اثنتي عشرة قصيدة، كتبها جدّهُ من جهة أمّه؛ يوري روبينسكي، أحد ضحايا معتقلات نظام جوزيف ستالين. قال: «هويتي مركّبة، يدخل فيها الكردي والعربي والروسي والسوري. هويتي تشبه هويّة بلدي، هي أيضاً مركّبة. هكذا هي الحياة، قائمة على التنوّع والاختلاف. واهمٌ من يحاولُ تنميط الحياة وتلوينها بلون واحد. هكذا فعل ستالين، وفشل. وكذا فعل هتلر، وفشل. ستبقى الحياة أقوى من كل محاولات قمع وسحق التنوّع والتعدديّة والحريّات».

وسط تصفيقٍ مدوٍّ، وبمساعدة ولديه؛ آزاد وولات، اتجهت الجدّة أولغا لقصّ الشريط، وعيناها تفيضان دمعاً وفرحاً. بعض المعارضين للنظام المتواجدين هناك، فسّروا كلام هوزان على أنه نقد لنظام الأسد، ودعم للثورة. هكذا أيضاً فَسَّرَ الموالون للنظام كلامَهُ. لم يكن يقصد ذلك تحديداً، بل قصد النظم الشموليّة والاستبداديّة بشكل عام. مكتبة سُر مَن قرأ

كثيرون ظنّوا أنه سيحضر واضعاً نظّارةً سوداء على عينيهِ كالتي يضعها العميان. سيكون رأسه إمّا إلى الأعلى قليلاً، أو إلى الأسفل. يتحرّك كما يتحرّك المكفوفون. لكنهُ ظهر، كما ظهر دائماً؛ معتدل الهيئة، من دون نظّارةٍ سوداء. نظراتهُ مستقيمة، غيرُ موجّهةٍ إلى شيءٍ معيّن. متى اكتشفوا أنه كفيف؟ حين بدأ يتحدّث عن كل لوحةٍ على حِدة. يتحسَّسُ سطوحها، بأصابعهِ وكفّيه، ثم يذكر عناوينها، والومضة الشعريّة التي استوحى منها أعمالهُ. كأنّه حفظ بصمات اللوحات عن ظهر قلب. هكذا فعل مع كل اللوحات الاثنتي عشرة؛ لوحة إثر أخرى:

- هذه اللوحة بعنوان «**أخضرُ الجحيم**»، يقول الشاعر روبينسكي في الومضة الشعريّة التي تحمل نفس العنوان:

هذا ظهري، موئل الخناجر والريح.

وذلك صدري، معراجُ الأسئلةِ وعرجونُ أقمارها المنهارة.

يتفحّصني البحرُ، بمزيدٍ من الخيبة.

تتأمّلني السحبُ، بمزيدٍ من النّدم.

أنا الكلامُ الضريرُ، الذي ما إن أبصرَ، حتّى تيتّمَ الأزلُ وسيقَ الأبدُ إلى المقاصل!

بعد تمرير يديه على سطح اللوحة التالية، قال:

هذا العمل بعنوان «**الأزرقُ اللعين**» يقول في هذه الومضة:

نظراتهُ تفيضُ مساءً...

بقلبٍ ينبضُ بالصباح.

في تيهٍ شائكٍ، مكللٍ بالعويل...

مضى من أرض اللعنةِ إلى حيث مضت العيونُ الكهوفُ إلى أرضِ الخيبة.

اقترب من اللوحة الثالثة. تحسّس جسدها، كما يتحسس جسد امرأة. ذكر أن هذه اللوحة بعنوان «**الأبيضُ الذليل**»، يقول الشاعر فيها:

سخامٌ ضروسٌ، يطوف نحائرهُ، ممجّداً الظلالَ ذاتِ المناجل.

في أقاصي العويل، أيائلُ وغزلانٌ، تغرسُ قرونها في أكباد بعضها البعض.

الأفقُ، وهي تعضُّ بصيصَ النهاية، تعضُّ عنقَ القدرِ وأسفارهُ المؤجّلة.

قلائلُ من ودعِ البختِ، تقلّبُ الأصواتَ المتفحّمةَ.

ما من أبيضٍ يُطيحُ بهذا الذعر، إلّا ما يتدفّقُ من أحداقِ النحائرِ وأثدائها، ذليلاً!

تحسَّسَ اللوحة الرابعة وذكر أن اسمها «**البرتقالي الحكيم**» وأن الشاعر قال في ومضتهِ:

إيّاكم وزفرةُ الحجر.

اعتصموا بخيالي، لئلا يمسسكم البدد.

لامس سطح العمل الخامس. ذكر أن عنوانهُ «**الأصفر الكتوم**» وأن روبينسكي يقول هنا:

يبدعُ ظلالاً لشجرةِ الوقتِ، لا حصر لها.

ليسَ بقيظِ الرواية، ولا بدنسِ الغواية.

ثمّة مَن يظنّهُ وهماً، أطلقتهُ مشيئةُ الافتراض.

ثمّةَ مَن يرونهُ وجوهاً من قمحِ وأسئلة.

تتبّع اللوحة السادسة، ولامسها، وقال: اسم هذا العمل هو «**الأسود الجبان**»، وجاء في ومضتهِ الشعريّة:

القرابينُ في صلاتها.
الذئابُ تلوكُ البراري.
القمرُ طريداً، تفترسهُ أوهامهُ.
وأنا أرتعدُ من شيءٍ أجهلهُ، بينَ ركامٍ وجثثٍ تتراقص.

واصلَ تحسس سطوحَ اللوحات ذاكراً عناوينها المستوحاة من عناوين الومضات الشعريّة:

- الأرجواني الذبيح

صمتهُ، قلقُ البحر.
صوتهُ، قلقُ السماء.
من أوجاعهِ، الشجرُ ذات القامات الدامعة.
لا تنتهي تراجمهُ بانتهاء الأوطان.
لا تبتدئ أحزانهُ مع انتهاء القيامة.
كحدّ الليل، إنْ باح.
كذُعرِ المعاني، إنْ لاح.
هو ذا، معتلياً كتفَي المشيئة، سارداً مُعانَدَتَنا تَطرّفَ أقدارنا!

- الرّمادي العصيب

وما هويتَ، إذ رميتَ. لكنَّ السَّمَاءَ هوت.
ما ضممتَ، إذ بكيت. لكنَّ الرَّبَ صمت.
ما حكيتَ، إذ رويت. لكنَّ الشَّياطين حكت.
وما أحرقتَ، إذ أبحت وأزحت. لكنَّ الحربَ أحرقت.

- البنفسجي المغدور

ظلالهُ الملتهبةُ، تسوسُ المجاز.

بعين الديك، يتفقّدُ جيشَ الطَّاعنينَ في أسرارهِ.

بعينِ الذّئب، يَرقبُ مغيبَ الأسئلةِ وشروقها.

سيتولّاني البددُ، كما تولَّاكم الغيب.

قالها، وانتحر.

- النيللي البتول

لا تدركهُ الأبصارُ والبصائر.

خالدٌ في يُتمهِ، نولاً تنسجُ الرّيحُ عليهِ تراجمَ العابرين به، وخيباتهم.

- القرمزي التائه

هذا الزَّهريُّ ليئمٌ. تشتهيهِ أنيابُ الشّهوةِ ومخالبها.

وذلكَ الزَّهريُّ الضّريرُ، يسطو على خزائني.

هذا الزَّهريُّ القنوعُ، لا مناصَ أمامَ الأعينِ من سفكهِ.

ذلكَ الزَّهريُّ اللعوبُ، يغويني هارباً.

اقترب من اللوحة الأخيرة، وتحسسها بحذر، واعتذر عن عدم اكتمالها وقال: لم أستطع إكمال هذه اللوحة، لأنني أصبتُ بالعمى. عنوانها «**الأحمر الميّت**»، وهو نفس عنوان الومضة التي يقول فيها روبينسكي:

عادمٌ معدومٌ، مندغمٌ في تيهنا فيضاً من الجنائز.
طرائدهُ الأقدمون نحن. . .
قِتالهُ المديد، بِشارةُ معراجنا صوب آثامنا المحلّقة.
قالَها الأحمرُ، قبيلَ لفظهِ خيالهُ الأخير:
الغدرُ؛ بمخالبِ الرّيح، ينبشُ ضريحي.
يا ليتهُ فعلَ ذلكَ، بمخالبهِ.

أثناءَ حديثهِ عن لوحاتهِ، أحد الموجودين في الصالة، يهمس في أذن صديقهِ: «هل نحن أمام عرض مسرحي؟ أيظنّنا أغبياء، وأنه في مقدوره خداعنا بهذه الحركات؟! هل صدّقت أنه أعمى؟ يفتعل ذلك لاستدرار العطف. الناس ما عادت تعرف كيف تبتكر وسائل الوصول للشهرة!». ردّ عليه صديقهُ: «يا رجل، هو ليس فناناً تشكيليّاً مثلكَ، في مطلع تجربتهِ. الرجلُ مشهورٌ ومعروفٌ، داخل وخارج البلد، وليس بحاجة إلى تعاطفكَ وتعاطفي وقصص وأساليب كهذه. إنه مريضٌ حقّاً، وليس بحاجة إلى التمارض».

نفسُ الشخصِ الذي شكّكَ في عمى هوازن، اقترب منهُ وصافحهُ وعانقه وقال: «أنا الفنان التشكيلي والناقد كامل دفترجي. أحييكَ على شجاعتكَ وإبداعكَ. أنتَ فنانٌ عظيم، ومفخرةٌ لهذه البلاد». وزادَ في المجاملات وأغدق من النفاق، ما جعل عيني صديقهِ الذي يرافقهُ، تجحظان من شدّة الصدمة والاندهاش بسبب مستوى التزلّف والتملّق والرّياء.

اضطرَّ هوزان إلى قطع سلسلة المجاملات بالقول: «الحياة

معرضٌ مفتوحٌ، يعرض فيه كل واحد منّا نفسه وبضاعتهُ من الأفكار والمواقف والإبداعات، إمّا للبيع أو للتداول والشيوع. كلٌّ واحد منّا يساهم بحصّته في تشويه الحياة وتقبيحها، وتجميل ذاته. كلٌّ واحد منّا يساهم بقسطهِ في التعمية على الحقيقة. أعتقدُ أن وظيفة الفنان ليست تجميل الحياة، أو تجميل ما نقترفهُ ويقترفهُ الآخرون من قبائح بحق الحياة. إذا كانت هناك وظيفة أو مهمّة أمام الفنان فهي أن يقلل من درجة تأثير التلوّثِ الثقافي والسّياسي والإنساني والقبح والسّموم على صيرورة وديمومة الحياة». تفاجأ المنافق بذلك الكلام، وشعر بأنّه موجّهٌ له. وأن أحداً نقل لهوزان تشكيكهُ في إصابتهِ بالعمى. أصابهُ الارتباك، ليس من الخجل والشعور بالذنب، بل من الخوف واحتمال المواجهة الصّريحة والمباشرة معه.

لقيَ المعرضُ نجاحاً كبيراً. بيعتِ اللوحاتُ الإحدى عشرة. حتّى اللوحة المنقوصة؛ الثانية عشرة، غير المكتملة، بيعت.

بعدَ مضي شهر، انفضَّ عنه أصدقاؤهُ الفنانون والنقّاد والصحافيون، لأنه ما عاد في وسعهِ إنتاج أعمالٍ فنيّةٍ. انكفأت عنه أضواء الشهرة وعدسات الكاميرات. نادراً ما يتصلُ به أحدهم من أصدقائه للاستفسار عن أحوالهِ والاطمئنان عليه. رضخَ لواقعهِ الجديد. شعرَ بشيءٍ من الامتنان للعمى الذي أصابهُ لأنهُ كشفَ له ما لم يستطع اكتشافهُ مُبصِراً. يقول لنفسه: عشتُ ما يزيدُ عن نصف عمري؛ 46 سنة، وما عاد يَهمُّني قضاء النصفِ الآخر، أو المتبقّي منهُ، أعمى. لا أعلمُ إن كانت الحياة هكذا، أم توهَّمها خلافَ حقيقتها. كأنّي بها حلبةُ سيركٍ كبيرة، نمارسُ فيها كل ما يمارسهُ لاعبو السيرك؛ السير على الحبال، القفز وممارسة البهلوانيّات

والألعاب الهوائيّة، رمي السكاكين، أو تلقّيها من شخص آخر. نفث النار من أفواهنا. اللعب مع النمور والأسود والفيلة. لعب دور المهرّج، أو ممارسة ألعاب الخفّة. نعم، باتت الحياة حلبة سيرك مفتوحة. نحن فيها اللاعبون والحيوانات والجمهور أيضاً. كلُّ واحدٍ منّا يعرفُ أنه مهما لعبَ دورهُ بإتقانٍ وتفانٍ كبيرين، فإن زميلهُ في مهنة السيرك، أو الجالسين على مقاعد الجمهور، يعرفون تماماً أننا نكذب عليهِم، وأعيننا على ما في جيوبهم. مع ذلك، نواصل هذه اللعبة. فقط كي نؤكّد على حضورنا في هذه المهزلة، وأننا جديرون بها. نعيشها بمتعةٍ وحرفيّةٍ عالية، لا يضاهينا فيها أحد. الحياةُ حلبةُ سيرك، يمكننا الدخول إليها، مرّةً واحدةً فقط. يمكننا فيها لعبُ عدّة أدوارٍ؛ كدور القرد، الكلب، الحصان، الفيل، النمر، المهرّج، البهلوان أو الساحر ولاعب الخفّة الذي يُخرجُ من تحتِ قبّعتهِ أرنباً، ومِن كُمّ بذلتهِ حمامة، أو يُخرجُ من جيب سروالهِ دجاجة...! هكذا نحن؛ سواء في الفنّ أو الأدب أو السياسة أو أيّ مجال من مجالات الحياة، محضُ لاعبي سيرك، لا أكثر. سنبقى هكذا، لأننا نعتبرُ الحياة، خيمة سيرك منصوبة لنا، إلى حين مجيء ذلك النيزكِ الذي سيطيحُ بخيمتنا، وبنا وبالجمهور أيضاً. لن يتركَ فرصةً لتصفية الحساب بين المخادعين والمخدوعين.

* * *

مواعيد متأخّرة

نجاحُ المعرض، وسعادةُ أمّهِ وزوجتهِ وأولادهِ التي رآها بعين قلبهِ، خلقا لديهِ الرغبةَ في التحدّي ومواصلةَ الحياة. ليس فقط لأن الحياة تستحقُّ أن يحبّها المرء، بل لأن هناكَ أشخاصاً يستحقّون أن يعيش لأجلهم. يمنحهم وجودهُ في حيواتهم السعادةَ والفرحَ والأمل. كي يثبتَ لنفسهِ وللآخرين أنهُ كان إنساناً منتجاً ومحبّاً للحياة، حين امتلكَ عينين مبصرتين، وسيكون في حياتهِ اللاحقة أكثر إنتاجاً وحميميّةً وتفاعلاً مع الحياة، بدون عينين أيضاً، اتخذ هوزان قراراً جديداً هو الانتماء لمجتمع المكفوفين. وذلك، بزيارة جمعيّة لرعاية المكفوفين، والتعرّف على أعضائها ونشاطاتها، وكيفيّة تعلّم القراءة والكتابة بطريقة «برايل». صارَ يساءلُ نفسهُ ويعاتبها؛ كيف لم يكن لديهِ صديقٌ واحدٌ مكفوف، حتّى لو كان عملهُ ومهنتهُ وتخصصهُ يتعلّقُ بالمبصرين؟! تشكّلت لديه شبكة علاقات وصداقات مع مكفوفين، من خلال زيارتهِ لـ«جمعيّة رعاية المكفوفين» في حي «المجتهد» بدمشق.

قبل افتتاح معرضهِ بأسبوع، اتصلت زوجتهُ بطبيب نفسي، واتفقت معهُ على موعد لزيارة عيادتهِ. كان الموعد على الساعة الثانية

بعد ظهر 28 تشرين الأول 2011. رافقتهُ سارا إلى عيادة الطبيب النفسي الموجودة في شارع «الباكستان» بالقرب من ساحة «عرونس». بعد الجلوس 5 دقائق في غرفة الانتظار، فتح الطبيب باب غرفتهِ. رحَّبَ بهما وصافحهما. طلبَ أن يتفضّلا بالدخول. جابت سارا بنظراتها في الغرفة الواسعة. تفاجأت بوجود إحدى لوحات هوزان القديمة في العيادة. لاحظ الطبيب ذلك. وضع يدهُ على فمّه ملمّحاً لها بالصمت وعدم الحديث عن ذلك. بعد جلوسهما على كنبة، كأنّهم في قعدة صالون، وليسوا في عيادة، كتبَ الطبيب على قصاصة ورق؛ «ألّا تُخبِرَ زوجها بوجود اللوحة، وأنه يعرفهُ». هزّت رأسها بالموافقة والقبول. باشر الطبيب فتح الحديث:

- أهلاً وسهلاً بكم، مرّة أخرى. أنا الدكتور أكرم الكردي. سعيدٌ جدّاً بزيارتكم أستاذ هوزان وأستاذة سارا. ماذا تحبّان أن تشربا؛ قهوة؟ شاي؟ شيء بارد؟

طلبَ هوزان فنجان قهوة سادة، بينما سارا طلبت عصيراً. عاد الطبيب للحديث:

- أرسلتْ لي مدام سارا كل التقارير عبر الإيميل، واطلعتُ عليها. اسمحوا لي بالقول: قرأتُ في دراسة علميّة أجريت في معهد علم النفس الطبي في جامعة «ماغديبرغ» الألمانيّة، عن وجود علاقة وثيقة تربط بين الإجهاد النفسي المستمر وفقدان الرؤية مع مرور الوقت. جاء في الدراسة؛ أن الإجهاد ليس مجرّدَ نتيجةٍ، أو عامل خطر ثانويّ فحسب، بل أحد الأسباب الرئيسيّة لفقدان البصر التدريجي الناتج عن أمراض معيّنة في العين كالغلوكوما أو المياه الزرقاء، والاعتلال العصبي البصري، والانتكاس البقعي المرتبط

بالشيخوخة، واعتلال الشبكيّة السكري، والتهاب الشبكيّة الصباغي، وغلوكوما الزاوية المفتوحة. لكن التقارير الطبيّة التي أرسلتها مدام سارا، لا تشير أبداً إلى إصابتكَ بأحد هذه الأمراض التي مع الإجهاد والتوتّر والاضطراب النفسي، يمكن أن تؤدّي إلى العمى. حتّى لو كانت هناك أمراض كالسكري مثلاً، لا يصاب المريض بالعمى فجأة، بل بالتدريج. حالات نادرة ومفاجئة، كحالة الأستاذ هوزان، هي التي تعتمد عليها مراكز الدراسات والأبحاث الطبيّة لتفسيرها ومعالجتها، وتفتحُ الأفق أمام أسئلة العِلم الجديدة. عموماً دعونا من هذه التنظيرات. نحن في جلسة تعارف وحسب. والمعلومات والبيانات والتقارير كلّها موجودة لدي. شخصيّاً، لا أعتبركَ مريضاً. ما رأيك؟ هل تجد نفسكَ مريضاً وبحاجة إلى علاج؟

- في البداية اعتبرتُ نفسي مريضاً. لأنني فقدتُ شيئاً، فجأةً، من دون سابق إنذار. فقدت جزءاً أساسيّاً من جسدي، أو فقدَ جزءٌ أساسيٌّ من جسدي وظيفتهُ. بفقدانِ العضو وظيفتهُ، صارَ وجودهُ كَعدمهِ. الألم النفسي الذي سببهُ لي هذا الفقدان، يصعبُ عليَّ وصفهُ. تجاوزتُ الألم. عُدتُ إلى مزاولة حياتي، من دون رسم. وجدتُ أموراً أخرى يمكنني الاستعاضة بها عن الفنّ والرسم. الأشياء التي فقدتها، لا تقدّر بثمن. كذلك الأشياء التي اكتسبتها، لا تقدّر بثمن. العمى ليس مرضاً. العمى حالة من حالات الإنسان. رُبَّما تولدُ معه، أو بعد ولادتهِ، وتبقى تلازمهُ حتّى الموت، أو رُبَّما تغادرهُ كي تعود إليهِ حالة الإبصار. العمى، ليس مرضاً، بل حالة من حالات الفقدان. كان يبصر، وفقد بصرهُ. كأنْ يفقد المرءُ يدهُ أو رجلهُ أو أبَهُ أو أمّه أو أحد أولادهِ...، لذا، لا أعتبر العمى مرضاً،

حتّى لو كان ناجماً من مرضٍ جسدي أو نفسي، كما تقول الدراسة التي أتيت على ذكرها.

أُعجبَ الطبيب بهذا التوصيف. حفّزهُ على الاهتمامِ أكثر وأكثر بهذه الحالة النادرة أصلاً. وهي الإصابة بالعمى من دون أسباب عضويّة جسديّة. زد على ذلك، أنه بعد مضي ما يزيد عن خمس عشرة سنة على فتحهِ عيادةَ الطبّ النفسي والمعالجة النفسيّة، هذا أوّل شخص أعمى يزور عيادته للعلاج. وأوّل فنان تشكيلي يزورهُ بقصد العلاج. وأوّل أعمى يطرح فكرة جديدةً قابلة للأخذ والردّ، وهي أن العمى ليس مرضاً.

- ممتاز، رائع. هل تسمحُ لي بأن أفهم سبب رغبتكَ بالمجيء إلى عيادة الطبّ النفسي؟

- أصبح عمري 46 سنة. قرأتُ كتباً كثيرة عن علم النفس، والأمراض النفسيّة. لم يسبق لي أن سألت نفسي: لماذا لم أراجع طبيباً نفسيّاً، كما أراجع طبيب الأسنان، أو الهضميّة أو القلبيّة أو أيّ طبيب آخر؟! عندما كنتُ خارجَ البلد، بقصد العلاج من العمى، طرحتُ على نفسي السؤال ذاته. رغم قناعتي بأنني لا أخلو من العقد والأمراض النفسيّة. وكلّ إنسان لا يخلو منها. أنتَ، إذا عرضتَ نفسكَ على طبيب آخر، ستكتشفُ عقدكَ النفسيّة التي ربَّما ما كنتَ منتبهاً إلى وجودها، أو هي خافية عليكَ!

شوف دكتور أكرم، كل واحد منّا يعاني نسبة معيّنة من الاكتئاب ونسبة من التوحّد، وربما مشاكل أخرى. هذه التي أسمّيها حالات، لا يمكن أن تزول مطلقاً من تكويننا النفسي، بالمعالجة النفسيّة. ترتفع النسب، تنخفض، لكن لا يمكنك إزالتها تماماً. إزالتها

بالمطلق، ستُحدث خللاً في التكوين النفسي للمرء. وجودها يشكّلُ ثراءً وغنى، وتساعدُ على استنهاض قدرات وملكات الإنسان وتحفيزها وتحريرها مما يعرقلها. أنا لم آتِ إلى عيادتكَ كي تخلّصني من هذه الحالات التي تسمّونها أمراضاً.

– إذن، لماذا أتيت؟! قالها الطبيب مندهشاً ومبتسماً.

– أتيتُ كي تساعدني على معرفة المزيد عن دواخلي. هي تجربة، لا خسارة من خوضها. وكل تجربة، حتّى لو كنتَ تعرف بأنكَ ستفشل فيها، لا خسارة من خوضها. الخسارة ليست فشلاً. الخسارةُ فقدان.

– ألا يكفيكَ ما تعرفهُ عن نفسكَ، قدراتكَ، خبراتكَ، عقدكَ، مشاكلكَ وحالاتك؟!

– لا طبعاً. لأن المرءَ مهما زعمَ أنه يعرفُ نفسهُ، سيبقى يجهلها.

– والحال هذه، ما سأقولهُ لك عن دواخلكَ، لن يزيل جهلكَ بنفسكَ!

– طبعاً، لكن ما ستقولهُ لي، سيقلل من مساحة جهلي بذاتي.

– ألا ترى معي أنكَ تفرطُ في الرغبة أو الحاجة إلى معرفةِ ذاتك؟ ألستَ معي أن هناك وجهاً سلبيّاً للعِلم ومعرفة الذات؟ وأن العلم يقيّد، وربَّما يسمم عليكَ حياتكَ، ويبعدكَ عن التلقائيّة والارتجال والعفويّة، ويخضعها لمفاهيم ومعايير معيّنة، هي حصيلةُ مساعدةِ الطبّ النفسي لكَ في كيفيّة معرفةِ نفسك؟! ألا ترى أن القليل من الجهل، مفيد وله سحرهُ، وربما يكون الملح الذي يحافظ على

عدم فسادِ التلقائيّة والعفويّة في حياتنا؟! شيء يشبه ما ذكرته الآن؛ القليل من الأمراض أو الحالات النفسيّة، مفيدة، وزوالها هو الضرر الذي يُحدِثُ خللاً في التكوين الإنساني!

– طبعاً وجود نسبة من جهل الذات مفيد للذات نفسها. ثم مَن قال لك: إنني أريد القضاءَ على جهلي بذاتي تماماً؟ ألم أقل: إن المرء مهما زعم معرفةَ ذاتهِ، سيبقى يجهلها؟ أريدُ تقليلَ مساحة الجهل وليس قتلها، ومحوها تماماً. لا أنا ولا أنت، ولغايةِ نهاية البشريّة، يمكننا سدّ الأبواب أمام جهلنا بأنفسنا. كل هذه الديانات والفلسفات والعلوم والمعارف والإبداعات والاختراعات شبه اليوميّة، لم تستطع القضاء على الجهل بالمعنى التقليدي، فهل سينجح الطبّ النفسي في القضاء على جهلنا بأنفسنا؟!

– إذن، تُقرُّ؛ أنكَ بحاجة إلى مساعدة! وتريدُ منّي مساعدتكَ في اكتشاف المزيدِ من ذاتكَ وأعماقكَ وتكوينكَ النفسي؟

– بالتأكيد. كلّنا بحاجةٍ إلى مساعدةِ بعضنا بعضاً. قبل لحظات، ذكرتَ أن حالات نادرة كحالتي، هي التي تثير أسئلة العِلم، وتحتاج إليها مراكز البحوث والدراسات الطبيّة. لا حياة بدون حاجة. وما مِن حاجةٍ لا يكون هدفها الحياة. الحاجة، لا يبطلها الإشباع، بل يحوّلها من طورٍ إلى آخر. الحاجةُ لا تعني الضَّعف. ومَن يقدِّمُ المساعدة للمحتاج، حتى يكفي ويشبع حاجته، لا يعني أنه قويٌّ يقدِّمُ العون للضعيف. أنتَ أيضاً بحاجة إليّ، كمرض أو حالة. الحياة هي في أحد أوجهها، تبادلُ حاجات بين البشر. حتّى الآلهة والأرباب، بحاجة إلى من يجعلها تحسُّ بربوبيّتها. لو لم يكن الأمر هكذا، لما كلّفت وأتعبت الآلهة نفسها بإرسال الأنبياء والرسل، وأرفقتهم

بالكتب والمصاحف والمعجزات، حتّى يقتنعَ البشرُ بأن هناك ربّاً، يجب أن يؤمنوا به، ويعبدوه، ويشعروهُ أن البشر مؤمنون به ومدينون له، ويحتاجون إليه، ويسعون إلى طاعتهِ ومرضاته.

أجوبة هوزان أشعرت الطبيب بالنديّة، وأنه بالفعل لا يناقش أو يتحاور أو يعالجُ مريضاً، بل إن وجودهُ والحديث معه، يحرّكان لديهِ أسئلةً وأفكاراً تستحقُّ التأمّل.

- اتفقنا. من خلال الحديث إليكَ، ستساعدني على اكتشافي دواخلي أيضاً. وبالتالي، نحن بحاجة إلى جلسات منتظمة وفي مواعيد محددة. أمامنا خمس جلسات، وإذا احتجنا إلى المزيد، فسنحدد مواعيد أخرى. هل يناسبكَ ساعة كل أسبوع؟

- لا. لا يناسبني. قالها ضاحكاً. هل يمكنكَ مضاعفة عدد الساعات، ساعتين أو ثلاث في الجلسة الواحدة من كل أسبوع؟

استغربَ الطبيب من طلبهِ، ووافقهُ! اقترح تعديلاً بأن تكون الجلسات مرّة في العيادة ومرّة في مرسمهِ. وتبدأ في السادسة حتّى التاسعة مساءً. وافق هوازن. اقترح أن تكون يوم الجمعة. لكن الطبيب، عقّبَ أنهُ في يوم الجمعة، تكون الشوارعُ متوتّرة والأمن منتشراً فيها، بسبب المظاهرات والاحتجاجات. رأى أن منتصف الأسبوع؛ الثلاثاء، مناسب أكثر لعقد الجلسات. قبل مغادرتهِ، أضافَ هوزان مقترحاً آخر على سير الجلسات، بأن تكون مسجّلة. وأن يكون موعد الجلسة الأولى في العيادة؛ الثلاثاء القادم؛ 1 تشرين الثاني 2011. رحَّب الطبيب بذلك ووافق.

* * *

صالة الانتظارِ فارغة. لا داعي للاستغراب. أصلاً عدد المراجعين قليلٌ جدّاً، رغم الأمراض والكوارث والأزمات النفسيّة والسياسيّة والاقتصاديّة التي تطفح بها مجتمعاتنا. قالها الطبيب، بعد فتحهِ البابَ وترحيبه بهوزان وزوجته اللذين وصلا العيادة قبل الموعد بخمس دقائق. قالها، ونسي أن مريضهُ لا يرى إن كانت الصالة فارغة أو ممتلئة أو فيها بعض المراجعين.

موسيقى كلاسيكيّة هادئة، بالكاد تُسمَع، تصدرُ من أجهزة الصوتِ الموجودةِ في زوايا الغرفة. رائحةُ بخور خفيفة جداً تشاركُ في تسييس المكان وتأثيثهِ وتهيئتهِ، توحي بأن عودَ بخورٍ احترق هنا، قبل لحظات، ورحلَ إلى رمادهِ، تاركاً عطرهُ ينوب عنهُ في الترحيبِ بالزَّائرَين، مضيفاً إلى الجلسة قيمة جماليّة. الجو يوحي بالطمأنة والاسترخاء وكأنّهُ معزولٌ عن محيطيهِ الذي يفيضُ بضجيجِ الاحتجاجاتِ والمظاهراتِ وأخبار سقوط ضحايا في المدن السوريّة.

عادةً ما يعاملُ الدكتور أكرم المرضى الذين يراجعونهُ، لزوم جلسات المعالجة النفسيّة، بهذه الطريقة. لذا، لا توجد عناية خاصّة بهوزان، رغم خصوصيّة حالتهِ. فقط الخصوصيّة في مدّة الجلسة التي ستستغرق ثلاث ساعات، وفي إمكانيّة أن تتحرّك سارا في العيادة كأنّها في بيتها، لتحضّر القهوة أو الشاي. جانب آخر يمكن قولهُ هنا: إن وجود شخص ثالث، مهما بلغت أهميّتهُ، أمرٌ غير مرحَّب به أو غير معتمد في جلسات المعالجة النفسيّة، إلّا في حالة الترجمة، إذا لم تكن هناك لغة مشتركة بين الطبيب والمُراجع. لذا، وجود سارا في الجلسة، استثنائي، لم تطلبهُ هي، ولا زوجها، بل اقترحهُ الطبيب، ووافق عليه هوزان. ليس مجاملةً لها، أو خوفاً منها، أو

خشية أن تفهم رفضه حضورها على نحو خاطئ بأن هناكَ أشياءَ لا يريدُ الزوج ذكرها أمام زوجتهِ. لذا، علّق الطبيب على ذلك بالقول:

- أحييكَ على هذه الصراحة والشجاعة بأن تشاركنا مدام سارا الجلسات.

- ولماذا تحييني على أمرٍ لا ينطبقُ على موافقتي؟ لا هي شجاعة، ولا هي صراحة، ولا هم يحزنون. الأمر جد عادي. مهما بلغت درجة الصراحة بين الزوجين على أنهما شريكا حياةٍ واحدة، دائماً هناك مساحة صغيرة، يحتفظ بها كل منهما لنفسهِ. الصراحة الشديدة في الحياة، يمكن أن تتسبب في تسمم العلاقات بين البشر، وبين الزوجين أيضاً. إذا لم يكن الإنسانُ واضحاً تماماً أمام ذاته، ويقضي عمرهُ في رحلة استكشافها، أتريدهُ واضحاً تماماً أمام زوجه أو زوجته؟! أعتقد أن نسبة 90 أو 95 بالمئة من التفاهم والحب والانسجام والاحترام بين الزوجين أو الشريكين، تكفي لأن تكون حياتهما سعيدة، ونسبة المشاكل فيها، تكاد تكون معدومة. برأيي؛ السعادة الزوجية، غير مقترنة بانعدام الخلافات والمشاكل الأسريّة بشكل مطلق. مهما تكن صريحاً مع زوجتكَ، سيبقى لديها نسبة من الشكّ على أنكَ تخفي عنها شيئاً أو أشياء. وكذا الحال بالنسبة للزوجة، مهما حاولت أن تكون صريحة معكَ، سيبقى يساورك هامش من الظنّ والشكّ؛ أن ما تقولهُ أو قالتهُ لك، ليس كلّ الحقيقة. هذا ليس عيباً، أو مسيئاً للعلاقة. إنه من طبائع الأمور. الحقيقة الكاملة، إمّا تكونُ كالنورِ المبهر الشديد السطوع، إن نظرتَ إليه، تفقدْ بصركَ. وإمّا تكون شديدة المرارة والسُّميّة، إن تجرّعتْها، تَمُتْ فوراً.

- إذن، أنتَ مع أنَصافِ الحقائق؟

- لا . أنا مع جلِّ الحقيقة، وليسَ كلّها؛ مئة بالمئة. الخطأُ حقيقة، والصوابُ حقيقة. ولأن الحياة قوامها الاحتمالات والتحوّلات والمصادفات. دائماً لدي هامشٌ للخطأ في حقيقةٍ جدّ صائبة، وهامشٌ للصواب في حقيقةٍ جدّ خاطئة.

هزَّ الطبيبُ رأسه، مع زمٍّ شفتيهِ، في إشارةٍ منهُ بالإعجاب والاستغراب. ذكرَ أنهُ سيحاولُ ألّا تكون الجلسات تقليديّة؛ تجمعُ طبيباً ومراجعاً، بل حواراً مطوّلاً، يناقشان فيه أفكارَ هوزان، أثناءَ حديثِهِ عن سيرتِهِ، وتطوّر شخصيّتِهِ. توقّف هنينةً، ثمَ أضاف:

- اليوم هو الأوّل من تشرين الثاني. يحتفلُ فيهِ الجزائريون بذكرى ثورتهم على الاستعمار الفرنسي سنة 1954.

- علاقتي بالثورات، مشوبة بالحياد والحذر والقلق. لا أكرهها، ولا أستطيع أن أحبّها. جدّي من جهة أمّي؛ الشاعر الروسي يوري روبينسكي، كان أحد مؤيدي ومناضلي الثورة البلشفيّة، وأصبح أحد ضحاياها. أبي؛ أحدُ المقاتلين الكرد الذين عايشوا ثورتين كرديتين في كردستان إيران سنة 1946 وكردستان العراق سنة 1961، ولكنه هجرَ كل الكلام الرومانسي عن الثورات، واستقرّ في دمشق. وحصلَ على الجنسيّة السوريّة، بالرشوة، لأن الحكومة في ذلك الوقت، وأقصد مطلع الستينات، جرّدت عشرات الآلاف من الكرد السوريين من جنسيّتهم السوريّة، لأسباب سياسيّة.

لا أحبُّ الثورات، ولا أكرهها. لا أقف معها، ولا أسمح لنفسي بأن أكون ضدّها. أنا ضدّ قمع الحريّات ومصادرة الحقوق

الفرديّة والجماعيّة. ضدّ الاستبداد، ومع حقوق الإنسان والحيوان والنبات والألوان والطبيعة. إذا كُنتَ تفسّر موقفي هذا بأنه مع الثورات، فلكَ ذلك.

- إذاً، بما أنكَ شديدُ التأثُّرِ بموقف والدكَ من الثورات، كما بدا لي من كلامكَ عنهُ، لنبدأ رحلة الذكريات من هناك، من عند والدك.

قالها الطبيب وكأنّهُ التقط رأس الخيط، الذي سيقودهُ إلى سبر دواخل المريض. أخذ هوزان تنهيدة عميقة، وبدأ بسرد حكاية والدهِ شالاو حمه عبدالمقصود القادري الكسنزاني، بطريقة سرديّة أدبيّة شيّقة، تنمُّ عن موهبة في الحكي. لأكثر من ساعتين وهو يحكي ويحكي، ولم يحاول الطبيب مقاطعتهُ بسؤالٍ أو تعليقٍ أو ملحوظات اعتراضيّة، إلى أن اعتذر منهُ على أنهم تجاوزوا الوقتَ المخصص للجلسةِ بخمس دقائق. وعليهِ مغادرة العيادة، والتوجّه إلى منزلهِ.

اتفقوا أن تكون الجلسة القادمة في مرسمهِ، يوم الثلاثاء 8 تشرين الثاني 2011، على الساعة السادسة مساءً. أثناء الخروج من العيادة، أبدى الطبيبُ إعجابهُ بأسلوبهِ القصصي والروائي في استحضار ذاكرتهِ التي هي جزءٌ من الذاكرة التي ورثها عن أبيهِ، وسأله:

- هل فكّرتَ في الكتابة؟

- سابقاً، لا.

- لماذا؟

- كنت أجد نفسي غير نافعٍ فيها. ولن أضيف شيئاً إلى ما كتبهُ آخرون، قرأتُ لهم. حاولتُ قدر استطاعتي الاشتغال على يدي وتصقيل حركتها وحساسيّتها كي تكون شغوفة بملاحقة حركة خيالي.

الآن، بعد أن دخلت حالةَ فقدانِ البصر، بات ممكناً التفكير في ضرورة التوجّهُ إلى الكتابة. حين اقترحتُ عليك تسجيل جلساتنا، الغاية من ذلك، مراجعة التسجيلات في ما بعد. رُبَّما أخرجُ منها بسيرة ذاتيّة أو رواية أو أيّة أفكار أخرى.

- تقصد اللجوء إلى الكتابة كنوع من العلاج واسترداد التوازن النفسي؟

- أصلاً لم أكنْ متوازناً تماماً، وليس هاجسي وهدفي أن أكون متوازناً تماماً. لا أريد أن أكون ربّاً. حتّى الأرباب كائنات خفيّة غير متوازنة. حاولتُ التعبير عن قلقي وهواجسي ومشاعري وأفكاري وخيالي بالرسم. فقدتُ تلك الوسيلة، وبات لازماً عليَّ إيجاد وسيلة أخرى للتعبير عن تلك التراكمات. هذا كل ما في الأمر. بالرسم والألوان، أفرغتُ شحناتِ التوتر واحتباس الآلام تجاه الظواهر والمشاكل التي اعترت حياتي. حاولتُ التعبير عن مستوى استيعابي وفهمي وتفاعلي مع تلك المشاكل. أعتقد أن الكتابة أيضاً، إذا أصبحت ملجأي وملاذي، ستنحو نفسَ المنحى.

بعد عودتهِ إلى منزلهِ، طلب من زوجته أن تُسمعهُ تسجيل الجلسة، قبل ذهابهِ للنوم. تفاجأ بوجود معلومات جديدة مضافة، تختلف عن المعلومات التي قالها له والده. أظهر التسجيل، أنه ذكر بأن والدهُ من مواليد كركوك 1929، وليس «حاجي عمران» 1930، وأنهُ سافر إلى «حاجي عمران» واستقرّ هناك، نتيجة خلاف عائلي، وليس لأن أجدادهُ غيّروا طريقتهم الصوفيّة من القادريّة الكسنزانيّة إلى النقشبنديّة. وأن جدّهُ لم يكن إمام مسجد، بل عمل في التهريب عبر الحدود العراقيّة - الإيرانيّة، وأن جدّته لم تكن تغسل الموتى. وأن

اسم أمّه التي تعرّف عليها والده في «طشقند» لم تكن أولغا بل فالنتينا روبينسكي. ومعلومات أخرى مختلفة عن التي قالها له والدهُ، تسرّبت إلى كلامهِ أثناء حديثهِ عن سيرةِ أبيهِ شالاو حمه عبدالمقصود الكسنزاني. صار يسأل نفسه، كيف ولماذا حدث ذلك؟ كيف تسرّبت هذه المعلومات الجديدة إلى سرده حكاية أبيهِ للطبيب النفسي؟! طلب من سارا تدوين هذا السؤال، لئلا ينساه، ويطرحه على الطبيب، في نهاية الجلسة القادمة.

* * *

حفلة عميان

بعد زيارتهِ «جمعيّة رعاية المكفوفين» وتعرّفهِ على أنشطتها، وقرارهِ الدخول في دورات تعلم لغة «برايل»، تشكّلت لديهِ علاقات مع بعض المكفوفين. سرعان ما اتسعت وأصبحت تضمّ خمسة عشر شخصاً، بينهم أربع نساء. يتواصل معهم. يهاتفهم. يلتقي بهم سواء في الجمعيّة أو في النشاطات التي تنظّمها. أحياناً، يتبادل معهم الزيارات. برقت في ذهنهِ فكرة دعوتهم إلى بيتهِ للتعارف وتقوية العلاقات الاجتماعيّة بينهم. اتّخذَ من ذكرى ميلادهِ الذي يصادف الخامس من تشرين الثاني 1965، حجّةً لتبرير تلك الدعوة. وافق على الحضور عشرة من أصدقائه الجدد؛ النساء الأربع، وستة رجال.

فناءُ منزلهِ واسع، إلّا أنهُ لا يمكن أقامةُ الحفل فيه، بسبب البرد واحتمال سقوط الأمطار. استأجرَ صالة صغيرة، ليست بعيدة عن منزلهِ، تتسع لخمسين شخص. ذلك أنهُ توقّع أن كل ضيف، رُبَّما يأتي معهُ مرافق، ويصل عدد الحضور إلى نحو 30 شخصاً. لم يكن في مقدور الجدّة أولغا الحضور، بسبب اعتلال صحّتها. اضطرت زوزان إلى البقاء معها في المنزل. هوزان وزوجته وولداه، وأصدقاؤه العشرة، ومرافقوهم، وصل عددهم إلى 27 شخصاً.

قبل بدء الحفل، داهمت دورية أمن مكان الاحتفال. صار الضابط يتحدّث بتوتّر مشوب بالعنف عمّا يجري هنا. سمعهُ أحدُ المكفوفين المدعوين. حاولت سارا إفهام الضابط بأنه مجرّد احتفال عيد ميلاد زوجها. صرخ الضيفُ المكفوف متّجهاً بوجهه صوب الجهة التي يأتي منها صوت الضباط، وقال:

- لك يا حيوان، أنت أعمى شي؟! مانك شايف أنه كلنا عميان هون. لعمى بعيونك وعيون يلي بعتك، ما أحونك!

استفزّت شتائم الرجلِ الضابطَ فدخلَ عنوة، من دون استئذان، وجاب بنظرهِ المكان وعاينهُ. اقترب من صاحب الصوتِ العجوز وقال له: «يا حجي، نحن هنا مشان حمايتك وحماية أمثالك من الأوادم. مانك شايف البلد كيف مستهدفة بالمؤامرات والدسايس؟» قالها واضعاً يدهُ على كتفِ الرجل المسنّ. استشاط العجوزُ غضباً أكثر. أزاحَ يدهُ بعنف عن كفتهِ. وقال: «أنت وأمثالكَ عم تحموا أسيادكم، وما عم تحمونا وتحموا البلد. لما كنت عم أحارب إسرائيل سنة 67 في الجبهة، وراحت عيني اليمين، أسيادك كانوا عم يبيعوا البلد لإسرائيل. بقا اخرس، وانقلع من هون».

شعر هوزان بدنو خطر وشيك. اضطر إلى النهوض عن كرسيهِ بمساعدة ولدهِ، والاتجاه نحو الضابط وتوسّلهِ بمغادرة الصالة. خرجَ الضابطُ كأنّه مِرجلٌ يغلي من الغضب. بودّهِ الإمساكُ بخناق العجوز، وعدم تركهِ إلّا بعد خروج روحهِ من جسدهِ.

حاولَ إعادة الهدوء إلى الصالة والحضور. شكرَهم على تلبيتهم دعوتهُ. اعتذرَ لهم عما حصل قبل لحظات. اقترحَ عليهم أن يعرّفَ كلُّ شخص بنفسه. وسيطوف ولده آزاد على الجميع، واضعاً يدهُ على

كتف كل واحد، كي يبدأ بتقديم نفسهِ مع نبذة مقتضبة عن حياته. وبدأ بنفسه:

– هوزان الكسنزاني، مواليد دمشق، 1965، فنان تشكيلي، متزوّج، ولي ثلاثة أبناء؛ ولدان وبنت. زوجتي أيضاً فنانة ونحاتة. فقدتُ بصري، قبل أشهر، لأسباب مجهولة، لم يكتشفها الأطباء بعد.

– أولاً، أعتذر عن الإزعاج الذي تسببتُ به لكم. اسمي فاروق محمد علي البرازي. عمري 68 سنة. كنتُ برتبةِ ملازم أوّل أثناء حرب 67. فقدتُ إحدى عيني فيها. تمّ أسري من قبل الإسرائيليين، لأننا رفضنا أوامر وزير الدفاع حافظ الأسد بالانسحاب من الجولان والقنيطرة. أُطلق سراحي مع الـ572 أسيراً سورياً، مقابل طيّار إسرائيلي وجثث ثلاثة جنود إسرائيليين! تصوّروا؛ 572 أسيراً سورياً، مقابل ضابط طيّار وجثث ثلاثة جنود إسرائيليين! عدتُ للجيش بعين واحدة، بعد نيلي وسام الشجاعة. حصلت على ترقية. شاركت في حرب تشرين سنة 1973 أيضاً، وأُسِرتُ مرّة أخرى. كان اسمي موجوداً لدى الإسرائيليين في سجلات أسرى 1967، فقال لي ضابط محقق، بعربيّة مكسّرة؛ «لحسن حظّك، لم تُقتل برصاصنا». يا ليتني قُتِلتُ برصاصهم، لكانَ أفضل من العيشة التي عشتها لاحقاً. قالها ضاحكاً، ثم عاود كلامهُ: أطلقوا سراحي في 6 حزيران 1974 مع 392 أسيراً سورياً، وعشرة عراقيين، وستة مغاربة، مقابل إطلاق سراح 58 أسيراً إسرائيلياً. وقتذاك، حصلت على وسام شجاعة ثانٍ، ورقّيت إلى رتبة عقيد. حرب تشرين وصفها العرب بأنهم انتصروا على إسرائيل! العرب لم ينتصروا على إسرائيل حتّى هذه اللحظة. بل

استعادوا جزءاً من أراضيهم التي احتلتها إسرائيل. ليس انتصاراً أن تستردَّ جزءاً من أرضك. الانتصار الحقيقي أن تعيد الأوضاع إلى ما قبل 1948، بل قبل 1917. مجرّدُ عبورِ قناة السويس وخطوط الدفاع الإسرائيليّة، واستعادة سيناء، اعتبرها المصريون انتصاراً. مجرّد استعادة القنيطرة، اعتبرها حافظ الأسد انتصاراً. يمكن لإسرائيل وصف فقدانها أجزاء من الأراضي التي احتلتها بالهزيمة. لكن، لا يحقّ للعرب وصف استرداد جزء من أراضيهم التي فقدوها سنة 1967 وقبلها سنة 1948، بالانتصار. كما قلت لكم: النصرُ ليس أن تستردَّ أرضاً هي أصلاً أرضكَ، بل أن تضيفَ أرضاً إلى أرضكَ. المُحتلُّ دائماً هو المُنتَصِر. عموماً، أدمنا الحديث عن المفاخر الكاذبة والتقليل من الهزائم وتسميتها بـ«نكبة» و«نكسة»، وتضخيم ما استعدناهُ على أنه انتصار تاريخي!

سنة 1980، اعتقلني نظام حافظ الأسد، وزجَّ بي في السجن، بتهمة الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين، رغم أنني يساري، وأشرب الخمر، ونسونجي. فقط لأن بعض قيادات الإخوان كانوا من عائلة البرازي. لم أخرج من السجن، إلّا بعد إصابة عيني الأخرى بالعمى سنة 1997! يعني سبع عشرة سنة في سجون الأسد، بعد خوض حربين ضدّ إسرائيل، ويأتي هذا الحيوان ويقول: إنه يحميني!! طبعاً، سجون إسرائيل، وأنا أسير حرب فيها، أفضل آلاف المرّات من سجون حافظ الأسد. أقولها بأمانة وللتاريخ، وأنا ضدّ إسرائيل، حتّى آخر لحظة في حياتي. إذا اندلعت الحرب بيننا الآن، سأحاربها مجدداً، وأنا أعمى. هذه ليست كراهية أو معاداة للساميّة. لو ولدتُ منتصف الثمانينات أو مطلع التسعينات، رُبَّما كنتُ متسامحاً

أكثر ومتعايشاً مع الاحتلالات، ومبرراً لها، تحت مسمّيات لا حصر لها. لكنني ابن الماضي، وهذه عقليتي وطباعي. أفسدتنا وأتلفتنا الأفكارُ والشعارات الكبرى، ويستحيلُ إصلاحُنا.

حاول هوزان تهدئتهُ، وشَكَرَهُ على صبرهِ.

- يوسف يعقوب إبراهيم. عمري 26 سنة. طالب سنة رابعة في كلية الآداب، قسم اللغة العربيّة بجامعة دمشق. منذ فتحتُ عينيّ على الدنيا، وأنا أعيش في ملجأ الأيتام. ولدتُ أعمى. لا أعرف شيئاً عن أسرتي؛ أبي وأمّي، وهل لي إخوة أم لا؟ مديرُ الملجأ، جزاه اللّه خيراً، وجدني أمام بابهِ. هو من أطلق عليّ هذا الاسم الثلاثي، واستخرج لي شهادة ميلاد، واستكمل الأوراق الثبوتيّة الأخرى. لا أعرف إن كنتُ مسلماً أو مسيحيّاً أو يهوديّاً أو إيزيديّاً. لا أعرف شيئاً عن عرقي أو قوميّتي. ويمكن أن تعتبروني كائناً محايداً تماماً عن الأديان والقوميّات.

- حسن علي الجبلاوي. عمري 40 سنة. بسبب عجزي عن الانتحار، أو قتل أبي الذي كان يجبر أمّي وأختيَّ على الدعارة، فقأتُ عيني، وهربت من البيت منذ 25 سنة. لجأتُ إلى دمشق. لدي بسطة صغيرة، أبيعُ عليها السجائر والجوارب والعلكة والولاعات في سوق الحميديّة. متزوّج، ولي طفلان.

- داوود ججو ملكي. مواليد القامشلي 1969. ولدتُ شحيح البصر. حاولت أن أدرس، فشلت في الدراسة. لم أجد شيئاً يناسبني كي أعملهُ. دخلت سلك الرهبنة، وفشلت. لم يرضَ أحد تزويجي، بسبب إعاقتي. فشلت حتى في أن أكون أعمى. كما ترونني، لست محسوباً على المبصرين ولا على العُمي.

حاول العم فاروق ترطيب الأجواء ممازحاً، وقال: «وكيف بدك يانا نشوفك، ونحن كلنا عميان!؟ قال شو؟ قال كما ترونني قال!». فتعالت القهقهات، واختلطت.

– جمال عبدالناصر محمود المغربي. أعملُ في فرن تابع للدولة. أضع أرغفة الخبز في الأكياس المخصصة لكل ربطة خبز. لا أعرف؛ من أين أتت كنية المغربي. ربما كان جدّي أحد المغاربة المجنّدين في الجيش الفرنسي الذي احتل سوريا. أو ربما كان أحد التجّار المغاربة الذين استقرّوا في مدينة حماة. لكن ما أعرفهُ أن والدي أطلق عليَّ اسم جمال عبدالناصر، لأنني ولدتُ بعد موتهِ بثلاثة أيّام، في 1 تشرين الأول 1970. طلبَ مِن أمين السجلّ المدني تدوين الاسم. ظنّ الرجل أنه يقصد جمال، وأن الكنيّة؛ عبدالناصر. ردّ عليه بالقول: لا. ضَعِ الاسم كاملاً. واسم الأب؛ محمود، والكنية؛ المغربي. اندهش الرجل، ووافق على طلبهِ.

كان والدي يحتفظ بصورة تذكارية، يظهر فيها جمال عبدالناصر، يخطبُ في قاعة مليئة بالحضور، عُلِّقَتْ فيها لافتة كبيرة مكتوب عليها «أهلاً بك في حماة يا باعث القوميّة العربيّة». وضع الصورة في إطار، وعلّقها على جدار المنزل. دائماً، يُنزل الصورة من الحائط، ويحدّثني عن تفاصيلها؛ وأنه ذلك الرجل الجالس في الصف الرابع. يرتدي بذلة أنيقة. وأن عبدالناصر قال كذا وكذا في الاجتماع. يتحدّثُ عن مشاعرهِ في تلك اللحظات، وكأنّ الاجتماع جرى يوم أمس. كان يفعل ذلك، قبل وبعد إصابتي بالعمى. لم أكن أفهم شيئاً من مشاعرهِ، وكذلك والدي ينسى دائماً أنني أصبتُ بالعمى، ولا أرى تفاصيل الصورة. قبل أن يموت بسنتين، أصيب هو أيضاً

بالعمى، بسبب مرض السكري. مات عن عمر يناهز الخامسة والسبعين، ودفن في دمشق، بعد انتقالنا إليها، عقب مجزرة حماة سنة 1982. أنا من ضحايا المجزرة. أصبتُ بالعمى في الثانية عشرة من عمري، نتيجة شظايا قذيفة انفجرت في منزلنا، أودت بحياة أخي، وأفقدتني عينيّ. لم نعرف؛ هل كانت قذيفة النظام؟ أم قذيفة الإسلاميين؟

- منّان عبدالكريم قيبارو. مواليد حلب 1969، خرّيج المعهد العالي للموسيقى بدمشق. عازف ناي وقانون وعود وبزق. أعمل في فرقة موسيقيّة، لأحد كازينوهات دمشق. أصبت بالعمى قبل عشر سنوات، نتيجة حادث مروري. صدمة قوية على الرأس والوجه، أدّت إلى انفصال شبكيّة العينين تماماً.

قاطعهُ العم فاروق، وقال: «نيالك. أنت في جو الرقص والفقص والموسيقى والهشكبشك!». ضحك منّان وأجابهُ: من وين يا حسرة. كيف للأعمى، أن يرى حركات جسم الراقصة!؟

- يكفيك أنك تشمّ عطرهنّ، وتتخيّل أجسادهنّ تتمايل وتهتزّ على إيقاع وأنغام الموسيقى التي تعزفها! ردّ عليه فاروق.

- إن كنتَ تكتفي بشمّ عطرهنّ وتخيّل حركاتهنّ، تعال، سأعزمكَ على حسابي.

ضحك الجميع. قال آزاد: «جاء دور السيّدات». ولأن إحداهنّ شعرت من خلال صوتهِ، أنه يقف خلفها، بدأت هي الحديث:

- زينب جعفر الأمين. مواليد دمشق 1978. ولدتُ عمياء. أحبّ الغناء، وأحلم أن أصبح مطربة في يوم من الأيّام.

قاطعها فاروق وقال: صوتك وأنت عم تحكي، كتير حلو. أكيد وأنتِ عم تغني راح يكون أحلى!؟ لازم تسمعينا شي في هاي الحفلة. وصديقنا العازف الموسيقي موجود كمان. بس قبل كل شيء؛ أنت محجّبة؟ ولا لاء؟!

صدرت من الفتاة ضحكة رقيقة وعذبة ومهذّبة، وقالت: «يا عمو فاروق، كتير بيهمّك تعرف؟ يعني شو راح يفرق معك، إذا عرفت أنني سافرة أم محجّبة؟! ما أنت أصلاً لن ترى شعري وملامحي؟!». ردّ عليها العمّ فاروق: «صحيح يا بنتي، بس بتصوّري، راح تكوني أحلى بدون حجاب. عم نمزج يا بنتي. مرّ عليّ نسوان، قد شعر راسي».

- يا أستاذ فاروق، شو قَدْ شعر راسك، اللّه يرضى عليك!؟ إذا عُمرك كله قضيته في الحروب والسجون والمعتقلات!!؟ ردّ عليه هوزان. ودبَّ الضحك مجدداً في المكان.

- ديانا رزق اللّه جرجس. مواليد حمص 1969. متزوجة، ولي أربعة أولاد. زوجي مهندس ويعمل في المقاولات. ولدتُ عمياء.

- أسماء عبدالوهاب النابلسي. مواليد دمشق 1986. طالبة في كلية الآداب بجامعة دمشق، قسم اللغة الإنكليزيّة. ومحجّبة يا عمو فاروق!

ضحك الجميع مرّة أخرى من هذه المداعبة. وقال آزاد: الآن، دور الضيفة الأخيرة، كي تعرف السيّدة والآخرون أن التعارف على وشك الانتهاء.

- فرح سعيد العريس.

- قاطعها العمّ فاروق، قائلاً: اللّه اللّه، ما هذا الاسم الجميل؛ فرح، وسعيد، والعريس! يا سلام على هذا الترتيب والتناسق.

وبعد انتهاء التصفيق، عاودت السيّدة كلامها بصوتها العذب الشجيّ والمترع بالأنوثة والرقّة، ويوحي أنها في مقتبل العمر. شكرَتِ العمّ فاروق وقالت: أنا من مواليد دمشق، 1965 في حيّ ركن الدين. سنة 1979، انتقلنا إلى حيّ مشروع - دُمّر، ليس لأن أبي يملكُ شقّة أو فيللا هناك، بل لأنه عامل باطون عَمل في ذلك المشروعِ السكني الجديد وقتذاك. بعد انتهائه، أصبح بوّاباً لإحدى العمارات هناك. سكنا قبو العمارة. لم أذهب إلى المدرسة لأنني ولدتُ كفيفة. ما إن أصبح عمري 18 سنة، زوّجني أبي من زميل له، يكبرني بستّ عشرة سنة، يعمل بوّاباً في عمارة أخرى. لم أبقَ عنده أكثر من سنتين. التحاليل أكّدت أنني عاقر، ولن أنجب له أطفالاً. بحثتُ عن جمعيّات ومنظمات لرعاية المكفوفين. تعرّفت على الجمعيّة التي تضمّنا. تعلّمت فيها طريقة «برايل» وحصلت على شهادات الابتدائيّة والإعداديّة والثانويّة، في زمن قياسي. سجّلت في الجامعة، كليّة الفلسفة. وتخرّجت. أردت إكمال تعليمي العالي، وحصلت على الماجستير. ذهبت بمنحة من الدولة إلى بلجيكا لدراسة الدكتوراه في جامعة «لوفان» الكاثوليكيّة (Katholieke Universiteit Leuven)، وحصلت عليها بدرجة جيّد جدّاً. حاليّاً أدّرسُ الفلسفة الغربيّة في جامعة دمشق.

ارتفع صوت التصفيق والـ«واو» إعجاباً واحتراماً وتقديراً لتجربة الدكتورة فرح سعيد العريس. مازحها العمّ فاروق وقال: «تتجوّزيني؟ واللّه ما راح خليكي تنامي الليل من كتر ما راح احكي لك عن

سبينوزا، وهيغل، وماركس، ونيتشه، وهيدغر، وفوكو... أنت بس جربيني وراح تشوفي مهاراتي الفلسفيّة! ومو مشكلة إذا كنتِ محجّبة كمان!». انتابت الجميع موجة ضحك عارمة، تفاعلاً مع دعابة العم فاروق.

عاد هوزان إلى الكلام والترحيب بالجميع. ذكر أنه لا توجد في الحفلةِ طقوس أعياد الميلاد وإطفاء الشمع. هناك كيك وحلويات وكل ما يحبونهُ. قاطعهُ العم فاروق معترضاً ومبتسماً: «يا أخي أنت ليش تأخذ المبصرين هون بجريرة المكفوفين؟! بلكي هم بدهم؛ شموع وسنة حلوة يا جميل، وهيك شغلات؟! من جهة تانية، أنتَ ليش ما خليتنا نتعرّف على المبصرين الموجودين هون، ولا بسّ العميان لازم يعرفوا حالهم، والمفتّحين لاء! هذا ظلم! راح يتهموك أنك انفصالي، وعم تفضّل العميان على المبصرين! وأنتم الأكراد، أصلاً لاحقتكم تهمة الانفصاليّة من المهد إلى يوم القيامة».

استجابةً لرغبة العم فاروق، عرَّفَ كل شخص مبصر موجود هناك بنفسه. ثم ردد الجميع معاً أهزوجة: «سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة يا هوزان».

طرح هوزان فكرة غريبة للنقاش معترضاً على مقولة؛ «لا يستطيع أعمى أن يقود أعمى وإلا كلاهُما وقعا في حفرة» المنسوبة للمسيح، الواردة في إنجيل متّى، وحوّلها الفنان الفلامنكي البلجيكي؛ بيتر بروخيل دو آوده (Pieter Bruegel de Oude)، إلى لوحة فنيّة سنة 1568. وأن تلك المقولة غير دقيقة. وقال: تاريخ البشريّة يُشير إلى ما فعلهُ المبصرون حين استلموا إدارة البلدان والممالك، وكيف

كبّدوا البشريّة كل هذه الحروب، الفتن، الاغتيالات، التوحّش، الحيونة، الدمار، الخراب والعداوات! لا يشير التاريخ إلى أن ملكاً أو زعيماً أو سلطاناً أو رئيساً من أولئكَ المتصارعين كان كفيفاً. ليس هذا وحسب، بل على مستوى رؤساء الحكومات والوزراء، لم أعثرْ على اسم شخص كفيف أو كفيفة، أكانَ رئيس حكومة أو وزيراً، باستثناء طه حسين، الذي عيّن وزيراً للمعارف في حكومة مصطفى باشا النحّاس سنة 1950. حتّى أن دساتير أغلب الدول، المادة المتعلّقة برئاسة الدولة فيها، تقضي بضرورة أن يكون الرئيس سليماً جسديّاً وعقليّاً. طبعاً، ضروري أن يكون مُتمتّعاً بالسلامة العقليّة، لكن ما المشكلة إذا كان بيد واحدة، أو بساق واحدة، أو عين واحدة، أو كفيفاً؟ ليس هذا وحسب، بعض الدساتير، رغم أنها لا تشير إلى ضرورة أن يكون رئيس الدولة رجلاً، إلّا أن تكرار كلمة «رئيس» في مواد الدستور المتعلّقة برئاسة الدولة، تشير إلى ذكوريّة، وتمييز عنصري على أساس الجنس، بالإضافة إلى تمييزات أخرى، قوميّة ودينيّة.

بخلافِ عاداته وتقاليدهِ الظريفة في المقاطعة، انتظر العمّ فاروق هوزان حتّى يكمل فكرته، ثمّ ردّ عليهِ بالقول:

- قلبتها محاضرة، أستاذ هوزان. ولسنا هنا كي نتداول في أحوال الخراب والدمار الذي أحدثه ويحدثهُ المبصرون العميان في هذا العالم. يا أخي أؤكّد لك، لو كان أبو العلاء المعرّي أحد خلفاء الراشدين أو أحد خلفاء الدولة الأمويّة أو العبّاسيّة أو الفاطميّة أو الأيوبيّة، لكان الخراب الحاصل في زمنهِ، أقلّ. أؤكّد لك أيضاً، لو استلم طه حسين رئاسة مصر أو سوريا، أيضاً لكان الخراب السياسي

والثقافي أقلّ. كيف الأعمى لا يقوده الأعمى؟! إذا كان طه حسين قادراً على قيادة ملايين المبصرين بأفكاره وأدبه، والشيخ إمام وسيد مكاوي قادرين على قيادة الملايين من المبصرين بألحانهما وأغانيهما، هل سيصعب عليهما قيادة العميان؟!

يا أخي، حواريو المسيح الاثنا عشر، لا وجود لأعمى بينهم! ستقول لي؛ إن المسيح كان يشفي العميان! غير صحيح. كذلك، المشهور من صحابة النبي محمد، ولا واحد منهم أعمى. الإئمة الاثنا عشر عند الشيعة والعلويين، لا يوجد واحد بينهم أعمى. يا أخي الظلم والتمييز اللاحق بالعميان، قديم وليس وليد المئة عام الماضية.

أبوس أيدك، دعنا نسمع صوت زينب وعزف منّان على العود أو البزق، أفضل بكثير من هذه السخافات والخرافات.

علّقت الدكتورة فرح بالقول: «الناسُ أجناس؛ عُميٌ، يبصرون ولا يتبصّرون. وصمٌّ، يسمعون ولا ينصتون. وبكمٌ، يتفوّهون ولا يفقهون. كوارث الحياة والإنسانيّة من ممارسات هؤلاء».

طلب منّان العود من صديقهِ الذي يرافقهُ. بدأ يعزف تقاسيم من مقام البيات. اتجه نحو الراست ثم مقام الكُرد. عاد إلى البيات. طلبت زينب منه الانتقال إلى مقام الحجاز، تمهيداً لغناء موّال «يا من هواه أعزّهُ وأذلّني . . كيف السبيل إلى وصالكَ، دلّني». بعدهُ، غنّت «ومن الشبّاك لأرميلكَ حالي»، وغنّى معها الجميع. حين انتهت، صفّقوا لها وأثنوا على صوتها وأدائها، وطالبوها بالمزيد، فاستجابت وغنّت. حال شعورها بالتعب، توقّفت.

سألها هوزان: هل تعرفين لمَن كلمات الموّال «يا مَن هواهُ أعزّه وأذلّني»؟ فردّت بالنفي. أجابها يوسف أن الكلمات لسعيد بن أحمد بن سعيد البوسعيدي؛ ثاني الأئمة البوسعيدين الأباضيين في عُمان.

قال العمّ فاروق: «شفت أستاذ هوازن، ما أحلانا، كل واحد من منطقة سوريّة، مجتمعين هنا. ربما يكون هناك مؤيدون للنظام. أنا معارض له. لكن لا نحمل البنادق والفؤوس في وجه بعضنا البعض». ثم ضحك وأضاف ممازحاً: «بس أنتم الأكراد، انفصاليون وخونة وعملاء للأجانب، تريدون تشكيل إسرائيل ثانية في المنطقة. سنبيدُ عميانكم قبل مبصريكم واللّه، أنتو بس طولوا بالكم علينا شوي». ضحك الجميع، مع ضحكته. ردّ عليه منّان: «أنا كردي من عفرين. يا عم فاروق، أنتَ لو راجعت أصول عائلتكَ، ستكتشف أنك أيضاً كردي. البرازي عشيرة كرديّة مشهورة، تعداد أفرادها عشرات الألوف، موجودة في كوباني (عين العرب) وحلب والرقة، وحماة، وحتى في تركيا. طيب، خلّيني أسمعكَ قليلاً من الموسيقى الانفصاليّة والغناء الانفصالي الكردي». وبدأ بالعزف والغناء الكردي. بعد انتهائه، قال له فاروق: «خيّو، أنا ضد انفصال الأكراد عنّا، ليس لأسباب سياسيّة وقوميّة، بل لأنه حرام هذه الموسيقى وهذا الغناء الجميل، نفصله عن سوريا». ثم أضاف: مَن معي في رفضه انفصال الأكراد؟! ردّ عليه هوزان: «أنا كردي، ومعكَ في رفض الانفصال». وردّت الدكتورة فرح: «أنا كمان معك، ولكن في رفض انفصال العرب عن الأكراد، ومع انفصال العرب عن كل المفاهيم التي تدعو للعنصريّة والتعالي القومي والريادة والسيادة العروبيّة على الشعوب الأخرى التي شاركتنا وتشاركنا في الجغرافيا والتاريخ والحضارة».

طرحت ديانا سؤالاً غريباً على هوزان وقالت: «أنتَ فنان تشكيلي، ترسم، ولكَ علاقة حميمة مع الألوان. كثيراً ما أسمعُ بها. لأنني ولدت عمياء، كيفَ لي أن أشعر بالألوان من دون رؤيتها؟ مثلاً، أعرف أنني أرتدي فستاناً خمريّاً، وأضع شالاً ورديّاً حول عنقي، ولم أرَ هذين اللونين، أريد أن أشعر بهما».

استعذب هوزان السؤال على أنه امتحان ومحكّ لخيالهِ في كيفيّة جعل الأعمى يحسّ باللون. فقال: الخمري، آتٍ من الخمر والاختمار. اللون الخمري، كالشعور بالخدر والنشوة والنعاس. كذلك حينما تشعرين بتعتّق الأشياء؛ الحبّ، الانتظار، الأحزان، اعلمي أن اللون الذي يحيط بكِ، هو الخمري. أمّا إذا فتحت النافذة في الصباح الباكر، ولفحتكِ نسائم خفيفة، نديّة، باردة ومنعشة، ومترعة بعطور الطبيعة، اعرفي أن لون العالم في تلك اللحظة وردي. اللون الوردي أن تشعري بالبراءةِ والرومانسيّة والشوق للأشياء والأشخاص.

والأحمر هو الشعور بحرارة الأشياء؛ الحب، الحزن، الحرب! لاحظوا تكرار حرف الحاء في هذه الكلمات؛ أحمر، حرارة، حب، حزن، حرب. كلما شعرتِ بارتفاع حرارةِ هذه الأشياء لديكِ، اعرفي أن لون اللحظات التي تعيشينها؛ أحمر. حينما تشعرين بالغضب والثورة والتمرّد، اللحظة التي تعيشينها حمراء اللون. إنه كالهواء الساخن الذي يلفحُ وجهكِ، والجموح الذي يقودكِ، والغليان الذي يسيطر عليكِ.

الأزرق، بخلافِ اللون الأحمر. حين تشعرين بالبرود في العواطف وحالات الحب والحزن والعلاقات، اعلمي أنكِ في تلك

اللحظات تعيشين حالة اللون الأزرق. كذلك حينما تشعرين بالهدوء والاختلاء بالذات، والاسترخاء، وتراجع التوتّر والهياج، والمضي نحو الصفاء. إذا شعرتِ أنكِ نديّة مبللة من الداخل. هذا يعني أن اللون الأزرق مسيطر عليكِ. والأشخاص الذين لديهم ميل نحو الجديّة والمحافظة، الصراحة والصدق، والأفكار الفلسفية، كالدكتورة فرح، غالباً ما يكون لونّهم المفضّل هو الأزرق. لا أعرف؛ لون الملابس التي ترتديها الصديقة فرح الآن. لكن، هذا ما يقوله علم النفس في ما يخصّ الألوان.

من اختلاط الأحمر والأزرق، بنسب متفاوتة، على صعيد الدلالات والتأثيرات أيضاً، تنتجُ تدرّجات البفنسجي. وعندما تشعرين بالطموح، أو الغموض والخيال والميل نحو الروحانيّة والقيم والمُثُل العليا والحصول على الحكمة والسلطة والتملّك، والرغبة في سبر الأعماق، في تلك اللحظة، أنتِ كائنة بنفسجيّة اللون، ومشاعركِ بنفسجيّة. طبعاً، تقلّ أو تزيد نسب تدرّجات البنفسجي، مع درجات امتزاج درجات الأحمر والأزرق، كما ذكرتُ لكِ. كل شيء في هذه الحياة، مستويات ودرجات ونسب، تزيد أو تنقص. مثلما في كلّ زيادةٍ نقصٌ، كذلك في كلّ نقصٍ زيادةٌ.

– واللون الأصفر؟ سأل يوسف.

– الأصفر؛ أن تشعر بأنكَ إيجابي. تستمتع بمذاق الأشياء والحالات. أنْ تكون فرحاً، ممتلئاً بالحيويّة والطّاقة والأمل، وغيوراً على أشيائكَ، وتحسدَ الآخرين على أشيائهم. وقتذاك، أنتَ الأصفر، واللحظة التي تعيشها صفراء. كذلك حين تشعرُ بالإحباطِ، اليأسِ، الإرهاق والقنوطِ من الحياة، اللحظةُ التي تحيطُ بك وتسيطر

عليكَ، لحظة صفراء. الأصفر؛ أن تُحذِّرَ أحداً من ارتكاب خطأ، أو على ارتكابهِ خطأً. يكون ذلك أوّل مراحل توجيه التنبيه التهديد والوعيد. لذا، نجد البطاقة الصفراء في المباريات، واللون الأصفر في إشارات المرور. الأصفر، أن تكون متطرّفاً في حالاتك وأفكارك وتناقضاتك ومشاعركَ؛ سلباً أو إيجاباً.

الأصفر والأحمر والأزرق، هي الألوان الأساسيّة في الدائرة اللونيّة. ومن امتزاجها بدرجات وكميّات ومقادير معيّنة، تنتج لدينا ألوان جديدة، بدرجات متفاوتة. هذه الأمور يعرفها المختصّون والمهتمّون بالرسم والفنون والديكورات. ولكن المكفوفين، لا يرونها، لذا حاولت أن أوصل اللون، عبر توظيف لغة المشاعر، وما تخلقهُ الألوان من انطباعات وأحاسيس لدى المبصرين، أيضاً بدرجات متفاوتة تتعلّق بتفاوت مستويات حساسيّات البشر. هذه الألوان الثلاثة والألوان الناتجة من تمازجها، يستخدمها المبصرون، كرموز ودلالات، كل مجموعة حسب ميولها وانتماءاتها الدينيّة والعقائديّة والأيديولوجيّة والسياسيّة.

- والأسود؟ سأل يوسف.

- عند المبصرين، يعني الخوف والرعب والحزن والحداد والموت. ولكن عندنا، لا يعني ذلك أبداً، بدليل أننا نعيش ونحب ونغنّي ونفرح، نعيش حياتنا محاطين في كل أمكنتنا وأزمنتنا باللون الأسود. أن تشعر بالقدرة والثقة والطاقة على أن تكونَ مؤثّراً في حياة الآخرين، سلباً أو إيجاباً، فأنتَ أسود. أنْ تكونَ قادراً على التأمّل بعمق، وتشعرَ بهموم الآخرين وآلامهم وأحزانهم وخيباتهم وانكساراتهم، فأنتَ في تلك اللحظات؛ أسود. أن تكون وقوراً في

زمن الانفلات والفوضى، وحكيماً في لحظةٍ مجنونة، وسعيداً في لحظة تفيضُ حزناً وكآبة. أن تكونَ بالضدّ مما حولكَ، بتعقّل وفهم ودراية، وقتذاك، أنت أسود.

المبصرون، شوّهوا سمعة اللون الأسود، على أنهُ لون الكراهية والأحقاد. لذا تسمعونهم يصفون القلوب المترعة بالأحقاد والكراهية على أنها قلوب سوداء. وهذا غير صحيح.

- ماذا عن الأخضر؟ سألت فرح.

- إنهُ أنتِ؛ التجددُ والصبرُ على الألم والبلوى. والإرادةُ في مواجهة المصاعب. الهدوءُ والثقة بالنفس. الطبيعةُ التي تهبُ كل شيء. عندما تسمعين صوت بلبلٍ، ليس أسيرَ قفص، بل طليقاً يعانق حريّته في السماء، عندما تستمتعين بسماع خرير جدول، دون أن تفهمي ما يقوله لكِ، وقتذاك، أنتِ أخضر.

- البنّي؟ سأل يوسف.

- أن تشُمَّ رائحة القهوة، في جوٍّ باردٍ ماطر. أن تشتمَّ رائحة التراب بعد أوّل زخّة مطرٍ خريفيّ، فأنت في تلك اللحظة، اللون البنّي. أن تشعرَ يَدكَ بلزوجةِ الطين وتشمَّ رائحتهُ، تلك اللحظة التي تعيشها؛ بُنّيّةُ اللون. واللحظةُ التي تتنسّم فيها رائحةَ الخبز الطازج الخارج للتوّ من الفرن، تلك اللحظة، هي اللون البني. حين تشعر بالتوازن والثقة والاعتداد بالنفس والانتماء للأرض، فأنت بنّي اللون. إذا شعرت بأنّك منظّم، وبعيد من الفوضى، الشواش، الارتباك والالتباس، وأنّك إنسان خيّر ومعطاء، فأنتَ اللون البنّي.

انتهت الحفلة بطلب العمّ فاروق استضافة الجميع في بيتهِ. مقترحاً أن تصبح هذه اللقاءات طقساً من طقوس العلاقة بينهم.

* * *



الجدران التي تلاحقنا

الثلاثاء 8 تشرين الثاني 2011، الساعة 50 : 5 دقيقة. رنَّ جرسُ الباب. فتحتهُ سارا، وإذا بالدكتور أكرم، آتياً قبل الموعد بعشرة دقائق. رحّبت به. صعدا الدرج وصولاً إلى المرسم. سمع هوزان الخطوات. نهضَ من كرسيهِ الهزّاز مستقبلاً طبيبهُ وضيفهُ. بعد الترحيب والسؤال عن أحوال بعضهما، وقبل البدء بالجلسة، أخبرهُ هوزان أنه بعد مراجعتهِ تسجيل الجلسة الماضية، ظهر لديهِ أنه أعطى معلومات جديدة عن أبيهِ، لم تكن صحيحة. معلومات مختلفة، عن مكان ولادته، واسم الفتاة التي تعرّف عليها في «طشقند»، وتزوّجها وأنجب منها أطفالهُ. سألهُ عن تفسيرهِ لذلك! استغرب الطبيب، وردّ؛ أنه لا يوجد لديهِ أيُّ تفسير. سجّل هذه المعلومة في دفترهِ، منتظراً ما سيخرج به من الجلسات الأربع الباقية.

سألتهُ سارا، ماذا يحبُّ أن يشرب. أجاب: «ما يشربه الأستاذ هوزان، أشربهُ». قالت: «إذن، القهوة». طلبت من ابنتها زوزان جلب ثلاثة فناجين قهوة. افتتح الدكتور أكرم الجلسة بالقول: غداً ذكرى سقوط جدار برلين. الجدار الذي بناهُ الرفاق الشيوعيون بطول 155 كيلومتراً، في آب 1961، وأطلقوا عليه اسم جدار الردع والحماية من الفاشيّة. بينما أطلق عليه الألمان في الجانب الآخر

«جدار العار». هذا الجدار سقط سنة 1989، حتّى قبل انهيار دولة الاشتراكيّة والشيوعيّة في ألمانيا الشرقيّة والاتحاد السوفياتي. الغريب أن الذين عبروا الجدار، هربوا من الشرق إلى الغرب، وليس العكس. ما يعني أن الجدار كان أكذوبة كبرى. سقوطهُ أيضاً جاء نتيجة هفوة سقط فيها المسؤول الإعلامي والقيادي في الحزب الاشتراكي الألماني حين صرّح برفع القيود على التنقّل بين الألمانيتين الغربيّة والشرقيّة. لم يكن المسؤول متثبّتاً من توقيت الإعلان عن ذلك. خلق تصريحهُ فوضى عارمة أمام نقاط العبور في الجدار. وعَبَرَ عشراتُ الألوف من الألمان الشرقيين إلى ألمانيا الغربيّة.

- صحيح. الثورة الفرنسيّة أيضاً، أججتها شائعة أن نظام لويس السادس عشر، سيعدم مئات السجناء الموجودين في سجن الباستيل. وأن هناك مدافع على أسطح السجن موجّهة إلى باريس. هجم الألوف على السجن، بهدف إنقاذ السجناء. لم يجدوا فيه إلّا بضعة أشخاص. لكن الحشود الغاضبة اتجهت نحو قصر فيرساي. وبقية التفاصيل معروفة. المجتمعات في ظلّ النظم الاستبداديّة محض هشيم، تنتظر شرارةً. ربما تكون تلكَ الشرارة، شائعة غير صحيحة. المجتمعات مهما بلغت من التطوّر والحداثة، تبقى الشكل المتطوّر للقطيع. الأديان، الفلسفات، الأكاديميّات، المدارس، الأحزاب، الطبقات، الموسيقى، الفنون والآداب، الديمقراطيّات، الدول ودساتيرها...، كلُّها أتت كي تهذّب وتشذّب سلوك القطيع. المجتمعات الدينيّة والأيديولوجيّة، هي محض قطعان مقننة. ومع تطوّر أشكال وأنماط وأحوال القطيع، تطوّرت أنماط وأشكال وأنواع المرياع. هل تعرف ما هو المرياع؟

- لا.

لم أعشْ في بيئة ريفيّة. إلّا أن والدي عاش طفولته راعي غنم. حكى لي عن مرياعهِ وقطيعه. المرياع؛ كبشٌ ضخم، مفتول القرنين، مثير للرعب. مخصي. يتبعه القطيع. والمرياع يتبع حماراً أو كلباً. وعليه، القطيع في الأصل، يقوده إمّا حمار أو كلب. المرياع والكلب والحمار والعصا، هي أدوات الراعي التي تعاونه وتساعده على قيادة القطيع. يجري ذلك ضمن المجتمعات والنظم والأحزاب الاستبدادية أيضاً.

حياتنا مليئة بالقطعان والمراعي والجدران، وبالأخطاء التي أدّت إلى أشياء كارثيّة، وأشياء جميلة أحياناً.

- طالما الأمرُ هكذا، إذاً حدثنا عن الجدار الأوّل الذي تجاوزتهُ في طفولتك؟

بعد أخذهِ نفساً عميقاً، وإغماضهِ عينيهِ، رغم أن الأمرَ سيّان لديهِ، بدأ الحديث عن طفولته:

- أوّلُ جدارٍ مختلف عن جدران منزلنا الطيني والجدار المنخفض الذي يسوّر بيتنا، كان جدار المدرسة الشاهق، بالنسبة لي. أمّي ممسكةٌ بيدي، تأخذني إلى مكان جديد، يجب علينا الذهاب إليهِ كل صباح، يحيط به ذلك الجدار الذي ارتفاعهُ يزيد عن مترين ونصف. بالنسبة لطفل في السادسة من عمره، تضاعف ارتفاع الجدار، بحيث كنتُ أخشى السير إلى جواره مخافةَ أن يسقط عليّ فجأةً. في زوايا فناء المدرسة، هناك شق موجود بين الجدارين المتلاقيين. لم أفهم سبب ذلك الشقّ حينذاك. صرتُ أتحسّرُ وأنا

أرى الأطفال الذين يكبرونني، كيف يضعون الحجارة في ذلك الشقّ، ويصنعون درجاً، ثم يصعدونهُ، ويمشون على حافة الجدار من دون خوف. يقفزون، أو ينزلون باستخدام الطرف الآخر من الشق، الذي حوّلوه أيضاً إلى سلّم، عبر غرسهِ بالحجارة. قطعتُ على نفسي عهداً أن أجرّب ذلك وأفعلهُ. بعد مضي أربع سنوات، حين كنت في الصفّ الخامس، فعلت ذلك ونجحت. صار الأمر هيّناً وسهلاً عليّ. لأننا كنّا أطفالاً شياطين وخُبثاء. في العطلة الصيفيّة، نلعب في الشارع المجاور للمدرسة. أحياناً، صديقتنا الطفلة المسيحيّة فيفيان، تشاركنا اللعب. نرمي الكرة عمداً داخل سور المدرسة. ونطلب من فيفيان صعود الجدار وجلب الكرة. نتحجج بأنها أطول منّا، وأكثر رشاقة وخفّة. والحقيقة، أنها عندما تصعد من زاوية التقاء الجدارين، كنّا أيضاً ننظرُ إلى زاوية التقاء الفخذين من تحت تنورتها القصيرة. البنتُ بريئة، لا تسألُ نفسها أو تسألنا عن سبب تكرار الطلب منها، والمخاطرة في صعود الجدار من داخل المدرسة، وحدها! كم كنّا أشقياء، طمّاعين وجشعين، لا نكتفي بالنظر إلى كلسونها من تحت التنورة، مرّةً واحدة فقط. فعلنا ذلك، ونحنُ لمّا نبلغُ الحُلم بعد! جدارُ المدرسة الذي واجهني وتحدّاني في طفولتي، تجاوزتهُ في السنة الخامسة من المرحلة الابتدائيّة. ذلك الجدارُ الشاهقُ المرعبُ، أظهر لنا أشياء جميلة وملوّنة، كانت مخبأة تحت تنورة فيفيان.

واصلَ حديثهُ عن بداياتهِ؛ المراهقة، الشباب، الذهاب إلى الجامعة، وأسهب في الحديث عن علاقاتهِ مع زميلاته في الدراسة من الابتدائيّة وحتى كليّة الفنون الجميلة. لاحظت سارا، وكأنَّ زوجها تحت تأثير تنويم مغناطيسي، حين تفاجأت بأنه يتحدّث عن

قصص أخرى، وأسماء أشخاص جدد وأمكنة جديدة، لم يسبق أن تحدّث عنها، أثناء سرده قصص طفولته وشبابهِ لها. خشيت أن تسقطَ هي من ذاكرتهِ في الفترة الجامعيّة، وكيف تعرّفت عليه. خافت أن ينزلقَ به الكلامُ نحو الحديث عن لقاءاتهما السريّة، وأوّلَ مرّة مارست معه الجنس، قبل الزواج. لكنه، ذكرها باسمها، ولم يذكرْ ما خشيتهُ. ما إن انتهت الجلسة، تنفّستِ الصّعداء. آثرت الصّمت، ولم تعلّق على أيّ شيء، رغم أنها تعرف أن زوجها من مواليد دمشق، وولد في هذا البيت، ولم يولد في بيت طيني موجود في مدينة نائية على الحدود السوريّة - التركيّة، كما ذكر هوزان أثناءَ استرسالهِ في الكلام. راهنت على أنه حين يراجع الاستماع إلى التسجيل، سيكتشف ذلك.

غادرهم الطبيب، بعد الاتفاق على أن تكون الجلسة القادمة مساء الثلاثاء القادم 15 تشرين الثاني 2011. بعد مرور ساعة على تناول هوزان العشاء مع أسرتهِ، طلب من زوجته إعادة تشغيل التسجيل والاستماع لما قاله أثناء الجلسة. أيضاً صدمهُ الكلام عن المنزلِ الطيني وجدار المدرسة وكلسون الطفلة فيفيان. طلب من زوجتهِ إيقاف التسجيل، وسألها: «مَن هذا، الذي أتحدَّثُ عنه؟ قطعاً ليس أنا. لأنني لم أزر ولم أرَ مدن وقرى الشمال السوري في حياتي، رغم دعوات الأصدقاء الكرد السوريين لي بزيارة تلك المناطق!». توقّف برهةً، ضارباً كفّاً بكف، تعبيراً عن الدهشة والاستغراب واستحالة حدوث ذلك! قال ضاحكاً: «أيعقل هذا؟! هل صرتُ أعاني من الانفصام، وأظنُّ نفسي شخصاً آخر؟ في الجلسة الماضيّة، ذكرت معلومات مختلفة عن أبي، واليوم أتحدّث عن تفاصيل حياة

شخص آخر، على أنها تفاصيل حياتي! يبدو أنني قاب قوسين أو أدنى من الجنون». حاولت سارا التخفيف عنه ومداعبته، والقول: «ذكرتَ تفاصيل لقائنا الأوّل، وكيف كانت العلاقة بيننا متوتّرة في الوهلة الأولى. والحمد للّه، لم تذكر تفاصيل جلساتنا السريّة الخاصّة، في ما بعد. كان الخجل ينهشني والخوف يلفّني وأنا أقول في نفسي، أكثر من مرّة؛ الآن سيذكر تفاصيلنا الخاصّة! ومرّتِ الأمور على خير».

طلب منها تشغيل التسجيل وإكمالهُ حتّى الأخير. هالهُ حديثه عن تفاصيل لا تمتُّ بأيّة آصرةٍ بفترةِ شبابهِ وحياته الجامعيّة، على أنه تعرّف على حزب العمال الكردستاني (PKK) منتصف الثمانينات في دمشق، وتأثّر بأفكارهِ وشعاراته الثوريّة. في 9 تشرين الثاني 1989، قرر الانتساب إلى الحزب. هجر الفنّ والدراسة الجامعيّة. جرفتهُ الأفكار والأحلام القوميّة واليساريّة الكبرى. وكيف أنه بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، طلب الالتحاق بالمقاتلين والمقاتلات في الجبال. حمل السلاح من أجل تحرير كردستان، وإقامة نظام اشتراكي عادل فيها، رافضاً وصيّة والدهِ بعدم الانخراطِ في السياسة. ونظرتهِ إلى والده على أنه جبان وانتهازي ولاوطني، وبرجوازي صغير، مناهض للثورة والحرية. وانتقالهِ إلى الجبال، وحمل السلاح لمحاربة الجيش التركي، تحت وطأة وسطوة انبهاره بالمقاتلين والمقاتلات على أنهم مناضلون وقدّيسون وقدّيسات. بعدها، انهارت سماء الشعارات والرومانسيّة الثوريّة الحالمة، على رأسهِ، عندما أودعَ سجن الحزب. تمّ التحقيق معه، ووجِّهت تهم غريبة عجيبة إليه على أنه غير مندمج في الحياة الحزبيّة والعائلة

الكبيرة، ويحنُّ إلى حياة العائلة والأسرة الصغيرة. وما زال متمترساً خلف شخصيّة البرجوازي الصغير، المتذبذب، والمثقف الانتهازي، الموجود شكلاً ضمن الحزب، لكن من دون اندماج روحي وعقلي كامل وذوبان كلّي في الثورة. وإن إحدى المقاتلات وقعت في حبّه. أنقذتهُ وساعدتهُ في الهرب من سجن الحزب، ودخلت هي السجن، بتهمة الخيانة، ومساعدتها شخصاً متهماً مسجوناً على الهرب. نجا بأعجوبة. بينما تلك المقاتلة المسكينة الضحيّة، بسببه، تمّت تصفيتها من قبل رفاقها.

استمع لنفسهِ متأثّراً بالقصص التي يرويها على أنها جزء من تجربتهِ، ولم يعشها أبداً. وكيف عاد إلى دمشق. سلّم نفسه للأمن، وكتب على نفسه تعهّداً بعدم الاقتراب من السياسة والأحزاب الكرديّة مطلقاً. ندمَ على تهوّرهِ، ونظرتهِ المهينة لوالده الميّت. ذكر في التسجيل تعرّضهُ للمضايقات والتهديدات من قبل عناصر الحزب بأنه إذا فتحَ فهمه بشيء، حُكمُ الإعدام الذي فرَّ منهُ في الجبال، سينفّذهُ الحزبُ بحقّه في دمشق. فلاذَ بالصمتِ إلى الأبد. عاد إلى دراسته الجامعيّة في كليّة الفنون. تعرّف على سارا. كانت طوقَ نجاةٍ له، بالإضافة إلى الرسم الذي أنقذه من تلك الحالة النفسيّة السيّئة التي عاشها.

بعدَ انتهاءِ التسجيل، صرخ هوزان: مَن هذا؟ قطعاً، ليس أنا. يجب أن أتصل بالطبيب غداً، وأخبرهُ بذلك.

زوجتهُ أيضاً مندهشة وخائفة ومذعورة من هذه الحالة النفسيّة الغريبة بأن ينسب زوجها أحداثاً لنفسه، لم يعشها، أثناء جلسات العلاج النفسي! صارت تتساءل: لو أن الأمر يتعلّق بالتقمّص، لكان

ذلك منذ فترة الطفولة، بحسب ما هو موجود في الموروث الدرزي والعلوي! سألت نفسها؛ كيف للدكتور أكرم، أن يفهم مشكلة زوجها، وهو يتحدّث عن قصص وحكايات على أنها تعود له، وهو لم يعشها أبداً؟!

حين اتصل هوزان في اليوم التالي بالطبيب وأخبرهُ بتكرار المشكلة في الجلسة الأولى. أنهُ أتى على ذكر معلوماتٍ وأحداثٍ، لم يعشها، ولا يعرف عنها شيئاً! اندهش الطبيب. عجزَ عن الإجابة. طلب منه مواصلة الجلسات، واعتذر عن موعد الجلسة القادمة، مقترحاً تأجيلها إلى الثلاثاء 22 تشرين الثاني 2011.

أمضى هوزان الأسبوعين في القراءة والاتصالات مع أصدقائهِ المكفوفين وتعلّم لغة «برايل»، وأضاف إلى جدول أعماله الاستماع إلى البرامج الثقافيّة الحواريّة كبرنامج «روافد» الذي يعدّه ويقدّمه الروائي اللبناني أحمد علي الزين على قناة «العربيّة».

ينتظرهما في العيادة، مهيّئاً نفسه للاستماع إلى جوانب أخرى شيّقة من سيرة هوزان، لا علاقة لهُ بها أيضاً، على أنها أجزاء من ماضيه. رنَّ الجرس. فتح الطبيب لهما الباب. رحّب بهما، طالباً التفضّلَ بالدخول. لأنهما تعوّدا من الدكتور أكرم أن يدخل في النقاش بشكلٍ غير مباشر، بل أن يختار موضوعاً آخر، بعيداً عن اهتمامات هوزان. لكنهما تفاجآ أن تكون البداية، الحديث عن جرائم اغتيال سياسي، حين ذكر أكرم أن اليوم يصادف ذكرى استقلال لبنان عن فرنسا سنة 1943، وذكرى اغتيال جون كيندي سنة 1963، واغتيال الرئيس اللبناني رينيه معوض سنة 1989. سأله هوزان: «ما حكايتكَ وتواريخ الأيّام؟ 1 تشرين الثاني؛ الثورة

الجزائريّة، و9 تشرين الثاني؛ سقوط جدار برلين، و22 تشرين الثاني؛ اغتيال كينيدي ومعوّض. أعتقد أنك في الجلسة القادمة يوم 28 تشرين الثاني والتي تليها، ستذكر لنا بعض الأحداث الأخرى!».
ردّ عليهِ الطبيب مبتسماً: «عندما تباشرُ رسم لوحة، وأمامكَ مساحة بيضاء تترقّبُ ألوانكَ وضربات ريشتكَ أو سكّينكَ، هل تبدأ الرسمَ من المركز أم الأطراف؟».

- لكل فنّان نقطتهُ العمياء التي يبدأ منها على سطح اللوحة، بحسب الفكرة الأولى التي في ذهنهِ وقتذاك.

- أنتَ، غالباً من أين تبدأ؟

- من المركز.

- أختلفُ عنكَ في بدءِ الحوارِ مع المراجعين؛ كأنني أرسمُ لوحة. أبدأُ حواري من الهامش. وأحياناً، من هامش الهامش. ثمّ آتي إلى البؤرة؛ مرحلة الطفولة، أو الشباب، أو النضوج... إلى آخره. أنت شخص مثقف، وعميق. لديكَ أفكاركَ الخاصّة بكَ، ورؤيتكَ للأشياء والظواهر والحالات. وشخصيّة مركّبة، بذاكرة مركّبة. هذا ما اتضح لي في الجلستين السابقتين. وحسب قولكَ؛ أنكَ أتيت على ذكر أماكن وأحداث وأسماء، لم تكن صحيحة، تتعلّق بسيرتكَ وسيرة والدكَ. لذا، أبدأ الحديث معك من أحداث جرت في سنوات متفرّقة، بعيدة وقريبة، وصادف حدوثها تاريخ يوم جلسة العلاج النفسي.

ربما يتعلّقُ الأمر بي وتصوّري للأمور، وطريقتي في الحياة. حين أنظر إلى لوحة، غالباً لا تكون نظرتي الأولى مركزيّة، مهما كان

المركز يحتوي على تكوين لافت ومثير، أو مساحة لونيّة صارخة، تجذب النظر إليها. بل تبدأ من الأطراف. فوق أو تحت أو في الجانبين. هكذا، وصولاً إلى المركز. شيء يشبه قراءة الكتب الأدبيّة؛ رواية، قصّة. رغم أن الصفحات الأولى، هي أيضاً هامش، وليست المركز أو البؤرة، إلّا أن قراءتي الأولى تكون عشوائيّة. القراءة الثانيّة؛ من الصفحة الأولى وحتّى الأخيرة. إن وجدت في القراءة العشوائيّة ما يجذبني إلى الكتاب، ألحقها بقراءة بانوراميّة، من البدايّة حتّى النهاية. أما الكتب العلميّة، فالأمر مختلف. بتصوّري، كلُّ هامشٍ في الحياة، هو مركز أو بؤرة. وكلُّ مركزٍ في الحياة، هو هامش. كلّما حذفت هامشاً مِن متون الحياة، فقدَ المركز جزءاً من أهميّتهِ وكينونتهِ.

- سابقاً، كنتُ مثلكَ، في نظرتي إلى الأشياء والحياة، على أنها قائمة على العفويّة والارتجال والسجيّة، وأن ذلك من طبائع الحياة. لكن في ما بعد، وتحديداً، عقبَ فقداني البصر، صرتُ أميل إلى التركيز. خلصتُ إلى نتيجة مفادها؛ أن ما نراهُ عفويّاً ومرتجلاً، وخارجاً عن النظم والضبط، أو النصّ أو المتن المقنن أو المقونن، وداخلاً في صلب الحياة، له شرعهُ أو ما ينظّمهُ. حتّى الفوضى، لها قانونها، شرائعها وأعرافها، وعاداتها وتقاليدها. قال هوازن.

- ربما يتعلّق الأمرُ بالفقدان. ففقدانكَ البصر، جعلكَ تركّز أكثر، إلى درجةٍ صرتَ في لاوعيكَ تستحضر قصص وذاكرة الآخرين، وتدغمها وتدمجها في ذاكرتكَ. في وعيكَ، ربما تكونُ معطاءً تلقائيّاً، عفويّاً، لكن لاوعيكَ يفصحُ عن ميلٍ إلى الاستحواذ. هذا الاستحواذ إذا خرج من نطاق وضبط اللاوعي، واستبدَّ بالمرءِ

ووعيهِ، ربما يكون ذلك كفيلاً بتحويل صاحبهِ إلى طاغية ودكتاتور يرى الحياة وتفاصيلها، متونها وهوامشها، ملكاً من ممتلكاتهِ. لهُ الفضلُ على الحياة في وجودها، وأنّه يتفضَّلُ على الحياة والناس بوجودهِ. لولاهُ لما كانت الحياةُ أصلاً. وهي وبما فيها، مدينةٌ له بالولاء والتسليم والطاعة والإيمان والإذعان، وبيديه التخييرُ والتسييرُ والتدبيرُ والتقدير. شيءٌ يشبهُ النزوع الألوهي أو الولاية التكوينيّة المطلقة على الخلق والخلائق، أثناء النظر إليها.

لنعد إلى حيث انتهيتَ في جلستكَ السابقة، وتعرّفكَ على سارا وعلاقة الحبّ التي نشأت بينكما، وتكللت بالزواج والإنجاب وحياة سعيدة. حدّثني عن العشق، تصوّركَ له، وكيف عشتهُ وتعيشهُ؟

- تجارب البشر، تتقاطع، ورُبَّما تتشابه في بعض الحيثيات والتفاصيل. لكن يستحيل عليها التطابق. ما أودُّ قولهُ: أنني لستُ فقيهاً في هذه الأمور. أرى في العشق؛ أن العاشقَين خطّان متلازمان، متقاطعان، ومتعانقان كثعبانين. النّقطةُ في العشق، كونٌ. والكونُ في العشق، نقطة. المائلُ في العشق، أقصرُ من المستقيم، وأطولُ منه أحياناً. والخطُّ المستقيمُ في العشق، متعرّجٌ، وعرٌ وملتهب. الدائرةُ في العشق، مثلثٌ. والمثلثُ في العشق، مثلثان متساويا الأضلاع، متعانقان، كنجمةِ داوود. العشقُ عصيٌّ على القواعد وكارهٌ للقوننة. دستورٌ بلا قانون، الأصل فيه؛ الإباحة، والفرع فيه؛ الإتاحة. دستورٌ لا تحريم فيهِ ولا تجريم. نقضي أعمارنا في البحث عن العشق، والكتابة عنهُ، وتفسيرهِ وتوصيفهِ، ونفشلُ في كل ذلك. نعيشهُ، ونحن ندري، ولا ندري. يعيشنا من دون أن ندري به. العشقُ، البحثُ عنه، يعرقلهُ. ومناجاتهُ وتوسّلهُ، يُخمدهُ ويُبطِلهُ.

الكتابةُ عنهُ، تُفسدهُ. لذلك، العشقُ يُعاش، بلا تفاسير أو دساتير، وليس بحاجة إلى رسل وأنبياء، حتّى تؤمن به الكائنات. متى كان النّور، الهواء، الماء والتراب، بحاجة إلى رسل وأنبياء ومصاحف وملائكة وشياطين وجان، حتّى نقتنع ونؤمن بأن النورَ نورٌ، والماءَ ماءٌ، والهواءَ هواءٌ، والتُّرابَ ترابٌ؟! متى كانت الحياة بحاجة إلى رسل وأنبياء ومصاحف وعروش وكراسيّ. . . ، حتّى نقتنع ونؤمن بأن الحياة هي الحياة؟! وكذا حال العشق، التي فيها أحوال العاشقين والعاشقات لا حصر لها. من يَعِشِ العشقَ، يعشْهُ العشقُ، بتجليّات وأحوالٍ لا حدود لها. في العشق لا وجود لمذنبين وخطّائين، كفرة وملاحدة، مشركين وضالّين مُضلّين. لا وجود لأشباهِ أو أنصافِ العشّاق. في العشقِ إمّا أن تكون عاشقاً، أو لا تكون. ومن يؤمن بالعشق، يؤمن به العشق.

اندهشَ الطبيب من هذا التوصيف الذي انساب من لسان مريضهِ، كانسياب الماء مِن نبعهِ. تخيّل أنه في حضور قطب من أقطاب المتصوّفة. حاول مجاراتهُ ومساجلتهُ عبر تحريضه واستفزازه بالأسئلة، التي ظنّها قادحةً لذهنهِ، وفاتحةً قريحتهُ في الكلام:

- كلُّ شيءٍ إن زادْ عن حدّهِ، نقصْ، ورُبَّما فسد. والفاسدُ يُفسد!

- إلّا الحكمةُ والعشقُ، لا شبعَ منهما. كلّما زادت الحكمة أو العشق، شعرنا بالحاجة إليهما أكثر. الزيادةُ هنا، ليست مفسدة.

- الحكمة تفسدُ طمأنينة صاحبها. الحكمة مقلقة. لا تكتفي. دائماً تطلب المزيد. تُشعرُ صاحبها بضرورة عدم الانتماء للقطيع.

المعرفة المفضية إلى الحكمة، تزيد من آلام صاحبها، حين تتكشّف لديه مستويات القباحة والتفاهة التي تجتاح العالم. كذلك العشق، ازدياده تقود العاشقة أو العاشق نحو عبادة المعشوق. والعبد عبد، أكان المعبودُ شخصاً أو شيئاً، أو ليس كمثلهِ شيء.

- نعم. الجهلُ يضمنُ الطمأنينة والسكينة لصاحبه ويصونها. والمعرفة مقلقة. زيادة في الحكمة يعني زيادة في القلق والحيرة. ليس كل قلقٍ بقلق. هناك قلقٌ يخاف الجهل ويرتعب منه. وهناك قلق يفكّر في تحرير العالم من الجهل.

- عبر تاريخ البشريّة، هل نجح قلق الحكماء والعلماء في تحرير العالم من الجهل والجهالة والجهلاء؟! سأل الطبيب.

- طبعاً لا. فقط نجحوا في النأي بأنفسهم عن التورّط والضلوع في الحضيض والانحطاط.

- إذن، فشلوا. أبعد من ذلك. هناك فلاسفة وعلماء تورّطوا في الحروب والكوارث وظهور الفاشيّات. الفاشيّة وقودها وحطبها الدهماء والغوغاء والرعاع، وينظّر لها بعض المثقّفين والفلاسفة.

- كلُّ حكيمٍ بالضرورة فيلسوفٌ، ينحازُ دائماً للحياة. وكلُّ فلسوفٍ ليس بالضرورة حكيماً. لأنه رُبَّما ينحاز لحزبه الديني أو القومي أو العرقي أو الطائفي، المذهبي. الحكيم ينتمي لذاته ولذات الحياة. بينما الفيلسوف، ينتمي لأناه، حتّى لو كان ذلك على حساب الحياة. الفلاسفة غالباً ما يكونون أبناء وتلامذة الأكاديميّات. بينما الحكماء، غالباً ما يكونون أبناء وتلامذة الحياة. لذلك، اسمح لي أن أقول لكَ، ما قالتهُ لي الحياة: ما يفسدهُ الدهر، تصلحه المرأة.

وما تفسدهُ امرأة، رُبَّما تصلحهُ امرأة أخرى. لكن، ما تفسده النّساء، لا يصلحه شيء إلا الموت.

- حالكَ تعجبني. قد لا تعجبُ مدام سارا، قالها مبتسماً.

- إن لم يعجبها، فمَن يجبرها على العيش معي طوال هذه السنوات، وأنا على هذه الحال؟ الزّهرة لا تسأل النّحل الذي يحطّ عليها: هل أنا الزهرة الأولى؟ أم سبقتني إليك زهور أخرى؟ الزهرة ترحّب بأيّة نحلة، حتّى لو كان تعدادها من بين الزّهور التي مرّت بها تلكَ النّحلة هو الألف. الزّهرة لا تقول للنحلة: إمّا أنا، أو لا أحد. لا الزّهرة تبخل على النّحل. ولا النّحل يبخل عليها. كلاهما يعيشان الحالة بعمق ولهفة كأنها المرة الأولى والأخيرة. في فلكٍ من عسلِ العشقِ يسبحان.

- اللّه! هي الزهرةُ وأنت النحلة!

- نعم. العاشقة، في حالها وأحوالها، هي نفسها العشيقة. الثانية تختلف عن الأولى في ترحالها، كونها تميل أكثر نحو التجدد والتجديد والتغيير. لا أعرفُ لماذا يُنظَرُ إلى العشيقة بدونيّةٍ، دناءةٍ، وضاعةٍ، سخفٍ، احتقار وابتذال!

العشيقة ليست بائعة هوى أو جسد أو لذّة ومتعة. العشيقة ليست قحبة أو شرموطة. العشيقة، باحثة عن الذات العاشقة. في بعض الأحيان، هي أكثر جرأةً وجسارةً وتصالحاً مع نفسها ورغبات أنوثتها وجسدها من المرأة العاشقة.

يا دكتور أكرم، يمكن للعشيقة أن تهجركَ إلى شخصٍ آخر، حين تجدكَ لم تعد تنسجم مع روحها، فكرها ومتطلباتها الإنسانيّة والجسديّة. حين تهجرك العشيقة، ثقّ أن العيبَ فيكَ وليس فيها.

يمكنُ للمرأةِ أن تكونَ معكَ شكلاً على أنها زوجةٌ، لكنها تبحثُ عن آخرٍ، تجدُ فيهِ ما تفتقدهُ فيك. العجزُ عن العشق، لا يعني بالضرورة العجزَ عن ممارسة الجنس. ممارسة الجنس في غاية الأهمية والضرورة القصوى في حالة العشق. لأن الحبّ العذري هو أكثر شبهاً بالحبّ الافتراضي، أو «السير في النوم» أو الاحتلام.

العشيقة كائن على ذمّة الحبّ والعشق وحسب. حين يكون الرجال منبع الحبّ والعشق، تكون العشيقة معهم وعلى ذممهم، بوصفهم خلائق من طينة الحبّ ونور العشق، وليس بوصفهم رجالاً - ثيراناً شديدي الخصوبة والفحولة فقط. لهذا السبب تسمَّى ممارسةُ الجنسِ بممارسةِ الحبّ في الغرب.

يحضرني هنا، قول للمتصوّف، وقطب العاشقين وتاجهم، الشاعر الكردي؛ المُلا الجَزَري، بما معناه: «لئن القلب واحد، فالعشق واحد. . . فكفى بالعاشقِ معشوقة واحدة وحسب». يبني الجَزَري رؤيته هذه على القناعة، قناعة العشق، والاكتفاء بواحدة، على أنها مبتدأ العشق، ومنتهاه. وأن القلب لا يمكن أن يعشق اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً في الآن عينه. ولكن، العشق، لا يَقنعُ، ولا يَجزعُ، ولا يرتدعُ، ولا ينحصرُ، ولا يمكن تقويضهُ أو ترويضهُ. إنِ استبدَّ العشقُ بقلبِ، روحِ وخيال رجل أو امرأة، فإنّه يصبحُ في حِلّ تامّ من القناعة. في طلاقٍ مبرمٍ مع الكرامة. متحرراً من أغلالِ العاداتِ والتقاليدِ والموروثِ المعرقل. لا يهمّهُ أن ينظرَ الناسُ إليهِ بسخفٍ وتتفيهٍ وتسفيهٍ ودنوّ ووضاعةٍ على أنهُ مستسلم لنزوعٍ شهواني، لا يملأ عينيه شيء، سوى التراب. الضعيفُ أمام النساء، ليس بضعيف. والضعيفة أمام الرجال، ليست بضعيفة.

ثمّة خلطٌ بين الجنس والعشق. ليس كل ممارسةٍ للجنس، بالضرورة تعبيراً عن العشق. وليس كل حالة عشق، بالضرورة، ينبغي أن تكون مقرونة ومصحوبة بالجنس، حتّى لو كان الجنس مجازاً، وليس فعلاً كامل الأركان والأوصاف. وهنا، تسقط المقولة المنسوبة إلى المسيح أيضاً؛ «إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ». ذلك أن سلطان العشق كلّي القدرة، وطاقتهُ تجدد نفسها، بتجديد مصادرها. وقلبا العاشق والعاشقة من السعة والرخاء والفردوسيّة ما يجعلهما مشرّعين على قطعان من الغزلان وأسرابٍ الحمائم والفراشات، ومروجٍ من الوردِ والأزهارِ التي تمشي على قدمين. سعة قلبَي العاشق والعاشقة، هي بسعة الجنّة الموصوفة في الكتب المقدّسة. ومن الإجحاف بحقّ القلب العاشقِ، وبحقّ العشقِ، أن يكون هذا القلب ملكيّةً خاصّة، لأنهُ لن يستطيع إقفالَ نفسهِ أمام أيّةِ غزالةٍ أو زهرةٍ أو فراشةٍ أخرى. وعليهِ، صحيحٌ أن القلبَ واحدٌ، ولكن العشق؛ أحوالٌ لا حصر لأعدادها وأسمائها. الحبُّ ليس دائماً فقط «للحبيب الأوّلِ». الحبّ لكل من يراه القلبُ بأنه يستحقّ الحبّ.

- ألا ترى أنكَ تناقضُ نفسكَ حين قُلتَ: «ممارسة الجنس في غاية الأهمية والضرورة القصوى في حالة العشق. لأن الحبّ العذري هو أكثر شبهاً بالحبّ الافتراضي، أو السير في النوم أو الاحتلام» ثم قلتَ الآن: «ليس كل حالة عشق، بالضرورة، ينبغي أن تكون مقرونة ومصحوبة بالجنس، حتّى لو كان الجنس مجازاً، وليس فعلاً كامل الأركان والأوصاف»؟

- لكَ الحقُّ في ما ذهبتَ إليهِ على أن هناك تناقضاً. زد على ذلك، أنني في بداية حديثي ذكرت أنني لستُ فقيهاً في العشق

والحبّ. أقولُ ما خلصتُ إليه من تجاربي. باختلاف البشر، تختلف التجارب والأفكار والمواقف والحالات أيضاً. الجنس مهمٌّ وضروريٌ جدّاً في حالة العشق. انعدامهُ يقلّلُ العشقَ، لكن لا يبطلهُ. بل ربما يزيدُ من سعير لهيبِ المشاعر وأجيجِ اللهفة والرغبة أيضاً. يتوقّف ذلك على نفسيّة وشخصيّة العاشقين. لقد تجاهلت قولي: «العجز عن العشق، لا يعني بالضرورة العجز عن ممارسة الجنس». ما يعني أن الأولويّة عندي هي للعشق. كذلك سهوت عن قولي: «ثمّة خلطٌ بين الجنس والعشق. فليس كل ممارسةٍ للجنس، بالضرورة تعبيراً عن العشق». وحين قلتُ: «ليست كل حالة عشق، بالضرورة، ينبغي أن تكون مقرونة ومصحوبة بالجنس» هنا، توخّيتُ التخصيص، وتجنّبتُ التعميم الموجود في المقولة الأولى.

- اسمحْ لي أن أحسدكَ على مقدرتك على الدفاع عن قناعاتكِ التي رُبّما تعتبرُ خروقاً أو مروقاً، أو شرعنةً للآثام، وفق العُرف والأديان والقوانين في عالمنا هذا. البعضُ يعيشون جزءاً مما تنظّر له، لكنهم عاجزون عن التنظير له والدفاع عنه، مثلك.

ضحك هوزان وقال:

- الحياة ليست بحاجة إلى تنظيراتكَ وتنظيراتي. إنْ عشتها أو لم تعشها، الأمرُ لديها سواء. بقدر ما تعيشُها، تكونُ جديرةً بك، وجديراً بها. بقدرِ ما نعيشُ الحياةَ، تعيشنا. أعتقد، ولا أجزم، أن الأنفس المفطورة على الجمال وما بعدهُ، تكون عصيّة على الترويض والتدجين، وتلقّي القبح على أنه جمال. بدليل، دأبت الأنظمة الشموليّة على حقن الوعي العام للمجتمعات أو العقل الجمعي، بجرعات كبيرة من الإذعان والتسليم والرضوخ، بهدف الدفع بالبشر

نحو القطيعيّة وقتل شتلة أو بذرة الاختلاف والتمرّد. واستمراء الكثير من قباحات الأنظمة التوتاليتاريّة على أنها صفوة الجمال والمحبّة والعدل والخير. هل نجحت في مسعاها؟ أعتقدُ إلى حدّ ما، مع بعض الأنفس التي هي أصلاً إمّعات ومهيّئة لقلب الحقّ باطلاً، والباطلِ حقّاً، وتجميل العبيد والعبوديّة، وتقبيح الحريّة والأحرار.

لدى الأنفس المفطورة على الجمال والمفطومة عليه، حساسيّة عالية تجاه هذا الصنف من البشر وأفعالهم. حساسيّة الكشف والرفض والممانعة هذه، هي التي تحصّنهم وحيواتهم من أيّ مسٍّ أو دسٍّ أو تدليسٍ قبيح. تبقى كينونتهم الجميلة محميّة ومَصونة، بشكل تلقائي.

- فهمنا الجمال. ولكن لم نفهم ما بعدهُ.

- ولن تفهمهُ، لأنك لم تكتشفهُ ولم تعشه. هو هكذا، ما بعد الجمال، مجهولٌ يناديكَ ويجذبك. وإن اكتشفته وعشتهُ، أصبح جمالاً مدركاً محسوساً معاشاً، يخفي وراءهُ، ما يخفيهِ. الجمال ينتج ما بعدهُ، ويدعوكَ إليهِ.

الكثيرُ من العقائد والأديان والعادات والتقاليد المتوارثة تحضّنا على التفكير في الغد، والتحسّب والتحوّطِ لهُ. هذا التفكير، سيدفعني للعمل من أجل الغد، فأخسرُ وأهدرُ يومي. اللحظة التي أقضيها تفكيراً في الغد، أنا بحاجة لأن أعيشها بعمق ولهفة لأنني سأفقدها، وهي محسوبة على يومي، وستصبح من الماضي، ولن يبقى منها سوى ذكراها. أنا ابن اللحظة، وبقدر ما أكون للحظة جسداً وروحاً وتفكيراً وتخيّلاً ومشاعراً، ستكون اللحظة لي. التفكير في المستقبل، استهلاكٌ لا مبررَ له للحاضر. التفكير في الآتي، سيكون على حساب

الآني. حين أعيشُ يومي، ولحظتي، بإخلاص واحترام وعمق ولهفة، فهذا يعني أنني أعمل للمستقبل، أفكّر فيه. هذه لحظتي التي يجب أن أعيشها لها، وفيها، ومن أجلها، لأنها جزءٌ من عمري الذي سيمضي. عليّ أن أعيش لحظتي، لأن الحياة والأقدار تمنحني هذه اللحظة، مرّة واحد فقط، يجب ألّا أقضيها في التفكير في لحظة أخرى، ستأتي، لا محالة. لا يمكنني تفضيل لحظة في المستقبل، على لحظة الحاضر التي أعيشها. الحياةُ سلسلةٌ من اللحظاتِ التي لها علينا حقّ أن نعيشها كما هي، بما فيها من مشاعر وأحاسيس. التفكير، إنْ كان ضروريّاً، ينبغي أن يكون محصوراً في ما مضى، وليس في ما سيأتي. هذه اللحظة الفاصلة بين الماضي والآني، ينبغي ألّا أعيشها تفكيراً أو تفكّراً في الغد، بل يجب أن أعيشها بما فيها وما تمليهِ عليّ، وما تمنحهُ لي، وما تخلقه فيَّ. أنا ابن لحظتي، ومخلص لها. أحبّها، وليس لدي مانع أن أكون ابن لحظات الآخرين أيضاً.

- اسمحْ لي أن أبدي إعجابي بالنضوج الموجود لديكَ.

- شوف دكتور أكرم، لا أجدُ نفسي ميّالاً لفكرة أو مفهوم النضوج. وأعتقد أن الحياة سفر لا ينتهي من المراهقات. مراهقات في الحبّ، في الأدب والفنّ، في السياسة. هذه ليست دعوة للعبثيّة أو الفوضى. أعتبر النضوج حدّاً وسدّاً وقيداً يقوّض حيوية التجربة الإنسانيّة المفتوحة أبداً على تجارب لا يمكن أن تنتهي إلّا بالموت. والموت أيضاً تجربة. مثلما متاح لنا تجربة الحياة مرّة واحدة، كذلك الموت، وطيّ صفحة الحياة، متاح لنا مرّة واحدة فقط.

أن أعيشَ مراهقاً أبداً، أحبُّ إلى قلبي أن أعيشَ ناضجاً ولو ليوم

واحد. إنْ أسعفتني اللغة، يمكنني وصف هذه الحالة، إن جاز التعبير، بـ«المراهقِ الناضج» أو «الناضجِ المراهق» الذي لا يكترثُ لما يترتّب عليه النضوج، ولا يخشى مما ينجمُ من المراهقةِ المفتوحةِ على سنواتِ العمر.

- هناك تسميات متعددة للخروج عن السياق، عن المتن، عن السرب، عن القطيع. ثمّة من يصفه بالتمرّد. آخر، يصفه بالعصيان. البعض يصفونه بالكفر أو الخيانة. مجمل ذلك يقول لنا: مجتمعاتنا المقننة والمغلولة بالأعراف والأديان، تصف ذلك السلوك بالمعصية. ضمن دائرة المعصية، التي تكبر وتصغر، حسب فقه الشرعنة والحاجة والضرورة. هذه المعصية يندرج ضمنها العشق والحبّ. قال الطبيب النفسي. شعرَ كأنّهُ في سباقٍ ماراثوني مع هوزان. حاول التقاط أنفاسهِ، ثمَّ أضاف: يا أخي، أنت تدعو إلى الجهر بكل شيء. لا تحسب أيّ حساب لما يترتّب عليه هذا الجهر، أو ما يمكن أن ينجم عنه!

- أظنّ أنني ذكرتُ لكَ آنفاً؛ أن المرءَ يبقي على مساحة مجهولة من ذاتهِ، خاصّة بهِ. لا يكشفُ عنها لأحد. مهما كان هذا المرءُ شفّافاً وصريحاً وعفويّاً وثوريّاً في مواقفهِ وآرائه وأفكارهِ. أعتقد أن الحبَّ لم يأمرْ بالسّتر، ولا بالجهر، ولا بالهدر. لكن كلّما هدرتم أعماركم في الحبّ، ازددتم غنى. الحبُّ أمرَ بالإذعان لهيمنةِ سلطانهِ. ومن لم يذعن، فهو خارج نطاق الحبّ. الحبُّ شفيعُ العثرات والأخطاء والهفوات. يَهدي من يشاء الحبّ، ويَضلُّ من يشاء الضلال عنهُ. لا يوجد هناك عشق فاشل وعشق ناجح. العشقُ عشق. هناك عشّاق فاشلون وهناك نقضيهم.

- ألا تعتقد أنكَ فقدتَ شهرتكَ، بفقدانكَ البصر؟

- بفقداني البصر، اكتشفتُ متأخّراً أن الشهرة مُفسدة ومسممة للحياة. سجنٌ بآلاف الجدران المتناسلة. تقوّض حركات المرء وتحسب عليه أنفاسه ورغباته. أنت شخصيّة عامّة أو شخص مشهور، هذا يعني أنكَ ستبقى سجين انطباعات وإعجابات المحيطين بكَ. عليكَ الحذر من اقتراف أيّ شيء يسقطكَ من أعينهم، ويظهركَ على النقيض من إعجابهم بك أو انطباعهم عنكَ. الشهرةُ هي أحد أوجه الخلود الذي يسعى إليه الإنسان. من دون إدراكهِ بأنه يسعى نحو سجن إرضاء الذوق العام، والمزاج العام، والرأي العام، والتضحية بما هو خاص ومختلف ومناوئ لقواعد السلوك العامّة، حتّى تبقى تظهر في مظهر المتوازن المتزن، الرزين، العقلاني، الهادئ، الموضوعي والمترفّع عن الصغائر. حتّى لو كان ذلك زعماً وادعاءً أو تصنّعاً وافتعالاً. لذا، الشهرة تسلبكَ حقّكَ في أن تكون أحمقَ أو متهوّراً أو طائشاً أو مغامراً أو منجرفاً نحو نزواتكَ. الشهرة غالباً ما تكون بالضدّ من الحريّة. لأنها سعيٌ نحو الخلود، عبر سلك مسالك التّطبّع للحفاظ على النظرة الإيجابيّة من المحيط. شيءٌ أقرب إلى ما ذكرتهُ أنتَ؛ أثناء حديثكَ عن النزوع إلى الألوهة والربوبيّة وشهوة الاستحواذ على كل شيء، في اللاوعي والوعي أيضاً.

* * *

الرحيل الذي لا ينتهي

باتَ أمراً مفروغاً منهُ أن الجلستين الأخيرتين أيضاً، يوم 29 تشرين الثاني و6 كانون الأول 2011، لن تفضيا إلى ما يمكن أن يستندِ إليهِ الطبيب لتشخيص مرض هوزان النفسي. بيدَ أنهما، كالجلسات الثلاث السابقة، استمتعَ فيهما الدكتور أكرم بالاستماع لمريضهِ. ليس كونهُ طبيباً وإزاء حالة فريدة ومختلفة وحسب، بل كأنَّه شخصٌ في متناولهِ رواية شيّقة وغريبة، تتداخلُ فيها الأمكنة والحيوات والذاكرات. في حين يستمتع هوزان بالحديث وتفريغ ما لديه عن ماضيهِ وماضي والدهِ، وماضي أشخاص آخرين، تسرَّبَ إلى ذاكرتهِ، لم يتأكّد ويتثبَّت من معرفتهم.

في نهاية الجلسة الخامسة، ذكر الطبيب لمريضهِ؛ أنه يعرفهُ ومن متابعيهِ. اقتنى إحدى لوحاتهِ منذ سنوات. وهي معلّقة في غرفة مكتب عيادتهِ. وطلبَ من سارا عدم إخبارهِ بذلك، محافظاً على أكبر قدر من الحياد أثناء الحديث. وأنه حزنَ وتأسّف جدّاً، حين عرف ما ألمَّ به، من وسائلِ الإعلام. وكان ضمن الذين حضروا معرضهُ الأخير. شاهدهُ يتحسَّسُ سطوحَ اللوحات ويتحدّث عنها. وشاهدهُ في معارضهِ السابقة أيضاً، مُبصراً، يتحدّثُ عن أعمالهِ، بالإشارة إليها، من دون

ملامستها. لم يكن يتصوّر أن تتصل به مدام سارا كي تطلب منه تحديد موعدٍ لمعاينتهِ وتلقّي جلسات علاج نفسي عنده.

النتيجة الأهمّ أو الخلاصة التي قالها الطبيب؛ أن بعض الظواهر والأمراض، يقف عندها العِلمُ عاجزاً عن تفسيرها. كحالته التي عجز عن فهمها وتشخيصها الطبّ العادي والنفسي. وأنه يعاني من أمور بسيطة، يعاني منها كل إنسان. ما عليهِ إلّا الانتظار. ما يذهبُ فجأةً، من دون سبب. ربّما يعود فجأةً. قاطعه هوزان: «ورُبَّما لن يعود أبداً». هزّ الطبيب رأسه، ولم يتفوّه بـ نعم أو لا.

شُعورُ الطبيبِ بالأسف على أنهُ لم يستطع فعل شيء، تجاوز بكثير شعور هوزان بالإحباط. لأنه اعتادَ على ما هو عليهِ من عمى. تبلورت لديه رغبة حقيقيّة في التوجّه إلى الكتابة. كلُّ صديق من أصدقائهِ الجُدد العميان، شخصيّة روائيّة يمكن الاشتغال عليها. ذكرَ للطبيب قراره هذا. وأن هذه الجلسات جعلت منهُ صديقاً شخصيّاً له، وصديقاً للعائلة أيضاً.

على امتداد سنة ونيّف، شُغلهُ الشاغل هو التمكّنُ تماماً من القراءة والكتابة عبر طريقة «برايل». اقتنى آلة كاتبة تعمل بهذه التقنيّة. تدرّب عليها لغاية تمكّنهِ منها تماماً. مساء الخميس 21 آذار 2013، بدأ كتابة الأسطر الأولى من محاولتهِ الروائيّة، دون أن يختار لها عنواناً معيّناً. متخذاً من تجارب بعض أصدقائهِ المكفوفين فصولاً لعملهِ. أراد أن تكون اللغة الأصل لنصّه لغةَ «برايل»، حتّى يتمكّن أصدقاؤه من قراءة العمل. فيما بعد، يمكن تحويل النصّ إلى لغة المبصرين.

غادر إخوتهُ بيوتهم وتفرّقوا في المهاجر. نتيجة تطوّر الأحداث في سوريا. صاروا يطالبونه بالرحيل. لم يكترث لدعواتهم. حتّى زوجته أصحبت تلحُّ عليهِ بالهجرة. خاصّة بعد زوال حجّة وجود والدتهِ العجوز؛ و«لمن سيتركونها هنا». لأنها ماتت في كانون الأول 2014، وتمّ دفنها في نفس قبر زوجها؛ شالاو. إلّا أنه تحججَ بشيءٍ جديدٍ مفادهُ؛ ما إن ينتهي من كتابة روايتهِ، سيغادرُ البلاد. قال في نفسه: لمن سيترك أصدقاءه العميان؟ رغم مغادرةِ بعضهم البلد.

أصبحت سارا تضغط عليهِ أكثر. شعرت كأنّه لا تهمّه حياة ومستقبل أولادهِ وسط ذلك الجحيم. لا يرى ما يرونهُ من فظائع وخراب ودمار. صار أنانيّاً، همّه روايتهُ وحسب. كأنّه سيحصد عليها جائزة نوبل للآداب! تقسو عليه، ثم تعتذر منه. بينما هو، يحاول تهدئتها وطمأنتها على أن الرواية شارفت على النهاية. شعرَ بورطة كبيرة؛ بدأ بالكتابة ولم يعد يعرف متى وكيف ينهي الرواية؟

صبيحةَ يوم الجمعة 21 آذار 2014، استيقظ هوزان على رائحة فنجان القهوة الصباحي، وسماع وقع خطوات زوجته على الدرج. فتحَ عينيهِ وإذا بالنور يتدفّق إليهما. بقي لحظات مذهولاً، معقودَ اللسان، لا يقوى على الحراك. كأنّهُ في حلم. اقتربت منه زوجته. رأى ملامحها، وبصمات السنوات الثلاث الأخيرة على وجهها. حاولَ كبتَ وضبطَ فرحتهِ. جلسَ على سريره. مدّ يدهُ نحوها قبل أن تضع هي الفنجان في يده، كما جرت العادة طوال السنوات الثلاث. شعرت سارا بشيء غريب. قرَّبَ الفنجان من فمهِ، وارتشف خفيفاً القهوة الساخنة. حرّك رأسهُ وعضلات وجهه تعبيراً عن الامتنان ومتعة المذاق. قال: «يسلموا أيديكِ على هذا الفنجان»، ردّت عليهِ،

لكنه لم يسمع. لأن نظراتهُ مركّزة على الفنجان. أخذ رشفة أخرى، وقال: «سارا، حبيبتي، أنا أراكِ الآن. عاد إليّ البصر. أراكِ، كما كنتُ أراكِ سابقاً». كي يؤكّد لها ذلك، وضع فنجان القهوة على الكومودينة، ونهض من مكانهِ، وعانقها وقبّلَ وجنتيها وثغرها. بدأت تقفز من الفرحة، وتنادي الأولاد أن يأتوا بسرعة. لكن مشهد زوجتهِ وفرحتها، بدا له صامتاً، كأنّه يتفرّج على فيلم سينمائي صامت. صور تتحرّك، بدون صوت. بشر يتحرّكون. لا يمكنهُ سماع صوتهم. بعد مجيء الأولاد، والابتسامات على وجوههم واحتضانهم له، أخبرهم؛ أنّ مَن أعادَ إليهِ البصر، أخذَ مِنهُ السمع. الآن، صارَ أصمَّ تماماً، لا يسمع شيئاً مما يقولونه. عليهم استخدام الكتابة، أثناء التحدّث إليهِ، كي يفهمهم ويردّ على كلامهم.

لم تكتمل فرحة سارا وأولادها، بعودة البصر إلى زوجها. أصبح الجميع يكتب له العبارات التي تواسيه. وأن الأمور ستكون على أحسن حال. هو أيضاً، لم يبدِ تلك الصدمة التي أبداها، حين استيقظ ورأى نفسهُ أعمى، قبل سنوات. كتبت زوجتهُ أنها ستتصل بالمستشفى المتخصص بأمراض العين والأنف والأذن، الذي زاره أوّل مرّة، كي يكشف عليه. لم يعترض على ذلك.

بعد تناولهِ الفطور، واتصال سارا بالمستشفى، ركبا سيارتهما، واتجها إلى مستشفى العيون التخصصي الكائن في تقاطع شارع «بغداد» مع شارع «الثورة». طوال مسافة الطريق، عينا هوزان تتأمّلان البؤس الذي حلّ في البلد. مدى الرّعُب والذّعر الذي تنضح به ملامح الناس. حجمُ الحزنِ والكآبةِ المخيّم على الشوارع، إلى جانب الخراب الذي أحدثته هذه السنوات الثلاث في دمشق. تسير

السيارة في الشوارع والطرقات، كأنّها تسير وسط فيلم سينمائي صامت، بألوانٍ باهتةٍ مذعورةٍ، مرتعشة. حينها، فَهِمَ إلحاحَ زوجتِهِ عليهِ بخصوص ضرورة الهجرة قبل أن يصبح أحد أولادِهِ أو أن يصبح هو أو زوجتهُ أحد ضحايا الحرب التي تطحن البلد. بمرور السيارة في شارع «بغداد» تذكّر التفجير الذي أودى بوالدِهِ سنة 1981، مع نحو 200 شخص آخرين من المدنيين الأبرياء. قال: «خلاص، كل شيء على وشك الانتهاء. دعينا نسافر من هذه البلاد، كما غادر أبي بلادهُ، زمن الحرب والثورة سنة 1961، وأتى إلى هنا، وصار ضحيّة من ضحايا حربٍ أخرى، لم يكن له فيها ناقة أو جمل». قالها، دون أن ينتظر جواباً من زوجته التي رأتهُ في مرآة السيارة المتأرجحة أمامها، وعيناه اللتان دخل إليهما النور مجدداً، محمرّتان محتقنان تلفظان مشاهد الخراب والبؤس، تذرفان دمعاً كثيفاً لزجاً، كأنّهُ قطراتُ ماءٍ ملوّث بالدخّان.

الكشف السريري والفحوصات الأوليّة، لم تبيّن أيّ شيء. قرر الأطباء أن يبيت في المستشفى. أيضاً، صور الأشعّة والتحاليل والاختبارات، أظهرت أن الأذنين سليمتان. الأذن الداخليّة والعصب السمعي، ومركز السمع في الدماغ كل شيء بخير. لا يوجد أي تلف أو عطل في الجهاز العصبي السمعي لديه. زارهُ مدير المستشفى، وهنأهُ على استعادتِهِ البصر. أبدى حزنهُ وأسفهُ على فقدانِهِ السمع. اعتذر عن عجزهم معرفة السبب. أشارَ إلى أن لدى هوزان تجربة سابقة في فقدان البصر، وعجز الطب عن تشخيص الحالة وعلاجها. ثمّ استردّ بصرهُ، من دون تدخُّلِ العِلم! الآن أيضاً، يتكرر الأمر مع فقدان السمع. ليس أمامهُ حلّ سوى الصبر؛

«الصبر في انتظار عودة شيءٍ رحلَ عنكَ»، اختتم الطبيب مشورتهُ، بهذه العبارة.

أشياءُ كثيرة صارت تشغل ذهنهُ، منها؛ ماذا يساوي ما حلَّ به، أمامَ ما آلت إليه أحوال البلاد والعباد؟! صارَ يحمدُ اللّه على نعمة العمى، التي حالت دون رؤيتهِ هذه الكوارث التي يراها. فضّلَ العمى على ما يراه الآن. طواحينُ حربٍ، وقودها دماء الأبرياء، تطحن وتطحن. أنقاضُ وحطامُ البيوت والمدن. بؤساءُ نازحون في كل مكان. رعبٌ يسكن حتّى ظلال الناس وليس أجسادهم وملامحهم فقط. مع ذلك، لا يسمعُ دوي القنابل والمدافع وأزيز الرصاص، وهدير الطائرات والمدرّعات والمجنزرات التي يسمعها الضحايا. ما عاد يسمع هتافات المتظاهرين ضد النظام، ورشقات الرصاص، تأتيه من بعيد، حين كان يرسم لوحات معرضه. صار يعاني أرقاً وقلقاً رهيباً، يفوق الأرقَ والقلق الذي عناه، حين أصيب بالعمى. رغم أنّه أصمّ، ما إن يضع رأسهُ على الوسادة كي ينام، يشعر وكأنّها محشوّة بدويّ القنابل وهدير الطائرات وعويل الضحايا. يسألُ نفسه: اعتدت على العمى. كيف سأعتاد على تحمّل هذا الجحيم والتأقلم معه؟!

هجرَ الكتابة. لم يكملْ روايتهُ. لم يعدْ إلى الرسم أيضاً. قرر الرحيل إلى البعيد. رغم تيقّنهِ من فكرة أن الابتعاد عن الجحيم، لا يعني أن الجحيم ابتعدَ عنهُ. سيبقى يلاحقهِ، ويكمن له، لحين الانقضاض عليه، كانقضاض الوحش على فريسته. ما حصل مع والده، سيحصل معه أيضاً. لكن، متى؟ وكيف؟ لا يعرف ذلك.

بدأت سارا اتصالاتها مع السفارة الفرنسيّة في لبنان. نجحت في

الحصول على موعد، لشرح وضع زوجها، المعروف كفنان وشخصيّة عامّة. حصلوا على فيزا لكل أفراد العائلة. قبل مغادرتهِ بيتهُ، تجوّل فيهِ غرفةً غرفة، زاويةً زاوية، وكأنّهُ يلقي عليهِ النظرات الأخيرة، ولن يعودَ إليهِ أبداً. تذكّر حديث والدهِ له، حين غادر منزل جدّته ناتالي في «طشقند» سنة 1959. تذكَّرَ مراراتِ الرحيل وحرقتها. أثناء وجودهِ في مرسمه، كانت نظراته تقبّل وتعانق كلَّ لوحة، كلَّ فرشاة، كلَّ عبوة ألوان. لم يفتهُ إلقاء نظرةٍ على غرفة المستودع التي تخفي تحتها ذلك السرداب الرهيب والغني. المقبرة الجماعيّة والملاذ الآمن لكل تلك الكنوز من الكتب والمخطوطات القديمة والنفيسة التي نسيها ونسي أن يطلع عليها. تذكّر الوصيّة والتحذير الموجود على الوجه الخلفي للسرداب: «أيّها الخارجُ من هنا، كُنْ سرداباً أعمق، واحفظْ سرَّ هذا المكان». لم يتمالك نفسهُ، وانهمرَ دمعهُ، وتساقط على بلاط فناء البيت الأسود والأبيض، كرقعةِ شطرنج. وقبل خروجهِ من الباب الخارجي، وقعت نظراته على ما كانت تقع عليه، وهو طفل، فيسأل والده: «ماذا تفعل هذه النجمة هنا، يا أبي؟» مشيراً إلى نجمة داوود الموجودة أعلى باب المنزل من الداخل.

آخر يدٍ ممسكة بمقبض الباب من الخارج، كانت يد هوزان، يغلقُ باب منزلهم؛ منزل شالاو الكسنزاني. وقبلهُ منزل اليهودي جميل بنيامين حاييم الذي اعتنق الإسلام سنة 1889 وغيّر اسمه إلى عمر محمد علي، وغادر حيّ اليهود الدمشقي، واستقرّ قريباً من مسجد الشيخ محيي الدين بن عربي.

طلب زيارة ضريح الشيخ محيي الدين بن عربي، وضريح والدهِ؛

شالاو الكسنزاني وأمّه؛ أولغا يوري روبينسكي. وكان له ذلك. طلب أيضاً من زوجتهِ وأولادهِ التجوال بالسيارة في دمشق، قبل الاتجاه نحو بيروت. صامتٌ تماماً، كتمثالٍ من الشمع. يبكي بمرارة ولوعة المفارق. لا أحد يمنعهُ من البكاء. كأنَّهُ في حداد، ودفن والديهِ قبل لحظات. سارا وولداها وابنتها أيضاً يبكون مع والدهم. شعرَ هوزان أثناء هذه الجولة الأخيرة في دمشق، كمن يتجوّل ضمن لوحة «غُرنيكا (Guernica)» لبابلو بيكاسو. تلك البلدة الإسبانيّة في إقليم الباسك التي دمّرها طيران هتلر. أو كمن يتجوّل داخل شريط سينمائي وثائقي صامت بالأبيض والأسود، يظهر بؤس الحرب، وما تجلبهُ وتجرّهُ وستجرّه أيضاً وأيضاً على هذه البلاد.

سلّموا سيارتهم لأحد الأصدقاء في بيروت. باتوا في الفندق ليلة واحدة، لحين موعد مغادرتهم على متن الطائرة المتّجهة إلى باريس.

* * *

لم يعانِ ما عناهُ المواطنُ السوريُّ العادي المُهاجر أو اللاجئ إلى فرنسا، أو أيّ بلد أوروبي آخر. استقبلهُ أهلهُ وأصدقاؤهُ الفنانون والكتّاب في مطار شارل ديغول. حصلَ على الإقامة بسرعة. استأجرَ شقّة واسعة جميلة وغالية في منطقة مهمّة هي حي «مونمارتر» (Montmartre) الذي يشرف على أجزاء من باريس، بخاصّة بعض أحيائها الشماليّة. إلّا أنهُ عاش حالةً تشبهُ الغيبوبة المريعة يَقِظاً. يحاكمُ نفسهُ إلى درجة الجلد قائلاً: «كيف كنتُ غائباً عن هذه التراجيديا الكونيّة التي أحاطت بي، ودفعَ أثمانها ملايين الناس!؟

أيُّ سردابٍ من العمى والصمم وضعتُ نفسي فيه طوال هذه السنوات؟! قيمتي كإنسان أو فنان، لا ولن تصل مستوى قيمةِ صفحةٍ واحدةٍ من صفحات تلك الكتب المرصوصة في ذلك السردابِ الأعمى والأصمّ والأبكم، الغائب عن العالم! كم أنا لا شيء. . لا شيء. . لا شيء!؟ حتّى أصدقائي العميان الذين تطوّرت علاقاتي بهم، أدرتُ لهم ظهري. ما إن عاد إليّ البصر، انقطعت علاقتي معهم! تركتهم وشأنهم يواجهون مصائرهم وسط لعنات الحرب والاستبداد. تلك الروايةُ التي قطعتُ على نفسي عهداً بأن أكتبها وأكملها، نكثتُ عهدي معها. أنا خائن. أناني. جبان. عارٌ على الإنسانيّة».

بقي في تلكَ الحالة من الكآبة إلى أن زارهُ ضيف في شقّتهِ، بحجّة إعادة عمل فنّي قديم رسمهُ هوزان في بدايتهِ، يُظهِرُ مدينةَ دمشقَ، من شرفة منزلهِ. تطوّرتِ العلاقة بينهما بسرعة. صارا يترددان على الملاهي الليليّة كـ«الطاحونة الحمراء» و«القط الأسود» وعلى صالة قمار. وجدَ هوزان في الغريب شخصاً لديهِ عمق وتجربة خاصّة. قال في نفسهِ: «أحياناً، تُفاجئنا الأقدارُ بأشخاص في طريقنا، يساهمون في تغيير حياتنا، وإحداث نقلة نوعيّة فيها». عبر تلكَ الصداقة المستجدّة، نجحَ في استرداد نفسهِ وحررها من أغلالِ الاكتئاب وألغامهِ. قرّرَ العودةَ إلى الرسم، بمنظورٍ وفهم مختلفين عمّا كان عليهِ، قبل إصابتهِ بالعمى. أخبرَ زوجتهُ وأولادهُ بقرارهِ، وأنّه سيتواصل مع إحدى صالات العرض كي يحجز لمعرضٍ في باريس، ويباشر التحضير له. ستكونُ اللوحات مستوحاة من تجربة والدهِ؛ شالاو حمه عبدالمقصود الكَسنزاني. كما وعدَ نفسهُ قبل سنوات.

كأنَّهُ على وشك التأقلم مع الصمم. الإعاقةُ تُحدِثُ خللاً في التواصل مع الأحياء، ولا تعرقلُ الحياة مطلقاً. ما عاد تهمّهُ المعالجةُ والشفاء من الصمم. اعتبرهُ نعمةً. بفضلها صارَ يتخيّل درجاتٍ ونغمات ونبرات أصوات الأشخاص الذين لم يكن يعرفهم وسمع أصواتهم سابقاً، كصديقهِ الجديد. ينظرُ إلى ملامحِ المرءِ وهيئتهِ وحركاتهِ، فيتخيّلُ أن صوته يفترض أن يكون هكذا!

أثناء الرسم، ما عاد يرسم الأشياء، بل أصواتها. لا يرسم طفلاً تحت الأنقاض، بل أنينهُ واستغاثاتهِ. لا يرسم شجرةً بل حفيفها. لا يرسم نهراً بل خريرهُ. لا يرسمُ طائراً في قفصٍ أو على غصنِ شجرةٍ، بل يرسم تغريدهُ. لا يرسمُ أهوال الحرب في بلدهِ، بل دويّ القنابل والبراميل المتفجّرة التي تسقط على المدن والقرى ورؤوس المدنيين. صار يسمع بيده وعينيهِ. يتواصل مع المحيطين به عبر الكتابة. هم أيضاً، أصبحوا مجبَرين على الصمتِ واللجوءِ إلى الكتابة للتواصل معهُ. التعامل مع الأعمى، لا يحوّل المرء إلى أعمى. التعامل مع الأصم، يحوّل المرء إلى أبكم تقريباً.

اتصل به صديقهُ الجديد، واتفق أن يأتي ويأخذهُ إلى صالة قمار قديمة في حي «مونمارتر» (Montmartre). أثناء اللقاء، وسط الضّجيج الذي لا يسمعهُ هوزان، بدأ صديقهُ يكاتبهُ ويخبرهُ أنه في المِترو، شاهد مجموعة من السوريين يحملون صور بشّار الأسد وأعلامهُ، ذاهبون إلى مكان ينوون القيام بمظاهرة مؤيّدة له، والتنديدَ بفرانسوا هولاند وسياسات فرنسا وتدخّلها في الشؤون السوريّة. لم تعجبهُ حالهم. غيَّرَ العربة، وإذا بهِ أمامَ مجموعة أخرى من السوريين، يحملون علم الاستقلال السوري وصور ضحاياهم تحت

القصف والتعذيب في سجون الأسد. إمّا هم متّجهون إلى مظاهرة أو قادمون منها. أشارَ إلى أنه عاطفيّاً ونفسيّاً وحتّى سياسيّاً، وجد نفسه متضامناً مع الموجودين في العربة الثانية، رغم يقينهِ أن هذا النظام باقٍ، ولن يتدخّل أحد لإنقاذ السوريين منهُ. ردّ عليه هوزان:

– السوريون الموجودون في عربتَي المترو، ضحايا. الموجودون في العربة الأولى؛ ضحايا الكذب والجهل والتضليل والامتيازات والمصالح والولاءات الحزبيّة والطائفيّة العمياء. معظمهم من أقارب الموظّفين في السفارة السوريّة، أو أولاد الضبّاط والتجّار الذين يدرسون في باريس على نفقة الدولة. الموجودون في العربة الثانية، هم أيضاً ضحايا الاستبداد والشعارات وخذلان العالم لهم. أنا وأنتَ أيضاً ضحايا، بشكل أو بآخر. ما يجري في هذا العالم، صراعٌ وتضاربُ مصالح ليس فقط بين ديناصورات الاستبداد وحسب، بل بين الضحايا؛ المستفيدين من الاستبداد والفساد، والمتضررين منهما أيضاً. الصراع لدينا مركّب وشديد التعقيد، ومحكوم بعدّة حلقات ضغط.

– ماهية الصراع من الأزل وإلى الأبد، ثابتة، قائمة على تضارب مصالح، مغطى بأرديّة مختلفة ومتنوّعة. لاحظْ، الكنائس المسيحيّة تقاتلت قروناً، حين اختلفت على فهم طبيعة المسيح، وما يترتّب على ذلك من طقوس وعبادات وأحكام. تقاتلت الأديان في ما بينها، حين اختلفت على فهم اللّه وطرائق الوصولِ إلى مرضاتهِ وطاعتهِ، والعمل بأوامرهِ ونواهيهِ، والفوز بجنّتهِ واجتناب عقابهِ وجحيمهِ. بينما تقاتلت الفرق الإسلاميّة في ما بينها، حين اختلفت على من ينبغي أن يحكم بعد وفاة النبي محمد.

توقّفت الحروب بين الكنائس المسيحيّة، بشكلها الدموي، وتحوّلت إلى الطور البارد والصراع السلمي. لكنها لم تتوقّف، ولن تتوقّف. في حين أن الاحتراب بين الأديان ما زال قائماً. يَطلُّ برأسهِ في عدّة أماكن من هذا العالم. كذلك الاحتراب بين الطوائف الإسلاميّة ما زال قائماً، الذي يعود في أصلهِ إلى الإشكال الحاصل قبل 1400 سنة، والصراع بين بني هاشم وبني أميّة على قيادة «قريش» والحجاز والدولة التي أقامها النبي محمد. هذه الأمور، ليست كشفاً. لكنها تأكيدٌ على أن الطائفيّة شكل من أشكال التحزّب. والتحزّب، شكل من أشكال الأيديولوجيا. والأيديولوجيا هرمون من هرمونات القطيع. وقس على ذلك. قال الرجل.

– نعم. لذا تراني بعيداً جدّاً، قدر المستطاع من الانغماس في السياسة. أو ربما أبرر لنفسي هذا النأي والابتعاد. عانى أبي، من أوحال السياسة ومستنقعاتها، وأوصاني بالابتعاد عنها. في السياسة؛ الحزب والتحزّب هو شكل منمّق من أشكال القطيع. لكلّ منّا قطيعهُ الذي ينتمي إليه، ويخافهُ أو يهادنهُ أو يمارس التقية والتورية عليه، بهدف تحاشي غضبه وخُنقهِ أو ردّة فعلهِ. قياساً على هذه الفرضيّة، فإن أكثر الأحزاب ديمقراطيّةً وليبراليّةً، تنطوي على فكرة ومفهوم القطيع. فما حال الأحزاب العقائديّة؛ اليساريّة، الثوريّة، العسكريتاريّة، الدينيّة، القوميّة، إذاً؟! أجابهُ هوزان.

– طالما هنالك سلطة ورهبة للقطيع وخشية من ردود أفعالهِ في المجتمعات الحقيقيّة، فكيف لا يكون الأمر في المجتمعات الافتراضيّة أيضاً؟! ليس كل شيء افتراضي هو افتراضي. وليس كل شيء يمكن تصديقه هو حقيقي أو حقيقة. فقط يكفيكَ التواجد على

مواقع التواصل الاجتماعي لفترة قصيرة حتّى تكتشف وتتأكّد من صحّة ما أقولهُ.

- ليس لدي تواجد على مواقع التواصل الاجتماعي. ربما يكون ذلك شيئاً سلبيّاً أيضاً. لكن ما أعرفهُ ومتأكّدٌ منه أن المجتمعات التي تسود فيها سلطة ووعي وإرادة القطيع، لن تكون أكثر من مسلخ، تمارس فيها الأحزاب العقائديّة - الأيديولوجيّة ربوبيتها المطلقة.

أنهى كلامهُ بالقول: ألا ترى أنهُ من السخفِ والبلاهةِ مناقشةُ هذه الأمور في صالة قمار؟!

ردَّ عليه صديقهُ بالنفي، قائلاً:

- على العكس تماماً. المكان الأنسب للحديث عن السياسة وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس وطبائع البشر، هو صالات القمار والملاهي الليليّة. أصلاً؛ السياسة طاولة قمار، كل الجالسين حولها، خاسرون.

- صحيح، الحياةُ حانة قمار أبديّة، إمّا أن تخرج منها رابحاً أخلاقك، أو أن تخسر الأخلاق وتربح المال، اللعبة تلو الأخرى.

- لكن، من يدخل حانة القمار، يخلع أخلاقهُ، ويضعها خارجاً، قبل أن تطأ قدماهُ العتبة.

- الأخلاق، خصال مكتسبة، نتوقّف عن اكتسابها، حين نغادر الحياة. ولحانة القمار أخلاقها، مبادئها، معاييرها، سَمِّها ما شئت. حين تدخلُ الحانة، ستخسر نسقاً من الأخلاق، ليحلّ محلّها نسق آخر، هي أخلاق الحانة. واللعبة الحقيقية والصعبة، يمكن اعتبارها

نوعاً مِن المقارعةِ الوجوديّة، في كيفيّة محافظتكَ على أخلاقكَ، وسط شراسة أخلاق الحانة ومرتاديها، وضراوةِ هذه اللعبة. النسخة الحقيقيّة من اللعبة، هي النسخة الخفيّة غير المعلن عنها. لكلٍّ منّا نظرتهُ وموقفهُ من هذه الحياة. منذ 20 سنة، وأنا أرتاد حانات القمار. دائماً أدخل، وأنا متأكّد أنني خاسر.

- لماذا تدخل إذن؟! سألهُ هوزان مستغرباً.

- لأنني لا أريد أن أكون الرابح دوماً. لذّةُ ومتعةُ الحياة، في أن تخسر، لا في أن تربح.

- أليست هذه مازوشيّة!؟

- لا. لا أراها هكذا.

- منذ 20 سنة وأنتَ تخسر قسطاً من أخلاقك؟ ما هذه الكميّة من الأخلاق التي لديك، حتّى تستمرَّ معكَ طوال هذه المدّة، رغم أنكَ في كل مرّة تدخل حانة القمار، وتخسرُ جزءاً منها!؟

- طوال 20 سنة من ارتيادي دور القمار، لم ألعبْ فيها أكثر من 20 مرّة. لم أربحْ في هذه المرّات العشرين، ولو مرّة واحدة فقط. طوال عشرين سنة، أرتادُ هذه الصالة، كي أتأمّل أحوال البشر هنا. هذه الحانة الباريسيّة هي السبب في تعرّفي عليك. بمثابة واحة للتأمّل. أراقبُ اللعبة واللاعبين، وأتبصّرُ في تحوّلاتهم وأحوالهم. كنتُ أعرفكَ معرفة عارضة، أثناءَ تواجدكَ في دمشق. كأيّ شخص عادي يعرف فناناً مشهوراً. زرتُ معرضاً فرديّاً لكَ في دمشق. لم تكن موجوداً في الصالة. لا أحبُّ أيّام افتتاحات المعارض، حيث الضجيجُ والازدحامُ، وعدم وجودِ متّسع من الوقت للحديث إلى

الفنانين والفنانات. غالباً ما أزورُ أيّ معرض تشكيلي في اليوم التالي أو الثالث من افتتاحهِ. اسمحْ لي أن أشرحَ تفاصيلَ قصّةَ تعرّفي عليك.

- تفضّل. قال هوزان.

- تاجر دمشقي خسرَ عدّة مرّاتٍ متلاحقةٍ في حانةِ القمار هذه، إلى درجة إعلانهِ إفلاسهُ. ما عادت الصالة أو أيّ من أصدقائه اللاعبين، يقرضونهُ كي يواصل اللعب. ذات يوم، جلبَ لوحةً فنيّةً لدمشق. صارَ يتحدّث عن صاحبها على أنه كلود مونيه السوري. لوحتهُ تلك من حيث القيمة الفنية توازي لوحة «انطباع شروق الشمس» التي رسمها مونيه سنة 1872. وأنه اشتراها بعشرين ألف دولار في مزاد للأعمال الفنيّة بدمشق. ويريدُ بيعها بخمسة آلاف دولار فقط.

صدرت قهقهةٌ عاليةٌ ساخرة ومستهزئة من أحدهم. لشدّتها، انتهت بالسعال. وقال له: «يا غبي. أتريد أن تسوّق للوحة تافهة وبسيطة، في مدينة الفنّ والأنوار؛ باريس؟! لن آخذها حتّى ولو أعطيتني إيّاها بالمجّان. ما هذا السخف؟! يا لهُ من جنون!». صار التاجر الدمشقي يغلي كبركان. لكنهُ نجحَ في ضبط النفس. لأنهُ بحاجةٍ إلى النقود. بدأ يُخفِّضُ من سعر اللوحة، وحُنجرتهُ تكادُ تنفجرُ بالبكاء. وصلَ سعرُ اللوحة إلى 500 دولار. رفعت يدي وقلت: «اشتريتُها»، رأفةً وشَفَقَةً بالرجل. وقتذاك، اغرورقت عيناهُ بالدمع. لم يعد يرى شيئاً حوله. كأنّ شخصاً رمى لهُ طوقَ النجاةِ وسطَ بحرٍ هائج بأمواجٍ متلاطمة. اقترب منّي وشكرني بالفرنسيّة، فأجبتهُ بالعربيّة: «الأمر لا يسترعي الشكر. أنت بائع وأنا مُشترٍ».

بتلك الخمس مئة دولار، عاد إلى طاولةِ اللعب، وبدأ يربح ويربح. . . ! صار يشكُّ بنفسهِ على أنه اللاعب، بل هناك شيطانٌ يسكنهُ، يوجِّههُ، وهو مجرّد أداة تنفيذ، لا أكثر. انتهى موسم الخسائر لديهِ إلى الأبد. أضحى يثيرُ الذُّعرَ والرُّعبَ في قلوبِ اللاعبين المحيطين به. استعاد ثروته، وضاعفها أيضاً. وتسبب في إفلاس ثلاثة أو أربعة من روّاد الحانة الأغنياء. صالة القمار أنزلتهُ إلى الحضيض والتوسّل والاستجداء. ورفعته أضعاف ما كان عليهِ سابقاً. كتبت عنه الصحافة الباريسيّة: المليونير الذي أفلسه القمار. ثم جعل القمار ثروته أربعة أضعاف. والفضل للوحة باعها بخمس مئة دولار.

– هذه القصّة، تفنّد رؤيتكَ وموقفكَ من الحانة على أن كل الداخلين إليها خاسرون.

– دعني أكملُ لك الحكاية. لا تتسرّع في إطلاق الحكم. هجرَ القمار، واشترى صالة عرض للأعمال التشكيليّة في باريس، وصالةً أخرى في بيروت. فتح شركة لبيع وعرض الأعمال الفنيّة في دُبي. ساعدَ الكثير من الفنانين التشكيليين الشباب الفقراء. بقيت تلك اللوحة، لوحتكَ، ذلك الكابوس الذي يلاحقه، ويريدُ اقتلاعَ روحهِ من جسدهِ.

– لوحتي؟ تساءل هوزان مندهشاً.

– نعم. صار مهووساً بالبحث عن تلك اللوحة، يريد استردادها بأيّ ثمن. ذات يوم، جاء إلى حانة القمار، فقط كي يراني ويتحدّث إليّ، ويطلب مني أن أبيعهُ تلكَ اللوحة. بدأ بعرض السِّعر: 10

آلاف دولار، 50، ثم 100 ألف، نصف مليون، مليون دولار. وكلَّما حاولتُ إقناعهُ أن اللوحة لم تعدْ لدي وأنني بِعتُها لتاجر أعمال فنيّة أمريكي. لكنهُ لم يصدّقني، وظنّ أنني أريد ابتزازهُ والزيادة في سِعر اللوحة. أشهر مسدسهُ وهددني بالقتل وقال: «إذا كان المال غير كافٍ لاسترداد تلك اللوحة، فستتكفّل هذه الرصاصات في إقناعكَ». رغم هيجانهِ وغليانهِ، كنتُ في غايةِ البرودِ والتأكّد أنه لن يفعل ذلك. لا أعرف لماذا؟ كان طيشاً منّي أيضاً في عدم التحسُّبِ للعواقب. الآن أفكّر في الأمر، أجدني مجنوناً. ثقتي بعدم إطلاقهِ الرصاص عليّ أتت من أنهُ يعتبرني الخيط الوحيد الذي يؤدّي بهِ إلى تلك اللوحة. بالفعل، تراجع عن تهديدهِ. مضى في حال سبيلهِ منكسراً محبطاً يائساً، كالباحث عن كرامةٍ مهدورةٍ، انتهكها وهتكها العالمُ كلّهُ. هذا الأمر، دفعني لأن أعود إلى التوقيع الموجود في الزاوية اليسرى من اللوحة، فعرفت أنّه توقيعك، ما دفعني إلى البحثِ عنك. وزرتُ معرضَك في دمشق، ولم أرَكَ فيه. لحين سماعي خبرَ هجرتكَ إلى فرنسا واستقرارك في باريس. ولقائي بك وتعرّفي عليك، قبل فترة.

- ماذا جرى لذلك التاجر الدمشقي؟!

- كيف لا تعرفهُ؟ ولا تعرف قصّة انتحارهِ تداولها الإعلام لأكثر من سنة! بحكم عملهِ في شراء وبيع الأعمال الفنيّة ولديه صالتا عرض في باريس وبيروت! يُفترض أن تعرفهُ!

- أتقصد المليونير زبير النشواني؟

- نعم.

- رأيتُهُ في دمشق أكثر من مرّة. أعتقدُ أنهُ سألني أيضاً عن لوحةٍ قديمة لي. ذكرتُ لهُ أنني لا أعرف عنها أيّ شيء، بعد أن بعتها له في معرضي التشكيلي الفردي الأوّل في صالة «جيرون» الفنية بدمشق سنة 1995. لكنهُ اشتراها بألفي دولار فقط، ولم يدفع فيها 20 ألفاً!

- لا تنسَ أنه تاجر. ومن حقّه رفعُ سعر بضاعتهِ المعروضة للبيع. زد على ذلك، أنه حين كذب في ذكر السعر الحقيقي للوحة، كان واقعاً تحت تأثيرِ أخلاق صالة القمار.

- ألفا دولار، سعرٌ كبيرٌ لفنان تشكيلي، في ذلك الوقت. ذكرتُ لهُ؛ أنني هجرت الانطباعيّة. وتلك اللوحة كانت أحد تفاصيل بداياتي التي جرفها النسيان، وحلّت محلّها تفاصيل أخرى، وتقنيّات ومذاهب فنيّة جديدة. غادرني، من دون ذكرهِ سبب بحثهِ عن لوحةٍ اشتراها منّي، قبل سنوات.

- هل تعرف أنني شهدت مقتله؟

مقتل مَن؟!

- النشواني.

- كيف؟

- حدث ذلك في 19 تشرين الثاني 2011. ليلةٌ عاصفةٌ شديدةُ المطرِ والبرد، مع برقٍ ورعودٍ مدوّية. ليلةٌ مثيرةٌ للخوفِ، كالتي نشاهدها في أفلام الرعب السينمائيّة، أو التي نقرأها في بعض الروايات المثيرة. دخل الحانة صامتاً. اندهشَ الجميعُ لمجيئهِ، بعد هذه القطيعة. بخطى وئيدة وهادئة وواثقة، اقترب من ذلك الزبون

الفرنسي الدائم، الذي قهقه في ذلك اليوم، واتهمهُ بالغباء، وسخرَ منهُ لعرضهِ لوحتهُ للبيع في باريس الفنّ والأنوار. في حركةٍ سريعةٍ وماهرة، كأنّهُ تمرّن عليها كثيراً، سحب المسدس، وفجّر رأس ذلك الباريسي بطلقتين، الأولى؛ من الخلف، والرجل جالسٌ على كرسيهِ بجانب طاولة الروليت. والرصاصة الثانية، في جبهتهِ، بعد سقوطهِ على الأرض! الطلقة الأولى جعلت دمهُ ودماغهُ يتطايران ويلطخان سطح الطاولة وما عليها، وكانت كافية لترديهِ. الطلقة الثانيّة، زادت من تفجير رأس القتيل على بلاطِ الكازينو. جرى ذلك وسط ذهول وروع ودهشة ومفاجأة الجميع. تسمّروا في أماكنهم، كأنّهم تماثيل شمع مرعوبة، أو أنهم محضُ كومبارس في فيلم من أفلام الإجرام والإثارة. كأنَّ الهلعَ أصابهم بالشلل!

- كيف سمحوا له بإدخال المسدّس؟!

- لأنهُ زبون مهمّ ومعروف. لم يخضعْ للتفتيش ليلتها! ورُبَّما رشا رجال الأمن. لا أعرف، كيف شعرَ بوجودي ضمن الحضور، وأنني أتفرّج عليهِ، حالي حالُ البقيّة. لم يبذل عناءً ليجد الطاولة التي أجلس إليها. كأس النبيذ الأحمر الذي أمامي كان الثالث في تلك الليلة. وقف قبالتي. يفيضُ من عينيهِ نباحُ ألف كلبٍ ذليل. ظنَّ الجميعُ أنهُ يريدُ إلحاقي بضحيّتهِ الأولى. بحركة بطيئة، وسط همهمة فظيعة وبلبلة خانقة، صوّب مسدسهُ نحوي. نظرتُ إلى عينيهِ بشيء من التحدّي وقبول الحكم وانتظار تنفيذهِ. قلتُ في نفسي: «إذا كانت هذه هي النهاية؟ فلتكن». تخيّلتُ نفسي مرمياً على الأرض مضرّجاً بدمي. يدهُ الممدودة في اتجاهي، تمسكُ قبضة المسدّس بحزم. إصبعه على الزناد. كمَن ينتظرُ أمراً بإطلاق النار. لم أقرأ في عينيه

نظرات حقد أو كراهية. لكنّي رأيتُ نيّة القتل واضحة. مَن قتل شخصاً قبل لحظات، يمكنه قتل شخص آخر. في حركة بطيئة، غيّر اتجاه فوّهة المسدّس. وجّهه إلى صدغه. ابتسم لي. كأنّه يقول لي: «سامحني». أطلقَ رصاصة واحدة على نفسهِ، فهوى جثّة هامدةً على الأرض، وكأنّه ميّت من نحو عقد من الزمن. رأيتُ كيف خرجت الرصاصة من الجهة الأخرى لرأسه، تطاير دمه في الهواء. حتّى بعد سقوطهِ على الأرض، لم أتحرّك من مكاني. ليس من الخوف والذعر. لسببٍ حتّى الآن أجهلهُ. بصعوبة، حتّى تمكّن البوليس من إخراج المسدَّس من قبضة يدهِ اليمنى، لشدّة إمساكهِ به. كنتُ محايداً، وبارداً جدّاً. لم أحاول منعه ولو بكلمة أو حركة.

- لماذا لم تفعل ذلك؟!

- لا أعرف! ربما لأنني لم أشأ منعهُ من تحقيقهِ رغبتهُ في مغادرة حانة القمار هذه التي نسميها الحياة. هو أصلاً، غادر الحياة، حين باعَ تلكَ اللوحة، لأنها كانت ذاتهُ التي فقدها. استرجعَ كل ثروته وضاعفها ثلاثة أو أربعة أضعاف. لكنه فشل في استرداد تلك اللوحة. عاقبَ نفسهُ على فعل ذلك.

- هل فعلاً، بِعتَ اللوحة لتاجر لوحات أمريكي؟ - أوه.. آسف، معذرة؛ نسيت أنَكَ أعدتها لي. لماذا لم تعدها إليهِ؟ وتمنع حدوث جريمة قتل مزدوجة؟!

- لا أعرف. حقّاً لا أعرف. ليست لدي إجابة عن هذا السؤال الذي سألتُه لنفسي مراراً!

- زبير النشواني انتحرَ أمامك!؟ تساءل هوزان بتعجّبٍ وذهولِ غيرِ المصدِّق.

– نعم. كما أراكَ الآن. كنتُ شديدَ البرود والحيادية، كما قلت لك. لم تؤثّر فيَّ رؤيتهُ وهو يقتل نفسهُ، لكأنَّ هذا الانتحار هو المئة بعد الألف الذي أراه يحدث أمامي!

– لماذا لم تخبرني بهذه القصّة، حين أعدت لي اللوحة، أثناءَ زيارتكَ لي قبل أشهر في باريس؟!

– لماذا أصدِّرُ لكَ مأساة إنسانٍ معذّب، وأشعركَ بأنكَ ضالعٌ فيها، بشكل غير مباشر؟! خشيتُ من أن تعتبر تلك اللوحة؛ ملعونة، وأنها السببَ في جريمة قتل رجلين؛ الرجل الفرنسي، والتاجر الدمشقي. خفتُ من أن تُصاب بعقدة الذنب على أنكَ ضالعٌ في تلكَ الجريمة التي جرت على بُعد آلاف الأميال منكَ!

اللوحة التي اعتبرتَها تفصيلاً هامشيّاً بسيطاً مِن بداياتكَ في الرسم والفنّ، وظننتَ أن النسيان جرفها وطواها، تسبّبَتْ في تلك المأساة، لأن شخصاً آخر، اعتبرها كرامتهُ المهدورة.

– وها أنت تخبرني بها الآن!؟

– أخبرتُك، لأن السياق الزمني مختلف.

– هل هي مصادفة؟! الفترة التي تحوّل فيها النشواني إلى قاتل وانتحر، 19 تشرين الثاني 2011، أُصِبتُ فيها بالعمى، ولم يعرف الأطباء في دمشق وموسكو ولندن، سبباً لذلك. مثلما أنا الآن أمامكَ مصاب بالصمم، وأتواصل معكَ بالكتابة، بحيث إن صممي حوَّلكَ أيضاً ويحوّلُ كل شخص يتواصل معي إلى شبه أبكم، يعتمدُ الكتابةَ في التواصل معي. في تلك الفترة تحديداً، أقصد تشرين الثاني 2011، كنتُ أخضع لجلسات علاج نفسي. لم يعرف الطّبُّ النفسي

سببَ العمى الذي أصابني! مَن يدري! رُبَّما إصابتي بالصمم، هي أيضاً ناجمة من أن شخصاً آخر في مكان ما من العالم، اقتنى عملاً لي، وباعهُ في صالة قمار، وفشل في استرداد العمل؟!

– لا أعرف. لا يوجد لدي أي تفسير للتزامن بين انتحار النشواني وإصابتكَ بالعمى.

* * *

لا جديد. وما مِن رتابةٍ أيضاً. كأنَّ الأمرَ باتَ في حكم العادة لديهِ؛ كلَّما غاصت به لحظات التأمّل في حوارات الألوان على سطح لوحتهِ. واقفاً في شرفتهِ الباريسيّة، يرسمُ حينما تكونُ الشمسُ مسيطرة على الشرفة تماماً، وتقتحم القليل من صالون الشقّة أيضاً. يشعرُ أحياناً أن ظلّه، لا يطيعهُ أو يطاوعهُ؛ لا يقلّد حركاتهُ. يمتنعُ عن تتبّعها، ويسعى إلى الفكاك منه. أحياناً أخرى، يظنُّ أن ظلَّهُ تنتابهُ حالةُ هلعٍ منهُ. بينما هو، يعيشُ شيئاً شبيهاً بالسكينة والطمأنينة والرضا الداخلي، من دون إمساكهِ بتلابيبِ الأسباب التي تفضي بهِ إلى تلك الحالة الشبيهة بالرضا والسلام. الأجواء المحيطة به، لا تُنذرُ بحربٍ وشيكة. تهجسُ في خلدهِ فكرة مجنونة أنه ثمّة تنافر أو تضاد أو أقلّهُ؛ عدم رضا وانسجام بينهُ وبين ظلِّهِ، لكأنّهُ لشخصٍ آخر. هل هذا مؤشّر يشي بوجودِ الخلاف أو الخصومة بينهما؟! ما سبب تلك الخصومة؟! يطرحُ على نفسهِ السؤالَ ذاتهُ الذي كان يطرحهُ عليها في دمشق، دون أن تجيبهُ نفسُهُ. مع ذلك، لا جديد. لكن، ما مِن رتابةٍ أيضاً. فقط الأحياء الباريسيّة الهادئة والهانئة التي يراها من شرفة منزلهِ، تحرِّضُ ذاكرتهُ البصريّة وخيالهُ الحزين والجريح على

استحضارِ مشاهد شوارع وأحياء دمشق البائسة والحزينة والكئيبة، ودمجها في المشهد الباريسي الماثل أمامهُ، أثناء الرسم. عنوان لوحتهِ هذه، «ضجيجُ مدينتين»، لم ينتهِ منها بعد، يحاول فيها الجمع بين ضجيج باريس وضجيج دمشق. ولكن، ما علاقة ذلك، بسيرةِ والدهِ؟ يسألُ نفسه. لأنهُ سيهدي المعرض إلى والده. وقرارهُ أن اللوحات ستكون مستوحاة من تجربته! هل غيّر قراره؟!

* * *

مساءَ يوم 13 تشرين الثاني 2015، حاصرهُ الملل. ارتدى بذلةً سوداء ومعطفاً أسود، وقبعةً رماديّة داكنة. خرجَ من البيت، من دون إخبارِ زوجتهِ أو أحد من أولادهِ أو أصدقائهِ بوِجهَتهِ. كأنَّ صوتاً في داخلهِ، يستفزّهُ ويحرّضهُ على الخروج من المنزل. يمسكُ بيدهِ ويقودهُ إلى مكان ما. وجد نفسهُ في الدائرة الحادية عشرة من باريس، أمام مسرح «باتاكلان» (Batacalan) الكائن في 50 بوليفار، فولتير. حشدٌ من الناس ينتظرون دورهم لدخول المسرح. لم يعرف من سيحيي الحفل، إلّا عقب رؤيتهِ الملصقات والإعلانات. في لحظةٍ من الهوس والجموح الغريب التي لا تناسب سنّهُ وذوقهُ الموسيقي أبداً، قرر خوض التجربة، رغم ميلهِ أكثر إلى الموسيقى الكلاسيكيّة، قبل إصابتهِ بالصمم. تلقائيّاً أصبحَ هوزان جزءاً من طابور الواقفين. اصطف خلفهُ عشراتُ آخرون. اقترب من الشبّاك. كتبَ على قصاصة للحسناء التي تجلسُ خلف زجاجهِ: «تذكرة دخول من فضلك»، ردّت عليه بصوتها الذي لم يسمعه: «سيّدي، بقي تذكرة واحدة فقط، وسعرها جدّ غالٍ». ذكرت المبلغ. لكنهُ لم يفهم. كتب على القصاصة مرّة أخرى،

أنه أصمّ، ويريد شراء التذكرة. استغربت الفتاة من ردّه، وقالت لزميلتها: «غريب جداً! رجل أصمّ، يريد شراء تذكرة دخول حفلة جاز لفرقة «نسور الموت» (Eagles of Death Metal)!». كتبتْ لهُ على القصاصة؛ أنها التذكرة الوحيدة المتبقيّة، مع كتابة سعرها. ناولها المبلغ، من دون تردد.

نجحَ في العثورِ على كرسي في منتصف الجانب الأيسر من المسرح. من هياجِ الناس، أثناء صعود عناصر الفرقة، عرفَ أن الحفل بدأ. مع العتمة وتداخل الأضواء بعنف وسرعة، والدخان والأبخرة الملونّة المُصاحِبة، صار يخمّن ويتخيّل سمعيّاً أصوات هذا المشهد المجنون. لم يشعرْ بالوقت. نظر إلى الموبايل، فوجد أن الساعة تشير إلى 21:40. أحسَّ بالاكتفاء والرغبة في الخروج. لكن، كيف لهُ ذلك، وسط هذا الزحام الرهيب؟! بضع دقائق، وعيناه شاخصتان على المسرح، يرى كيف أن قارع الدرامز يضرب بعنف طبولهُ والصنج، ثم يميل ويهرع هارباً، ويهرب باقي أفراد فرقة «نسور الموت» من الموت الذي دخل المسرح فجأةً. حالة الهلع والذُّعر والهروب من الموت، يتوسّطها هوزان، دون أن يعرف شيئاً عنها. التفتَ إلى الخلف، فرأى مسلحين يطلقون النار من بنادقهم على الموجودين في المسرح. لم يشعر بنفسهِ إلّا ساقطاً على الأرض، تدهسهُ الأرجل. انغرس شيءٌ حادٌّ في حنجرتهِ. تحسس بيدهِ اليمنى عنقهُ. في لحظتها، استعاد السمع، واكتمل المشهدُ لديهِ تحت أقدام الذين يحاولون الإفلات من كلاب وذئاب الموت. فقدَ وعيهُ، بعد شعورهِ أن جثثاً سقطت عليهِ. فتح عينيهِ في المستشفى ومن حوله زوجتهُ وأولادهُ. لم يعرف أنهُ استيقظَ من غيبوبة دامت أسبوعاً.

أصيب بثلاث رصاصات، إحداها في الحلق، مزّقت حباله الصوتيّة، وألحقت ضرراً بالحبل الشوكي أيضاً. بينما الرصاصة الثانية في الصدر، والثالثة في البطن، واستقرّت في الكبد. لم يقوَ على تحريك يديهِ كي يشير لزوجتهِ أنه يسمعها. بصعوبة بالغة، نجح في كتابة بضع كلمات قال فيها: «الآن أسمعكِ وأحبّكِ. الآن يمكنني معرفة لماذا فقدتُ القدرة على الكلام. إنّه الرصاص».

شراؤهُ التذكرة الوحيدة المتبقيّة والغالية الثمن لدخول ذلك المسرح الدموي، أعادَ إليهِ القدرة على السمع. التذكرة نفسها جعلتهُ يصارعُ الموتَ قرابة شهر، في أحد مستشفات باريس. غادر مدينة الفنّ والأنوار، كأي غريب، في صبيحة 25 كانون الأول 2015. بتذكرةِ دخولٍ إلى حفلةٍ موسيقية باريسيّةٍ، اشتراها بأضعاف ثمنها. رحلَ، لكنهُ لم يصل بعد إلى وطنهِ. ودَّعَ باريس، مثخناً بآلامٍ لا حصر لها، مُخلِّفاً القليلَ من الأحلامِ والآمال، تاركاً خلفهُ لوحةً غير مكتملةٍ بعنوان «ضجيج مدينتين». غادرها، كما غادرَ من قبلهِ والدهُ «حاجي عمران» و«مهاباد»، «طشقند»، «أربيل» و«دمشق».

بعد الانتهاء من مراسم الدفن والعزاء، وقبل أن تحرقَ زوجتهُ ثيابهُ التي قتل فيها، عثرتْ على ورقةٍ في الجيب الداخلي لمعطفهِ الأسود، غير مؤرّخة، كَتبَ عليها بخطّ يدهِ:

«حبيبتي سارا. أعتذر لكِ على احتفاظي بهذا السرّ، طوال هذه السنوات. كُنتُ مُجبراً على الكتمان. خلفَ خزانة الصّفيح، في مستودعِ بيتنا الدمشقي، هناك دهليز يؤدّي إلى سرداب تحت الأرض. فيه صناديق مليئة بالمخطوطات والكتب القديمة التي يعود تاريخها

إلى مئات السنين. لا أعرف كيف يمكنكِ الحفاظ عليها، وسط تلك الحرب. انتابني إحساس أنني مُغادر. لا أعرف متى؟ وكيف؟ أوصيكِ بالعناية بنفسك والأولاد وبتلك الكتب والمخطوطات الثمينة والمسكينة التي تهددها الحرب والقصف بالدمار في أيّة لحظة. يمكنكِ إبلاغ السلطات الفرنسيّة بذلك السرداب، إن حدث لي أي مكروه. أتمنّى إحراق هذه الورقة، فور انتهائكِ من قراءتها».

* * *

من 01/ 06/ 2016 ولغاية 26/ 11/ 2019

أوستند - بلجيكا



تنويه

هذه الرواية التي عنوانها مستوحى من قصيدة للشاعر محمود درويش «تُنسى كأنّكَ لم تكن»، ليست رواية تاريخيّة أو وثائقيّة. من يريد التاريخ، يمكنهُ التوجّه نحو أهلهِ ومصادره. في هذه السرديّة الكثير من الأشخاص الخياليين والأحداث الخياليّة، والقليل من الأشخاص الحقيقيّين والأماكن والأحداث الحقيقيّة. لا يمكن الأخذ بهذا النصّ من باب التوثيق التاريخي على صعيد استقاء المعلومة.

هوشنك. أ



كأنني لم أكن

سيأتي اليوم الذي أندمُ فيهِ على كلّ الأشياء التي لم أقترفها، أكثر مِن ندمي على أشياءَ اقترفتُها. لذا، عليَّ اقتراف المزيد ثمّ المزيد، حتّى يكون هناك توازنٌ أو تعادلٌ بين النَّدمين. إنْ اقترفتم الشَّيءَ أو لم تقترفوه، في كلتا الحالتين، أنتم أبناءُ النَّدم الشّرعيون. والنَّدمُ هو الابن الشَّرعيُ للحياة. مهما أخذتنا العزّةُ بالتكبّر والتجبّر والخيلاء، وأمعنا في نفي النَّدمِ عن أنفسنا، أفعالنا ومشاعرنا، فنحن كاذبون. ما مِن أحدٍ دخل الحياة، إلاّ وكان النَّدمُ في استقبالهِ. وما مِن أحدٍ خرجَ منها، إلاّ والنَّدمُ في وداعهِ، كي يستقبل وافداً آخر، ينوي دخولَ الحياة، لأنه أحد الأبطال الأبديين على مسرح الحياة، ونحن محضُ كومبارس؛ نتناوبُ على الصُّعود إلى خشبة المسرح والنزول منها. لكن النَّدمَ ليسَ مُعلّماً، والحياةُ ليست مدرسةً، ونحن لسنا تلاميذ أبديين. الحياةُ حيوات؛ روايات لا حصر لها، لا ولن تنتهي، يرويها كاتبٌ واحدٌ يحترم نفسهُ، وقرّاءهُ، ونصوصهُ، ولا نحترمهُ. إنه ذلك الكاتب العظيمُ الذي في داخل كلّ واحدٍ منّا؛ واسمهُ النَّدم.



9 786144 910023

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي بهرم حاجو



 dar_soual@outlook.com   @darsoual  @darsoual2014 www.darsoual.com